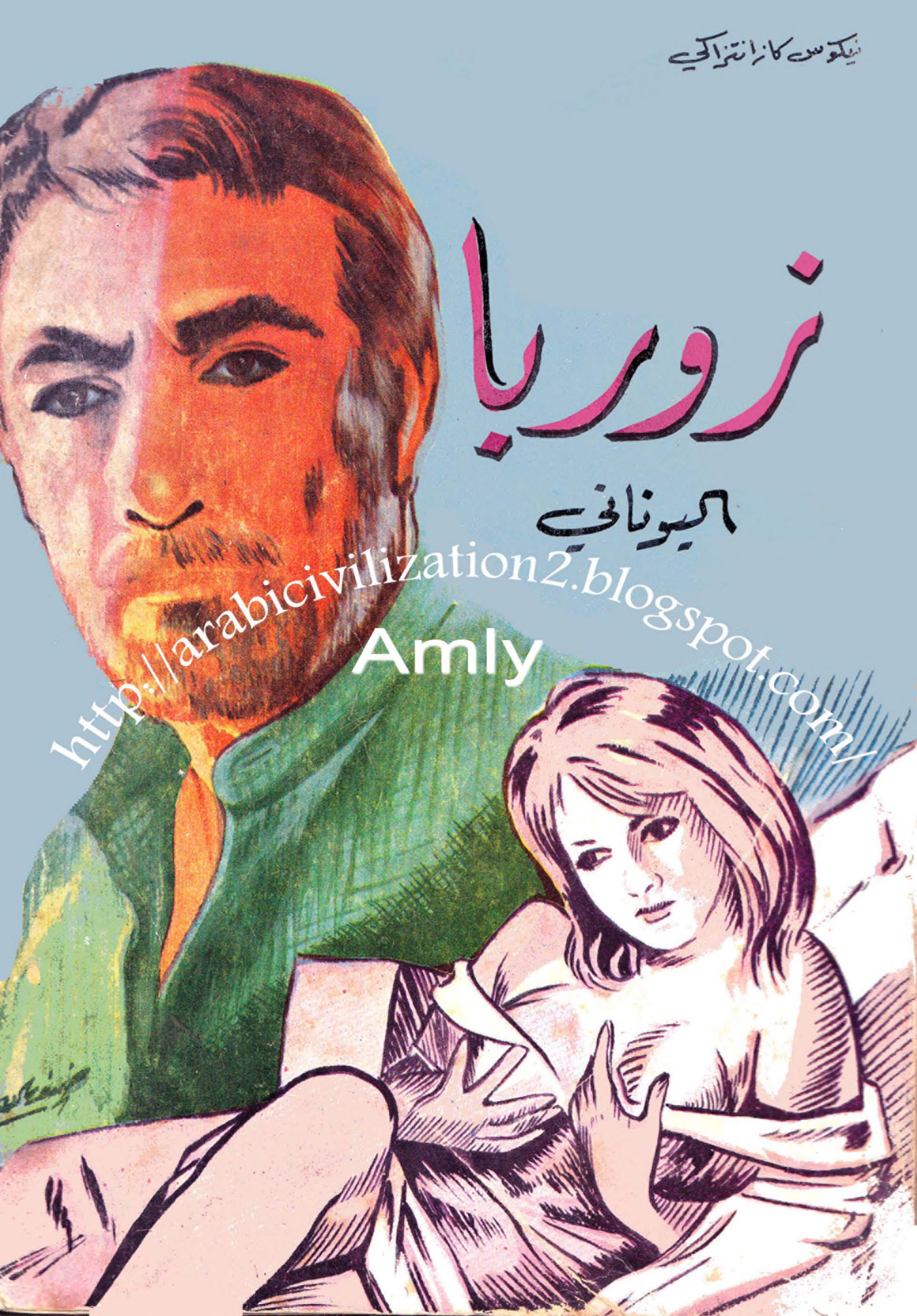
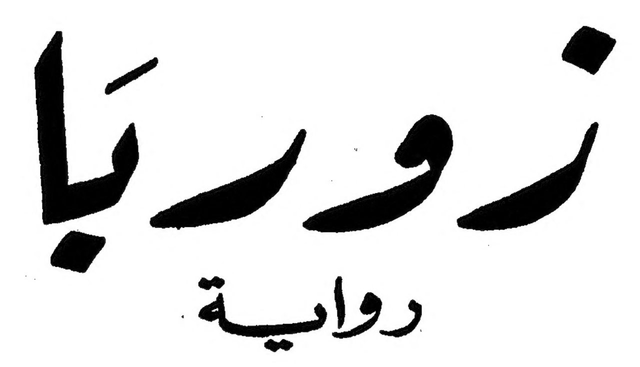

نيكوس كازانتزاكي
زوربا
اليوناني

زوربا

نيكوس كازنتزاكيس



رواية

تعريب

نخبة من الأساتذة

دار
احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

بغداد، حزيران (يونيو) ١٩٦٨



- ١ -

كانت أول مرة التقيته بها في مرفأ « بيريه » عندما كنت متوجهاً لآخذ القارب إلى « كريت » . كان الصباح على وشك أن ينبلج ، والسماء تمطر . وكان رذاذ الموج يصل إلى زجاج المقهى الصغير الذي كانت أبوابه الزجاجية مُغلقة . وكان الطقس بارداً في الخارج ، وقد عبق الجو داخل المقهى بانفاس رواده . وكان هناك خمسة أو ستة يجلسون في المقهى منذ الليل الفائت وقد التفوا لمباسهم القاتم المصنوع من وبر الماعز يشربون القهوة ويدخنون وينظرون إلى زجاج المقهى العابق وإلى البحر الهائج الهادر في الخارج . وكانت الأسماك في البحر قد التجأت إلى الأعماق بانتظار هدوء العاصفة عند سطح الماء . كما كان البحارة والصيادون ينتظرون بدورهم أيضاً هدوء العاصفة ، حتى تصعد الأسماك إلى سطح الماء لتأكل الطعم .

وفتح باب المقهى الزجاجي وولج منه عامل قصير القامة ، أسمر اللون ، عاري الرأس ، حافي القدمين وقد صبغ بالأوساخ من قمة رأسه إلى أخمص قدميه .

– هاي ! كوستاندي ! كيف هي الأمور معك ؟

هتف بحار عجوز يرتدي سترة زرقاء .

وأجابه المدعو كوستاندي بعد أن بصق على الأرض :

– ماذا تعتقد ؟ في الصباح إلى البار ، وفي المساء إلى البيت . صباح الخير أيها البار ومساء الخير أيها المنزل ! هذه هي حياتي التي أعيشها الآن ، فليس لدي من عمل أعمله .

وضحك بعض الحضور ، بينما شتم البعض الآخر ، وهم يهزون برؤوسهم .

– هذا العالم هو سجن مؤبد ، نعم انه سجن مؤبد ، عليه اللعنة .

ودلف عبر زجاج المقهى الوسخ ، شعاع أزرق ، وتعلق بالأيدي والأنوف

وجباه الحاضرين ، ثم تسلل إلى البار وأضاء الزجاجات الفارغة . وخفت الضوء الكهربائي ، وتمطأ صاحب المقهى الذي كان نصف نائم ، ومد يديه بحركة متكاسلة كأنه يستقبل ضوء النهار الجديد .

وبعد فترة من الصمت ، قال البحار العجوز متنهداً :

– ترى ماذا جرى للكابتن ليموني ؟ كان الله في عونه !

ونظر بغضب إلى البحر ثم صاح :

– لعنك الله من بحر أثيم مخرب للبيوت .

ثم عض على شاربه الرمادي .

كنت جالساً في زاوية المقهى من شدة البرد ، وطلبت كأساً ثانياً من الشراب . وشعرت بالنعاس لكني قاومت الرغبة في النوم والتعب . وجلست أنظر من خلال الزجاج إلى المرفأ الذي بدأ يضج بالحركة وبصفارات البواخر ، وبصياح سائقي العربات .

كانت عيناي عالقتين في مقدمة باخرة سوداء كبيرة ، كانت لا تزال مغمورة بظلام الليل القاتم . وكانت السماء تمطر ، وباستطاعتي مشاهدة خيوط الماء المنهمر تربط السماء بالوحل .

نظرت إلى الباخرة السوداء ، وتجسدت كآبة الذكريات الماضية . ودفعت الأمطار بصورة وجه صديقي الكبير . هل كانت السنة الماضية ؟ في عالم آخر ؟ البارحة ؟ متى كانت حين نزلت إلى هذا المرفأ بالذات لأقول له وداعاً ؟ لقد كانت السماء ممطرة ذلك الصباح ، أيضاً ، وفي تلك المرة كان قلبي مثقلاً تماماً شأنه اليوم .

كم هي مؤلمة ساعة الفراق البطيئة ، خاصة فراق الأصدقاء العظام ! فالأفضل الانقطاع دفعة واحدة ، والعودة إلى الوحدة – الجو الطبيعي للرجل . ولكن ، في ذلك الصباح الممطر لم يكن باستطاعتي ترك صديقي (وقد علمت لماذا ، فيما بعد ، ولكن للأسف كان ذلك بعد فوات الوقت) . لقد صعدت معه إلى ظهر المركب ودخلت إلى مقصورته الملأى بالحقائب المبعثرة . وقد حدقت به لفترة طويلة حين كان ينظر إلى أشياء أخرى ، كأنني كنت راغباً في أن أدون ملامحه في مخيلتي : عينيه المضيئتين بالأزرق ، وجهه الفني ، وملامحه الذكية ، وفوق كل ذلك يديه الارستقراطيتين وأصابعها الطويلة النحيلة .

وحين فاجأني وأنا أحدق به بشوق ، ونظر إلي وقد ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الساخرة التي يلجأ إليها حين يريد أن يخفي انفعاله ، وفهم ! ثم سألني مبتسماً ساخراً :

— إلى متى ؟

— ماذا تعني بإلى متى ؟

— إلى متى ستبقى على عادة مضغ الورق والتلوث بالحبر؟ لماذا لا تأت معي؟ بعيداً في القوقاز هناك الألوف من أبناء جلدتنا في خطر عظيم . تعال لننقذهم .

ثم راح يضحك كأنه يهزأ من نبله ، قال :

— ربما ، لن نقدر على مساعدتهم . ولكن ألم تكن تعظ : « ان الطريقة الوحيدة في تخليص نفسك ، هي في مساعدة الآخرين ؟ » حسناً ، أيها المعلم ، إلى الأمام ، وأنت ممتاز في إلقاء المواعظ . لماذا لا تأت معي ؟

ولم أجيبه ، وفكرت بأراضي الشرق الساحرة ، وأم الآلهة العجوز ، وصراخ بروميثيوس المسمر إلى الصخور . هناك على هذه الصخور نفسها كان عرقنا مسمراً ، لقد كان ينادي ويصرخ !! لقد كان ينادي طالباً المعونة من أبنائه ، وكنت أسمع النداء كأن الألم هو حلم والحياة هي مأساة محيقة ، يثبت فيها من يأخذ حصته من العمل في مسرح الحياة .

وبدون أن ينتظر جواباً مني ، نهض صديقي . وصفرت الباخرة معلنة عن الاقلاع،للمرة الثالثة ومد يده إلي، محاولاً اخفاء انفعاله بابتسامته الساخرة، ثم قال :

— إلى الملتقى ، يا عث الكتب !

وارتجف صوته ، وقد شعر بالخجل لانه لم يتمكن من السيطرة على عواطفه . فقد كانت الكلمات الرقيقة، والحركات المضطربة تبدو له ضعفاً لا يجوز للرجل أن يأخذ بها . نحن ، الذين كنا مولعين ببعضنا أشد الولع ، لم نتبادل أية كلمة من كلمات العطف أو المحبة . لقد مثلنا وخدشنا بعضنا بعضاً كأننا قططاً متوحشة . هو ، الذكي ، الساخر ، المتمدن ، وأنا ، الهمجي . لقد تمرن على ضبط النفس وإخفاء كل العواطف تحت ستار السخرية ، بينما كنت أنا أنفجر بضحكتي الوحشية البلهاء .

لقد كنت أحاول دوماً أن أخفي انفعالي وعواطفي بكلمة قاسية . لكني

شعرت بالخجل . لا ، ليس الخجل بالذات ، ولكن سوء التصرف . وأمسكت بيده ولم أقو على تركها ، فنظر إلي مندهشاً .

— هل أنت منفعل إلى هذا الحد ؟

وأجبته بهدوء :

— نعم

— لماذا ؟ ولكن ماذا قلنا الآن ؟ ألم نتفق على ذلك منذ سنين ؟ ماذا يقول الأحباء اليابانيون ؟ « فودوشين » ! الوجه قناع يبتسم . ولكن ما يدور خلف هذا القناع ليس من شأننا !

— نعم

أجبته محاولاً جهدي ان لا أورط نفسي بعبارات طويلة . ولم أكن واثقاً من انني قادر على ضبط صوتي .

ودوى صوت صفارة الباخرة ، معلناً طرد الزوار من غرف المسافرين . كان المطر ينهمر خفيفاً . وكان الهواء عابقاً بكلمات الوداع الرقيقة ، والقبلات الطويلة ، والتأوهات والتوصيات اللاهثة الخاطفة . وتهافت الأمهات على الأبناء ، والزوجات على الأزواج ، والأصدقاء على الأصدقاء ، كأنهم سيفارقونهم إلى الأبد . كأن هذا الفراق يعني « الفراق الكبير » وانطلقت الصفارة من جديد كأنها أجراس الجنائز . فارتعدت !

— اسمع ، هل أنت متشائم ؟

— نعم .

— هل تؤمن بهذه الهواجس ؟

وأجبته بتأكيد .

— كلا .

— إذن ؟

ولم يكن هناك من « اذن » فلم أكن أؤمن بها ، ولكن كنت خائفاً ...

ورمش صديقي بجفونه مرتين أو ثلاثاً ، وحدق بي مرة أخرى . لقد فهم أني منفعل وحزين ، فتردد في إخفاء اضطرابه بالسخرية والضحك ؛ وقال !

— حسناً ! أعطني يدك ، إذا قدر لأحدنا أن يجد نفسه في خطر الموت ...

وتوقف ، كأنه شعر بالخجل . نحن الذين كنا نهزأ من هذه النزوات

الميتافيزيئية لسنوات خلت !!

وسألته محاولاً أن أحذر :

— حسناً ؟

— لننظر اليها كأنها لعبة . إذا قدر لأحدنا ان يجابه خطر الموت ، فليفكر في الآخر بشدة لدرجة ان ينبهه حيث ما كان ... هل اتفقنا ؟

قال ذلك محاولاً ان يضحك لكن الابتسامة جمدت على شفتيه .

-- اتفقنا !

وأضاف صديقي مسرعاً ، خوفاً من أن يكون قد أفصح عن عواطفه :

— مع العلم ، اني لا أؤمن اطلاقاً بعلم قراءة الافكار ، وما شابه ...

وطمأنته متمتماً :

— لا بأس ، وليكن ...

— حسن جداً ، والآن لندع الموضوع عند هذا الحد ، اتفقنا ؟

— اتفقنا

كانت هذه كلماتنا الأخيرة . وتصافحنا بحرارة ، ومشيت مسرعاً دون ان أنظر الى الخلف ، كأنني كنت مطارداً . وشعرت برغبة في إلقاء نظرة أخيرة على صديقي ، لكني تمالكت نفسي وقلت « لا تنظر الى الخلف ! تقدم ! »

* * *

كان الضوء ينتشر رويداً ، والصباحان يبدوان متداخلان . وظهر لي وجه صديقي واضحاً الآن ، الذي بقي لمـدة طويـلة تحت المطر ، ويبدو حزيناً ساكناً... وانفتح الباب ودخل رجل قصير القامة ، مقوس الساقين ، ذو شارب متدل . وتعالت أصوات فرحة :

— أهلا ، كابتن ليموني !

وانتشر الضوء ، وأخذ الكابتن مسبحته وراح يطقطق بهـا بعصبية . بينا انزويت أنا في مقعدي محاولاً استعيد تلك الصورة التي كانت تذوب مبتعـدة عني . لو أتمكن من أن أعيش مرة أخرى هذه اللحظة من الغضب الذي تملكني حين قال لي صديقي « عث الكتب » ! وتذكرت ان كل القرف من الحيـاة التي كنت أحياها قد تجسد في هذه الكلمات . كيف تمكنت أنا ، الذي كنت أحب

الحياة ، ان أدفن نفسي بين أكداس الكتب والاوراق الملطخة بالحبر ! لقد ساعدني صديقي في ذلك اليوم ، يوم الفراق ، على الرؤيا بوضوح أكثر . وشعرت بالاطمئنان . والآن بعد أن علمت اسم حزني ومصدر شقائي فباستطاعتي التغلب عليه بسهولة . ولم تعد أحزاني متفرقة ، فقد تجسدت وأصبحت تحمل اسماً ، لذلك أصبح بإمكاني مقارعتها بسهولة أكثر .

لقد أثر هذا التعبير علي ودخل في أعماق نفسي ، وقد حاولت البحث عن حجة لأترك الورق والكتابة وأحيا حياة أكثر مغامرة وحركة . لقد أصبحت مستاءً من حمل هذه الحشرة البائسة مضافة إلى اسمي . وقد سنحت لي الفرصة منذ شهر ، فقد استأجرت منجماً في جزيرة كريت مواجهاً لبحر ليبيا . وسأذهب اليوم الى هذا المنجم القديم لأعيش مع رجال بسطاء، عمال ، فلاحين، بعيداً عن جنس « عث الكتب » .

وأعددت العدة للسفر ، كأن هذه الرحلة تخفي وراءها معان كثيرة . فقد عزمت على تغيير منهجي في الحياة ، وقلت لنفسي ! « لغاية اليوم—لقد شاهدت الظل وكنت مكتفية به ، والآن سأقودك الى الجسم » .

وعندما انتهيت أخيراً ، وفي ليلة سفري بينما كنت أقلب أوراقي ، عثرت على مخطوطة لم تنته بعد . وأخذتها بيد مشدودة . منذ سنتين كانت الرغبة كامنة في أعماق نفسي ، رغبة قوية جامحة . رغبة أشعر بها تتآكل في أحشائي كل لحظة . لقد كانت تنمو وتنضج وترفسني في صدري تطلب ان تخرج الى الوجود . والآن لم يعد بإمكاني ان أطرحها . لم أعد أجرؤ على ذلك . لقد فات الوقت لهذا الإجهاض النفسي .

وبينما كنت ممسكاً بالمخطوطة تلك ، ظهر أمامي وجه صديقي الساخر ، فقلت بصوت مرتفع بعد أن شعرت بألم السخرية : سأخذها معي ، سآخذها ، لا تضحك !! » ولففت المخطوطة بعناية وحملتها .

وعاد الى مسمعي صوت الكابتن ليموني — وقوراً قاسياً . وأصغيت الى حديثه الذي كان عن العفاريت التي تسلقت صاري مركبه أثناء العاصفة وراحت تلحسه :

— لقد كانت لزجة ، وكان الانسان حين يلمسها يشعر بالنار تحرق يديه . لقد ملست شاربي ونظرت اليها في الظلام وأنا أشع كالعفريت ، وكما قلت ، لقد

طغى البحر على مركبي وأغرق شحنتي من الفحم ، وبدأ مركبي يميل ، ولكن في هـــذه اللحظة ، ترفق الله العظيم ورأف بي وأرسل صاعقة حطمت أخشاب الأبواب وانزلق الفحم إلى البحر . وخف وزن المركب من حمولته وعاد إلى وضعه السابق ، وبذلك أنقذت نفسي .

وبينما كنت أصغي باهتمام لما كان يقوله البحار العجوز ، شعرت بالانزعـاج فجأة فرفعت رأسي . لست أعلم كيف ، لكني شعرت ان عينين اثنين تحدقان بجمجمة رأسي من الخلف ، والتفت مسرعاً باتجاه الباب الزجاجي . وقـــد ومضت في رأسي فكرة مجنـونة : سأرى صديقي مرة ثانية » فقد كنت مهيأً لاستقبال المعجزة ، لكنها لم تحصل . فقد رأيت رجلاً غريباً يبلغ من العمر ستين عاماً ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، عيناه جاحظتان ، وقد ألصق بأنفه على زجاج الباب وهو ينظر إلي . وكان يحمل صرة صغيرة تحت ذراعه .

وقد أثارني فيه نظرته المتشوقة ، وعينـــاه الحادتان المتوقدتان . أو هكذا بدتا لي على كل حال . وما ان تقابلت نظراتنا ، وتأكد له انني الشخص الذي يبحث عنه ، حتى فتح الباب بقوة واندفع إلى الداخل مـــاراً بين الطاولات بخطى سريعة وتقدم نحوي ووقف قرب طاولتي ثم قال :

ـ هل أنت مسافر ؟ وإلى أين ؟

ـ اني مسافر إلى كريت ، ولكن لماذا تسأل ؟

ـ هل تأخذني معك ؟

ونظرت اليه باهتمام . كانت خدوده مجوفة ، وفكه صلب قاس ، ووجنتاه ناتئتان ، وشعره الرمادي مجعد وعيناه متوقدتان .

ـ لماذا ؟ وماذا أفعل بك ؟

وهز بكتفيه وقال :

ـ لماذ ، لماذا ، هل لا يستطيـــع المرء أن يفعل شيئاً دون لماذا ؟ للاشيء ، لان المرء يريد ذلك ! خذني معك كطباخ مثلا . ان باستطاعتي أن أطبخ حساء لم تذق مثله في حياتك .

ورحت أحدق به وأنا أضحك ، فقد اعجبني هـــذا المخلوق ، كما أعجبني الحساء . فقلت في نفسي انه ليس ثمة من ضرر في أن آخذه معي . فهو يبدو انه قد جاب البحار طويلاً ، فهو أشبه بالسندباد البحري ... وقد أعجبني .

وقال لي وهو يهز برأسه الضخم .

– وبماذا تفكر ؟ هل توازي الأمر بنفسك ، هيا أيها الصديق اعتمد وقرر لنفسك ...

– اجلس الآن وخذ قدحاً من الشراب .

– حسناً ، ولكن كأساً من « الروم » ينفعني أكثر .

وسألته بعد أن تناول كأس الروم وراح يتذوقه بهدوء .

– ما نوع العمل الذي تتقنه ؟

– كل الأنواع ، بالأرجل والأيدي والرأس ، جميعهم .

– أين كنت تعمل في السابق ؟

– في منجم ، فأنا خبير في عمل المناجم . كما إني خبير في المعادن ، أنا أعرف كيف أجد العروق ، أحفر الأنفاق ، وأهبط إلى الحفر العميقة دون أن أخاف. لقد كنت أعمل جيداً . فقد كنت رئيساً على العمال ، وكنت لا أشكو من شيء . ولكن الشيطان تدخل في عملي . فيوم السبت الماضي جاء صاحب المنجم ليفتش بين العمال ، فأمسكت به وأوسعته ضرباً ... هكذا ... دون أن أكون سكراناً .

– ولكن لماذا ؟ وماذا فعل لك ؟

– لي ؟ لا شيء على الاطلاق . فقد كانت المرة الأولى التي أراه فيها . فالمسكين قد وزع علينا السكاير أيضاً .

– حسناً ؟

– أوه ، مالك تجلس هكذا وتطرح الأسئلة ، لقد خطر لي ذلك ، هذا كل ما في الأمر . تعلم قصة زوجة الطحان ؟ حسناً ، فلا يمكنك تعلم الإملاء من مؤخرتها ، مؤخرة زوجة الطحان ، فهذا هو المنطق الانساني .

فنظرت إلى رفيقي الجديد بمزيد من الاهتمام ، فقد أعجبني تحليله للأمور المنطق ، ثم سألته :

– وماذا تحمل في صرتك هذه ؟ طعام ؟ ملابس ؟ أم معدات ؟

ورفع صديقي بكتفيه وضحك .

– انك تبدو كثير التعقل ، أرجو المعذرة لهذا .

وضرب على صرته بأصابعه الطويلة القاسية وقال :

– كلا ، انها السانتوري [1] .

– السانتوري ؟ وهل تعزف عليها ؟

– نعم ، عندما أكون مفلساً أذهب إلى الحانات ثم أعزف عليها وأنشد بعض الأغاني المقدونية القديمة ، ثم أبدأ بجمع النقود من الزبائن في قبعتي ، فتمتلىء بعد قليل بالدراهم .

ما اسمك ؟

– الكسيس زوربا . وفي بعض الأحيـــان يدعونني « مجرفة الفران » لانني طويل القامة وجمجمتي مسطحة تشبه الكمكة . كما انني أدعى « مضيع الوقت » لانني كنت أبيـع البزر المحمص في وقت من الأوقـــات . وهم يدعونني أيضاً « المعفن » لانني أسبب المشا كل أيـــنما حللت . كل شيء يذهب للكلاب . ولي أيضاً أسماء أخرى ، ولكني سأدعها لفرصة ثانية ...

– وكيف تعلمت العزف على السانتوري .

– كنت في العشرين العشرين ، فسمعت السانتوري لأول مرة في احـــدى الاحتفالات القروية ، هناك عند قدم جبل أوليمب فبهرت لتوي حين سمعت النغم ، وبقيت ثلاثة أيام دون طعـــام . وسألني والدي رحمه الله « ماذا جرى لك ؟ » فقلت له اني أريد أن أتعـــلم العزف على السانتوري . فقال لي : « ألا تخجل من نفسك ؟ هل أنت غجري ؟ هل تريد أن تتـــحول إلى عازف ؟ » فأجبته « نعم ، أنا أريد أن أتعلم العزف على السانتوري » وكنت قـد أدخرت بعض القروش لكي أتزوج حين يحين الوقت. فقد كنت لا أزال فتياً ودم الشباب لا يزال يجري حـــاراً في عروقي ، وأريد الزواج ، أنا الغبي المسكين ! وهكذا دفعت كل ما ادخرته من مال ثمنـــاً لشراء السانتوري . وهربت إلى سالونيك حيث قابلت رجلاً تركياً يدعى رستب أفندي وهو معـــلم ماهر للعزف على السانتوري . وألقيت بنفسي عند أقدامه « ماذا تريد أيها العـــاق الصغير ؟ » سألني المعلم، فقلت له « اني أريد أن أتعلم العزف على السنتوري » فقال « حسناً، ولكن لماذا ألقيت بنفسك على أقدامي هكذا ؟ » – لأني لا أملك مالاً لأدفعـه لك – « وأنت مغرم بالسنتوري إلى هذا الحد؟ « – نعم » – « حسناً ، يمكنك البقاء ، يا ولدي ، فأنا لست بحاجة إلى مالك » .

---

[1] – السانتوري آلة موسيقية يعزف بها بواسطة مطرقة صغيرة .

وبقيت عنده سنة أتعلم العزف ، وهو لا بد أن يكون قد مـــات الآن ، رحمه الله . وإذا كان الله تعالى يسمح بدخول الكلاب إلى جناته ، فلعله يفتـح أبواب الجنة لرستب أفندي. ومذ أن تعلمت العزف على السانتوري حتى أصبحت رجلاً آخرا . فعندما أشعر بالحزن، أو حين أكون مفلساً أعزف على السانتوري فأشعر بالسعادة والانشراح . وعندمـــا أعزف ، لا أسمع شيئاً مما يقولونه لي ، وإذا سمعت فلا يمكنني الكلام . ولا فـائدة من المحاولة ، فـــأنا لا أستطيـع . . .

– ولكن لماذا ، ، زوربا ؟

– أوه ! ألا ترى ؟ انه الهوس المحموم ، نعم انه الهوس .

وفتح باب المقهى من جديد ، وسمعت هدير البحر ، وكانت أيدينا وأرجلنا متجمدة من شدة الصقيـع ، فانزويت أكثر إلى الركن الدافىء وتلفعت بالمعطف ونعمت بدفء المـكان . وقلت في نفسي « إلى أين سأذهب ؟ فـــأنا على أحسن حال هنا ، ليت هذه اللحظة تدوم لسنين طويلة » .

ونظرت إلى الرجل الغريب أمامي ، الذي كان يحدق بي وقلت له :

– حسناً ؟ استمر .

وهز زوربا بكتفيه وقال :

– دعك من ذلك ، هل تعطيني سيكارة ؟

وقدمت له سيكارة، تناولها وأخرج من جيبه قداحة وفتيلة وأشعل السيكارة ثم أغمض عينيه بسرور وارتياح . وسألته :

– متزوج ؟

وأجابني غاضباً :

– ألست رجلاً ؟ ألست رجلا ؟ أعني أعمى ، شأني شأن الجميـع ، لقـــد سقطت على رأسي في الفخ وتزوجت ، وأصبحت رب عـــائلة ، وبنيت بيتاً ، وأصبح عندي أطفال ومشاكل . ولكن شكراً للرب على السانتوري . . .

– وهل كنت تعزف لتنسى همومك ؟

– اسمع ، اني أرى انك لا تستطيـع العزف على أية آلة موسيقية . في البيت تكن كل مشاكلك . الزوجة ، الأولاد . ما الذي سنأكله ؟ كيف سندبر أمر الملبس ؟ ما الذي سيحل بنـا ؟ يا للجحيم ، كلا ، لـكي تعزف السنتوري يجب

أن تكون في حـــالة جيدة ، يجب أن تكون صافياً . فإذا ما رددت زوجتي كلماتها فكيف يمكنني العزف ؟ وإذا كان أولادك جائمين يصرخون ، حـــاول عنــد ذلك ان تعزف السانتوري ، فعقلك يجب أن يكون عند السانتوري ، لا عند أشياء أخرى ، هل فهمت ؟

نعم ، فقد فهمت . ان زوربا هو الرجل الذي كنت أنشده منذ مدة طويلة دون أن أجـــده . قلب حي ، وفم ضخم شره ، ونفس كبيرة قاسية لم تعركها الأيام .

ان معنى كلمات الفن والحب والطهارة والعاطفة . كل هذه المعاني أظهرتها لي تلك الكلمات البسيطة التي تفوه بها هذا الرجل العامل .

ونظرت إلى يديه اللتين تستطيعان الامساك بالمعـــول والسانتوري . يدان متحجرتان ، مشققتان ، مشوهتان . وباعتناء بالغ ، كأنهما تخلعان ثياب امرأة، فتحت الصرة وسحبت منهـــا السانتوري الذي صقلته السنون ، مع حزمة من الأوتار ، مضرباً بالنحاس والعاج مع شرابة حمراء من الحـــرير . ثم راحت تلك الأصابع الطويلة تداعبه بعطف كأنه أيد تداعب وجه امرأة . ثم أعـــادت وضعه ولفته باعتناء بالغ كأنه جسد محبوب خافت عليه من البرد .

– هذا هو سانتوري العزيز .

تمتم ذلك وهو يضع الصرة باعتناء على الكرسي .

وكان البحارة يقرعون الكؤوس ويضحكون . وربت البحار العجوز على كتف الكابتن ليموني وهو يقول :

– قل الحقيقة ، يا كابتن ، الست خائفاً ، ان الله أعلم بعـــدد الشموع التي ندرتها للقديس نيقولا .

وقطب الكابتن حاجبيه الضخمين :

– أقسم لـكم ، إنني عندمـــا رأيت الموت يقترب مني ، لم أفكر بالقديسة العـــذراء ، ولا بالقديس نيقولا ، بل التفت نحو سالاميس ، وفكرت بزوجتي وصحت قائلاً : « آه ، كاترين ، لو انني انني الآن معك في الفراش » .

وانفجر البحـــارة في الضحـــك ، وشاركهم الكابتن ليموني ضحكهم هذه المرة .

– يا للانسان ، ان الرجل حيوان ، فقد كان شبح الموت مخيماً فوق رأسه

بينما كانت أفكاره منشغلة هناك ، لا في أي مكان آخر . تباً له من حيوان .

وصفق الكابتن وطلب دوراً آخراً من الشراب لرفاقه .

كان زوربا يستمع إلى الحوار بأذنين كبيرتين ، والتفت اليهم ، ثم إلي وقال :

ـ ما هذا ؟ ماذا يقول هذا الرجل ؟

ولكنه فهم فجأة ، وهتف بإعجاب :

ـ برافو ، يا صديقي ، ان هؤلاء البحارة يعرفون السر . وأغلب الظن لانهم معرضين ليلاً نهاراً للموت .

وأشار بقبضتيه في الهواء وقال :

ـ حسناً ، ان هذه مسألة أخرى ، ولنعد الآن إلى عملنا . هل سأبقى أم لا ، قرر بسرعة .

وقلت له :

ـ أنا موافق يا زوربا ... تعال معي إلى كريت ، فلدي فحماً هناك . وباستطاعتك مراقبة العمال ، وفي المساء سنتمدد على الرمال ، في هذا العالم ، ليس عندي لا زوجة ولا أطفال ولا كلاب . سنأكل ونشرب معاً ، وستعزف أنت على السانتوري .

ـ هذا إذا كنت في مزاج خاص للعزف ، هل تسمح ، سأعمل لك أي شيء تريده . فأنا رجلك المطيع هناك . ولكن السانتوري ، فهذا شيء آخر . انه حيوان وحشي ، وهو بحاجة إلى الحرية . فإذا كنت مستعداً للعزف فسأعزف، وربما اغني أيضاً ، وسأرقص (الزيمباكيكو) و (الهاسابيكو) و (البنتوزالي) ولكن دعني أخبرك منذ الآن ، يجب أن أكون مستعداً لذلك . لنفهم ذلك بوضوح . وإذا أرغمتني على ذلك ، فسينتهي كل شيء الآن ، فأنا بما يتعلق بهذه الأمور ، رجل .

ـ رجل ؟ ماذا تعني بذلك ؟

ـ أعني ، حراً .

وطلبت كأساً من الروم ، فأضاف زوربا طالباً كأساً آخراً أيضا .

وقرعنا الكؤوس ، وكان الصباح قد أشرق ، وسمعنا صفارة المركب ، وأشار الحمال الذي نقل حقائبي إلى المركب . وقلت وأنا أنهض :

ـ تعال ، لنذهب ، وليكن الله معنا .

ـ الله والشيطان معاً .

أضاف زوربا ، ثم انحنى والتقط صرته ووضعها تحت ذراعه وفتح البـــاب وسبقني بالخروح .

- ٢ -

البحر ، وطراوة الخريف ، والجزر السابحة في النور ، والمطر الناعم الذي أضفى حجاباً شفافاً على العري الأبدي لجزر اليونان . كم هو سعيد الرجل الذي يمخر عبا بحر إيجه قبل وفاته .

كم هي عديدة مسرات هذا العالم ، نساء ، وفواكه ، وآراء . ولكن أن تشق عباب هذا البحر الهادىء وفي فصل الخريف لهي السعادة التي تمـلأ قلب الانسان في نعيم الفردوس . فهذا هو المكان الوحيد الذي يمكن للانسان أن ينتقل فيه من مكان إلى مكان بهـدوء وسهولة ، من الواقع إلى الخيال ... انها المعجزة بالذات !

وعند الظهر انقطع المطر ، وبددت الشمس حجب الغيوم ، وأطلت علينـا ناعمة لتداعب بأشعتها صفحات المـاء الحبيبة . وتركت نفسي تستوعب هذه المعجزة الخالدة التي انقشعت على مدى الأفق البعيد .

وعلى ظهر المركب ، كان اليونانيون ، الشياطين الأذكياء ، ذوو العيـون المشعة والعقول التي تتقن فن المساومة الطويل على البضائع التـافهة . وفي بعض الأحيان تأخذ بك الرغبة في أن تمسك بهذا المركب من طرفيه وتغرقه في البحر ، ثم تهزه جيداً لتغسل عنه كل هذه الحيوانات التي أوسخته ، رجال ، فئران ، وقمل . ثم تعومه من جديد بعد أن يصبح نظيفاً فارغاً .

ولكن في بعض الأحيان كانت العاطفة تمنعني ، عاطفة بوذية ، بـاردة كالاستنتاجات الميتافيزيقية . عاطفة ليست نحو الرجال فقط ، بل نحو الحياة كلها بجهادها ، وصراخها ، ونواحها ، وآمالها التي لا ترى ان كل شيء ليس إلا محاولة لإظهار الأشباح من العدم . عاطفة نحو اليونانيين ، ونحو المنجم الفحمي ونحو مخطوطتي الناقصة عن بوذا ، وعلى ذلك الخليـط من النور والظلال الذي يزعج صفاء الجو .

وكنت أختلس النظر إلى زوربا المنهك ، الشاحب الوجـــه ، وقد قبع في مجلسه على ظهر المركب على كومة من الحبـــال عند مقدمة المركب . كان يشم ليمونـــة ويصغي إلى صراخ الركاب وشجارهم بأذنيه الكبيرتين ثم يهز برأسه الضخم ويبصق ويتمتم قائلاً :

— هؤلاء الحطام ، ألا يخجلون من أنفسهم ؟

— ماذا تعني بكلمة — حطام — يا زوربا ؟

— كل هؤلاء الملوك ، الديمقراطيات ، النواب ، المرائين !

ان الحوادث لم تكن لزوربا سوى أمور قديمة ، فهو بنفسه قد ابتمد عنها . وبالتأكيد كان التلغراف ، والبواخر ، والمراكب ، الاخلاق السائدة ، والدين لا بد أن تكون كالبنادق القديمة المصدئة . فتفكيره قد تقـدم بسرعة تجاوزت تقدم العالم .

كانت الحبال تتشقق على الصواري ، والشواطىء كانت تتراقص ، والنساء المسافرات أصبحت وجوههن أكثر اصفراراً من الليمونة ، لقد ألقين بأسلحتهن، المساحيـــق والمشدات ، ودبابيس الشعر ، والأمشاط . وشحبت شفاههن ، وأظافرهن بدأت تتحول ألوانها إلى الأزرق ، وبدأت تتساقط الريش المستعار والشرائط الحريرية والجفون الاصطناعية . فقد كان الناظر اليهن ، بالإجمال ، يشعر بالقرف والرغبة في التقيؤ .

وشحب وجه زوربا بدوره واصفر لونه ثم اخضر ، وخفتت عيناه المتقدتان. ولم يعد إلى تألقه الأول إلا في المساء . حين أشار إلي ليريني درفيلين كانا يقفزان ويسابقان المركب ، وصاح قائلاً :

— درافيل !

ولاحظت لأول مرة ان نصفُ باهم يده اليسرى مقطوع ، فارتعـــدت وسألته :

— ماذا جرى لأصبعك ، يا زوربا ؟

وأجابني وقد بدا عليه الاستياء لانني لم أنظر إلى الدرافيل .

— لا شيء !

— هل قطعته بآلة حادة ؟

— وما شأن الآلة في الموضوع ، كلا فقد قطعته بنفسي .

— بنفسك ، ولماذا ؟

— انت لا يمكنك الفهم ، أيها الرئيس ، لقد سبق وأخبرتك انني قمت بأعمال عديدة . وفي احدى المرات عملت في صناعة الفخار ، وقد أحببت هذا العمل لدرجة الجنون . هل يمكنك أن تتصور ماذا يعني أن تأخذ حفنة من الطين وتعمل منها ما تريد ؟ قرر ! ثم تدوّر الدولاب ويدور الطين معه بينما تقول بنفسك : سأصنع جرة ، سأصنع صحناً ، سأصنع قنديلاً والشيطان يعلم ماذا أيضاً ! هذا ما تقوله عن كونك رجلاً : الحرية !

لقد نسي البحر ، ولم يعد يقضم الليمونة ، وعاد الصفاء إلى عيونه ...

— حسناً ، ولكن أصبعك ؟

— لقد كانت تزعجني ، وتقف في طريق عملي ، وتفسد علي مشاريعي ، وفي ذات مرة أمسكت بفأس صغيرة ...

— ألم تشعر بالألم ؟

— كيف لم أشعر بألم ؟ هل تعتقد اني جذع شجرة ، انني انسان ، لقد تألمت ، ولكن كما قلت لك كانت تقف في طريقي فقطعتها !

وهدأ البحر قليلاً عند غياب الشمس وانقشاع الغيوم ، فبدت نجمة المساء لامعة براقة . وألقيت نظرة على البحر ورحت أفكر ... كيف نحب إلى هذا الحد ، ثم نأخذ فأساً ونقطع ثم نتألم ... لكني أخفيت اضطرابي وأردفت قائلاً محاولاً الابتسام :

— انها لطريقة سيئة يا زوربا ! انها تذكرني بالأسطورة الذهبية التي تقول عن ناسك الذي رأى مرة امرأة قد أزعجته جسدياً .. لذلك تناول فأساً ...

وصاح زوربا مقاطعاً :

— كم هو أحمق ، يقطع هذا ! ولكن هذا المسكين لا يعتبر عقبة !

— كيف ؟ بل هو عقبة كبيرة .

— أمام ماذا ؟

— أمام ولوجك أبواب السماء !

وحدجني زوربا بنظرة ساخرة وهو يقول :

— انه هو الذي يمكنك اعتباره مفتاح السماء .

ثم رفع رأسه ، وحدق بي كأنه يريد معرفة رأيي بالحياة التالية ، وبملكوت السماء ، والنساء والنساك ، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى شيء فهـز برأسه الضخم واستطرد قائلاً :

– ان الخصيان لا يدخلون السماء .

ولاذ بالصمت ، فذهبت إلى مقصورتي وأخذت كتاباً ورحت أقرأ ...

* * *

وفي صباح اليوم التالي استيقظت مبكراً . وكانت الجزيرة قد أصبحت عن يميننا . تلك الجزيرة الكبيرة المزهوة المتوحشة . والجبال الوردية الشاحبة تبدو كأنها تبتسم من خلال ضباب شمس الخريف . ومن حول المركب كان البحـر الأزرق لا يزال ثائراً هائجاً .

وكان زوربا المتحف بغطاءه الرمادي ينظر محدقـاً إلى جزيرة كريت ، وعيونه تنتقل من الجبل إلى السهل وتتبـع الشاطىء وتتفحصه ، كأنه قد شاهد جميـع هذه الأراضي والبحار مرات سابقة وهو يتمتع برؤيتها مرة ثانية .

ودنوت منه واضعاً يدي على كتفه قائلاً :

– زوربا ، أعتقد انها ليست هذه المرة الأولى التي تأتي فيها إلى كريت !فأنت تحدق بها كأنك صديق قديم .

وتثاءب زوربا ، كأنه ضجر . وشعرت انه لا يميـل إلى الحديث الآن . فابتسمت وقلت له :

– ان الحديث يضجرك ، اليس كذلك يا زوربا ؟

– ليس هذا بالضبط ، أيها الرئيس . لكن الكلام صعب .

– صعب ؟ ولماذا ؟

ولم يجبني على الفور ، وأجال بنظره إلى الشاطىء ، مرة أخرى . لقـد نام ليلته على ظهر المركب وكان شعره الرمادي الجعد يقطر بالندي . وكانت الشمس المشرقة تضيء التجاعيد في وجهه ورقبته .

وحرك شفتيه أخيراً وهو يقول :

– في الصباح أجد صعوبة في فتح فمي ، صعوبة كبيرة ، اعذرني .

ومرة أخرى راح في صمت عميق وعاد ينظر إلى كريت .

ورن جرس طعـــام الافطار . وظهرت الوجوه من المقصورات . نساء مترنحات وشعورهن متدلية تفوح منهن روائح القيء الممزوج برائحة الكولونيا ، وأعينهن مذعورة بلهاء ....

وكان زوربا يجلس أمامي وهو يشرب فنجان القهوة ، ويغمس قطعة الخبز التي مسحها بالزبدة والعسل . ثم يأكلها . وأشرق وجهه بعد ذلك واطمأن قليلاً وبدا فمه كأنه أصبح مرناً . ثم أشعل سيجارة وراح يستنشق أنفاساً وهو على أشد ما يكون من التلذذ . ولاحظت انه أصبح مستعداً للحـــديث ، ومن ثم راح يقول :

— هل هذه هي المرة الأولى التي آتي بها إلى كريت ؟ ...

ثم أغمض عينيه قليلاً ، ثم راح ينظر إلى جبل ابرا الذي كان ممتداً وراءنا ، واستطرد قائلاً :

— كلا انها ليست المرة الأولى ففي عام ١٨٩٦ أصبحت رجلاً ناضجاً تماماً ، وكان شاربي وشعري لا يزالان بلونيهما الحقيقيين ، وكنت لا أزال في مقتبـــل العمر ، وكنت حين أسكر التهم المقبلات أولاً ثم الطعام . نعم ، فقد استمتعت إلى أقصى حدود الاستمتاع . لكن الشيطان تدخل أيضاً ، فقد نشبت الثـورة في كريت .

في تلك الأيام كنت بائعاً جوالاً ، وكنت أبيع الخرضوات متنقلاً من قريـة إلى قرية في مقدونيا وعوضاً عن المال كنت أستبدل ما أبيعه بالجبنة والصوف والزبدة والأرانب والذرة. ثم أعود وأبيع هذه الأشياء وأكسب ربحاً مضاعفاً. ففي كل قرية أحلها ليلاً ، أعلم أين أنام ، ففي كل قرية كنت أجد قلب أرملة رحيمة عطوف ، وكنت أقدم لها مشطاً أو مكباً من الخيطان أو وشاحاً ... أسود اللون بسبب المرحوم ، وأنام معها بعـــد ذلك ! ولم يكن ذلك يكلفني كثـــيراً .

كلا ، لم تكن تكلفني كثيراً ، أيها الرئيس ، ولكن كما قلت سابقاً لقـــد تدخل الشيطان وهبت كريت لتحمل السلاح ، وقلت لنفسي فلتذهب بمصيرها إلى الجحيم ! ألا تقدر هـــذه « الكريت » اللعينة أن تتركنا في سلام ؟ ثم وضعت جانباً أمشاطي ، وحملت بندقيتي وتوجهت للانضمام للثـــوار في كريت .

وصمت زوربا . فقد بدأنا نسير إلى خليج مستدير رملي . وكانت الأمواج تنتشر بهدوء دون أن تتكسر ، تاركة خيطاً رفيعاً من الزبد على طول الشاطىء . وانقشعت الغيوم ، وتألقت الشمس ولاحت أطراف الجزيرة بوضوح .

والتفت زوربا نحوي وحدجني بنظرة ساخرة .

– والآن ، اعتقد أيها الرئيس ، انك تتصور باني سأخبرك كم رأساً تركياً قد قطعت وكم أذناً قد وضعت في الكحول ، فهذه هي العادة في كريت . حسناً ، ولكني لن أفعل ، فأنا لا أحب أن أفعل ذلك لاني أخجل منه . ما هذا الجنون ؟ واليوم بعد أن أصبح عقلي راجحاً ، صرت أسائل نفسي قائلاً ، ما هذا الجنون الذي تملكنا لكي نلقي بأنفسنا على رجل آخر ، لم يؤذنا بشيء ، ثم نعضه ونقطع أنفه ، ونمزق أذنيه ، وفي نفس الوقت نطلب من الله المظيم أن يساعدنا ! فهل هذا يعني أنا نطلب من الله أن يذهب معنا ليقطع آذان البشر وأنوفهم ؟.

ولكن في ذلك الوقت ، كان دمي لا يزال حاراً في عروقي ، وما كان باستطاعتي الوقوف والتساؤل والتفحص ، إذ يجب على المرء لكي يفكر بدقة وعدل ، أن يكون هادئاً ، مسناً ، ودون أسنان ! فعندما يكون المرء عجوزاً لا أسنان له ، فباستطاعته القول بسهولة تامة : لعنكم الله ، أيها الأولاد ، فمن العيب أن تعضوا ! ولكن حين تكون له أسنان الاثنين والثلاثين ... يكون الانسان متوحشاً كالحيوان ... نعم ، أيها الرئيس كالحيوان المفترس آكل لحوم البشر ...

وهز برأسه ، ثم قال :

– وهو يأكل الخراف أيضاً ، والدجاج والخنازير ، ولكنه إذا لم يأكل لحم البشر تبقى معدته خاوية .... كلا ان معدته لا تكتفي !! والآن ما لديك من أقوال ؟

ولكنه لم ينتظر الجواب ، بل أكمل قوله وهو يحدق بي :

– ماذا يمكنك أن تقول ؟ فكما أرى ، ان سيادتك لم تشعر بالجوع مطلقاً ، ولم تقتل أبداً ، ولم تسرق ،ولم تزنِ . ماذا تعرف من هذا العالم ؟ ان عقلك بريء ، وجلدك لم ير أشعة الشمس .

قال جملته الأخيرة بكثير من الاحتقار ، مما جعلني أشعر بالخجل من يدي

الناعمتين ووجهي الشاحب وحياتي الخالية من لطخات الدم والوحل . ثم قال وهو يمسح بيده الخشنة على الطاولة :

– حسناً ، حسناً ، فهناك ما أود أن أسألك إياه فلا بد انك قرأت مئات الكتب ، فربما تعرف الجواب .

– هيا ، قل لي يا زوربا . ما هو ؟

– ان هنا ثمة معجزة تحدث ، أيها الرئيس. معجزة مضحكة تحيرني. ان كل هذه الأعمال ، هذه الخدع القذرة والسرقات والمذابح التي نقوم بها – نحن الثوار – كل هذه جاءت بالأمير جورج الى كريت . الحرية !

ثم نظر الي بعينين ملؤهما الدهشة .

– انها ، أحجية عظيمة ، فإذا أردنا الحصول على الحرية في هذا العالم القذر ، يجب أن نقوم بهذه الجرائم ، وهذه الخدع القذرة ، اليس كذلك ؟ أقول ، إذا أخبرتك عن كل هذه الجرائم المريعة لوقف شعر رأسك ! ولكن ما هي نتيجة كل ذلك ؟ الحرية ! فبدلاً من أن يزيلنا الله تعالى بصاعقة من عنده يمنحنا الحرية ! اني لا أفهم حقاً ...

ونظر إلي كأنه يطلب العون مني ، وقد لاحظت ان هذه المعضلة قد شغلته وآلمته ولم يتمكن من كشف سرها . ثم سألني بقلق :

– هل فهمت ؟

ماذا أفهم ! وماذا أقول له ؟ فإما هذا الذي ندعوه الهاً غير موجود ، وإما أن تكون هذه التي ندعوها جرائم واغتيالات ضرورية للكفاح من أجل حرية العالم ...

وحاولت أن أجد له طريقة أسهل لأشرح له الأمر .

– كيف تستطيع الزهرة أن تنمو وتعيش وسط السماد والقذارة ؟ افترض يا زوربا لنفسك ان هذه الأقذار هي الانسان وان الزهرة هي الحرية .

– ولكن البذرة ؟

صاح زوربا وهو يضرب الطاولة بقبضة يده ويقول :

– لكي تنبت الزهرة يجب أن يكون هناك بذرة . من هو الذي وضع بذرة كهذه في جوفنا ؟ ولماذا لا تنبت البذرة هذه زهور لطيفة شريفة ؟ لماذا تحتاج

إلى الدم والأوساخ ؟

فهززت رأسي قائلاً :

– لا أعلم !

– ومن يعلم ؟

– لا أحد

وصاح زوربا في يأس :

– إذن ماذا تنتظر مني أن أفعل بالقوارب والمحركات وربطات العنق ؟

وتململ اثنان من المسافرين الذين كانوا يحتسون القهوة على مائدة مجـــاورة ، وأرهفوا آذانهم لسماع مـــا نقوله . واشمأز صديقي منهم وقال لي بصوت خفيض :

– لنغير الموضوع ، فعندما أفكر في ذلك ، أشعر برغبة في تحطيم كل مـــا تقع عليه يدي من كراسي أو قناديل أو حتى ضرب رأسي بالحائط . ولكن ما الفائدة من كل هذا ؟ فسأضطر إلى دفع ثمن مـــا حطمته ، ثم أضطر للذهاب للطبيب ليربط لي رأسي . فهذا أسوأ بكثير ، فسينظر إلي من أعـــالي السماء وينفجر بالضحك .

وحرك يده فجأة كأنه يريد أن يتخلص من ذبابة مزعجة ، ثم قال :

– لا بأس ، فكل ما أردت أن أقوله لك هو : فعندما جـــاءت المركبة الملكية وهي مزدانة بالأعلام وابتدأ إطلاق المدافع ، وحين وضع الأمير رجله على أرض كريت ... هل سبق لك أن رأيت شعباً بأسره يصبح مجنوناً لانه رأى حريته ؟ كلا ؟ آه ، أيها الرئيس ، إذن فقد خلقت أعمىً وستموت أعمى . فإذا قدر لي أن أعيش ألف سنة ، حتى لو ان كل ما تبقى مني عبارة عن قطعة لحم حية ، فلن أنسى ما رأيته ذلك اليوم ! وإذا كل واحد منا قدر له أن يختار جنته في السماء حسب ذوقه – وهذا ما يجب أن نكونه ، فهذا ما أدعوه جنة – سأقول للاله العظيم : « يا إلهي ، لتكن جنتي جزيرة كريت المملـــوءة بالأعلام والزينات ، ودع هذه اللحظة التي وطئت بها أقدام الأمير جورج أرض كريت تستمر قروناً طويلة ! فهذا يكفي » .

وعاد زوربا الى الصمت مرة اخرى . ورفع شاربه ، ثم ملأ كأساً من المـــاء البارد وشربها دفعة واحدة .

– ماذا جرى في كريت ، زوربا ، اخبرني !

وقال لي منزعجاً :

– هل سنعود الى العبارات الطويلة ؟ أنظر ، اقول واكرر لك ان هذا العالم غامض جداً والانسان ليس الا وحش كاسر .

– وحش عظيم وإله . حارس اسود ثائر جاء معي من مقدونيـا ، اسمه يورغا ، وكان يدعونه « المجرم » خنزير شرس ، وهل تعلم ... لقد بكى . وقلت له وعيوني تترقرق بالدمع « لماذا تبكي أيها الكلب ؟ لماذا تبكي أيهـا الخنزير ؟ » ولكنه لم يجب . ولكنه لم يجب ، بل القى بيـديه حول عنقي وراح يبكي كالأطفال ، ثم تناول محفظته ووضعها على حجره بعد ان افرغ منهـا القطع الذهبية التي نهبها من الاتراك ثم ملأ قبضته بالقطع وألقى بها في الهواء ! أرأيت ، أيها الرئيس ، هذه هي الحرية !

ونهضت إلى ظهر المركب لاستنشق هواء البحر ...

« هذه هي الحرية » فكرت بنفسي ، تهوى ثم تجمع قطعـاً من الذهب ، وفجـأة ، تتغلب على تلك العاطفة فتمسك بكنزك وتلقي به أدراج الرياح . لتحرر نفسك من عاطفة معينة وتأخذ بعاطفة أسمى ، أليست هـذه هي نوعاً آخر من العبودية ؟ لتضحي بنفسك من أجل فكرة معينة ، من أجل عرق ما ، لله ؟ أم ان كلما ارتفع الرمز طال حبل العبودية ؟ وعندئذ يمكننـا الاستمتاع واللهو في أرجاء أوسع ونموت دون أن نصل إلى نهاية الحبل . هل هـذا ما ندعوه الحرية ؟

* * *

وعند المغيب شارفنا الشاطيء الرملي ، ورأينا أخيراً الرمال البيضاء الصافية واشجار الخرنوب والتين ، والتل الصغير الاجرد الذي يشبه وجه امرأة تستريح . وتحت ذقنها ، وحول رقبتها ، تمر عروق الفحم الرمادية .

كانت نسمات الريـح الخريفية تهب ، والغيوم المتقطعة تمر في السماء لتغلف الأرض بالظلال . وغيوم اخرى كانت تظهر وتهدد الشمس التي احتجبت وراءها . ووجه الأرض يضيء ويظلم كوجه حي منزعج .

وتوقفت للحظة على الرمل ونظرت ، كانت الوحـدة متجسمة أمامي ،

وحـدة مميتة ولكنها مدهشة ، كالصحراء . وبرزت اغنية البوذيين من الأرض وتلمست طريقها إلى أعماق نفسي « متى سأنزوي في الوحدة أخيراً ، لوحدي ، دون رفاق ، وبدون فرح أو بدون حزن ، وبتأكيد مقدس بأن كل شيء ليس إلا حلماً ؟ متى ، وفي اسمالي البالية — دون الرغبات — سأنزوي مكتفيـــاً في الجبال ؟ ومتى ، وأنا متبين أن جسدي ليس إلا مرضاً وجريمة ، وحياةوموت ، حراً دون خوف وبسعادة ، سأعـتزل إلى الغابات ؟ متى ؟ متى ؟ آه متى ؟ »

وتقدم زوربا نحوي وهو يحمل السانتوري تحت ذراعيــــه ، بخطى قلقـة ، فقلت له محاولاً إخفاء قلقي :

— هناك مناجم الفحم !

دون أن ينظر إلى حيث أشرت اجابني بهزة من رأسه .

— فيما بعد ، فهذا ليس الوقت لذلك ، أيها الرئيس . يجب ان ننتظر حـين تقف الأرض . انها لا تزال تموج ، ولتأخذها الشيطان ، كظهر المركب . تعال لنذهب إلى القرية .

وبهذه الكلمات تقدم بخطى طويلة محاولاً انقاذ وجهه ...

وتراكض اثنـــان من الصبية الاشقياء ليحملا الحقائب . وفي الكوخ ، حيث نقطة الجمرك ، جلس أحد الموظفين يدخن (الحُقة) ، وحدجنا بطرف عينـه بنظرات ثاقبة ، ثم ألقى نظرة سريعة على الحقـــائب وتحرك قليلاً كأنه يريد الوقوف ، لكنه وجد أن ذلك سيأخذ منه كثيراً من المشقة ، واكتفى بأن أشار إلينا قائلاً : « أهلاً بكم » .

وتقدم أحد الصبية وقال لي بلهجة ساخرة :

— انه ليس كريتياً ، انه شيطان بليد .

— أليس الكريتيين شياطين بلداء .

فقال الكريتي الصغير .

— انهم كذلك .. نعم ، انهم كذلك . ولكن بطريقة مختلفة ...

— هل القرية بعيدة ؟

— على بعد طلقة بندقية من هنا . انظر ، وراء البساتين في الوادي . انهـا قرية جميلة ، يا سيدي تحوي الكثير من كل شيء — شجر خرنوب ، لوبيـــاء ، زيت ، نبيذ . وهناك على الرمال نبت الخيار مبكراً كذلك البطيخ . إن هواء

افريقيا هو الذي ينضجها باكراً . فاذا ما نمت بأحد البساتين ، فانك تسمع صوت طقطقتها وهي تنضج وتكبر ...

كان زوربا يتقدمنا ، ورأسه لا يزال مترنحاً ، فصحت به قائلاً :

– ارفع رأسك يا زوربا ، لقد اجتزنا المخاطر الآن ، ولم يعد هناك من داع للخوف .

وتقدمنا مسرعين ، وكانت الأرض مملوءة بالرمال والصدف ، وهنا وهناك نجد بعض اشجار التين .

كان الجو ثقيلاً ، والغيوم تتجمع وتقترب والريح تهدأ .

واقتربنا من شجرة تين ضخمة ، فتوقف أحد الولدين وأشار إلى الشجرة وهو يقول :

– هذه شجرة التين خاصة سيدتنا الصغيرة .

وفوجئت بكلمتة ، فقد كانت لكل شجرة أو صخرة في أرض كريت قصة محزنة :

– ولماذا تدعى كذلك ؟

– في الأيام الماضية ، أيام اجدادنا . وقعت أحد البنات من الأعيان في غرام أحد الرعاة الشباب ، لكن والدها لم يكن موافقاً ، وراحت الابنة تبكي وتصرخ ، وترجو والدها ، الذي لم يلين ! وفي أحد الأيام اختفى الشابان . وظلوا يبحثوا عنها ، يوماً ، ويومين ، وثلاثة ، واسبوعاً ، ولكن دون جدوى ! وأخيراً فاحت رائحة العفونة ، فتتبعوها فوجدوا العاشقين تحت شجرة التين ، متعانقين . معفنين ... هل تفهم ؟ لقد عثروا عليهما بسبب رائحة العفونة .

وانفجر الصبي بضحكة مجلجلة . وتناهت إلى أسماعنا ضوضاء القرية القريبة . وسمعنا أصوات نباح الكلاب ، وصياح النسوة والديوك . وشممنا رائحة العنب من القدور الذي كان العرق يقطّر منها ...

– هذه هي القرية .

وما ان اقتربنا من التلة الصغيرة ، حتى لاحت لنا القرية الصغيرة ، وبانت لنا كأنها تتسلق سفح الوادي . كانت البيوت الصغيرة متجمعة متلاصقة ، نوافذها مشرعة كأنها بقع سوداء . فالبيوت كانت مبنية من الكلس الأبيض الناصع والحجارة .

ولحقت بزوربا وقلت له :

– لا تنس ، يا زوربا أن تتصرف بلياقـة فقد دخلنا إلى القريــة الآن . ولنتصرف كرجال الأعمال . فانا المدير وأنت ناظر العمال . أن الكريتيــين لا يأخذون الأمور بسهولة فما أن تقع أعينهم عليك ، حتى يبحثوا عن شيء ظاهر بك ويطلقوا عليك لقباً معيناً ، حيث لا يمكنك بعد ذلك من التخلص من هـذا اللقب . وستجري كالكلب الذي علقت بزيله مقلاة .

وأمسك زوربا بشاربه ، وغاب في التأملات ، وأخيراً قال :

– اسمع ، أيها الرئيس ، إذا كانت هناك أرملة في القرية ، فلا لزوم للخوف، وإذا لم يكن ...

وفي هذه اللحظة ، وما أن دخلنا القرية ، تقدمت منا إمرأة فقيرة باسمال بالية ، ومدت يدهـــا نحونا . ولاحظت أن لها شارباً أسود ، وصاحت بزوربا كأنها تعرفه :

– مرحى ، يا أخ . هل لك روح أيها الأخ ؟

وتوقف زوربا . وأجابها .

– نعم ، لدي .

– اذن اعطني خمسة درخمات .

ونفحها بشيء من المال قائلاً « خذي » .

وافترت شفتاها عن ابتسامة حريريه . وأضاف زوربا قائلاً :

– أن الحياة هنـــا ليست غالية ، على ما أظن . أن الروح تساوي خمسة درخمـــات .

واقتربنا نحو ساحة القرية ، فرأينا مقهى كتب على مدخله « مقهى الحشمة ، ودكان اللحام » .

– ولماذا تضحك ؟

سألني زوربا ... ولكني لم أجد وقتاً لأجيبه ، فقد خرج من باب الدكان هذا،خمسة أو ستة عمالقة يرتدون سراويل زرق لها أحزمة حمراء وصاحوا بنا:

– أهلاً بالاصدقاء ! تفضلوا بالدخول وخذوا كأساً من العرق . إنه لايزال حاراً من القدر .

ولعق زوربا لسانه وقال :

– ما رأيك ، أيها الرئيس ؟ هل نشرب كأساً ؟
وشربنا كأساً أحرق أمعاءنا . وقدم إلينا صاحب المقهى – اللحام ، وهو رجل عجوز جليل ، كرسين ، فسألته عن مكان نأوي إليه . وصاح أحدهم :
– اذهبا إلى مدام هورتنس .
وتساءلت بدهشة .
– هل هي فرنسية ؟
– لقد جاءت من مكان ، لا يعلم إلا الشيطان ما هو ، لقد طافت في جميع الأرجاء ، ثم استقرت هنا وأسست فندقاً صغيراً .
وقال أحد الأولاد :
– وهي تبيع الحلوى أيضاً .
وأضاف أحدهم .
– وهي تتزين وتصبغ وجهها أيضاً ، وتضع شريطة حول عنقها ، ولديها ببغاء .
وهتف زوربا .
– وهل هي أرملة ؟
وقال له صاحب المقهى :
– كم هو عدد السكارى هنا ، أيها الصديق ، أنها أرملة لعدد كبير من الأزواج ، هل فهمت ما أقصد ؟
– نعم ، فهمت .
أجاب زوربا وهو يلعق شفتيه .
– ويمكنها أن تجعل منك أرملاً .
– انتبه ، أيها الصديق .
صاح أحد الرجال ، وضحك الآخرون .
وتقدم صاحب المقهى حاملاً صينية عليها الخبز والجبن وهتف قائلاً :
– هيا ، دعوهما وشأنهما الآن ، وسوف استضيفهما عندي .
– كلا ، أنا ساستضيفهما ، فانا ليس عندي أطفال ، وبيتي كبير .
وأجاب صاحب المقهى ، وهو ينحني فوق الرجل ويقول :
– ارجو المعذرة ، أيها العم انانيوستي ، فانا سبقتك بالكلام .

– إذن خذ الآخر ، وسآخذ أنا العجوز .
وصاح زوربا غاضباً :
– أي عجوز ؟
وقلت له ، وأنا اهدىء من روعه .
– لن نفترق ، وسنذهب لعند مدام هورتنس .

* * *

كانت امرأة بدينة قصيرة القامة ، شعرها باهت اللون ، تتلوى في مشيتها ، مادة ذراعيها . وعلى ذقنها (خال) تتدلى منه شعيرات طويلة . وكانت تربط حول عنقها شريطة حمراء ، وخدودها المجعدة مصبوغة بلون بنفسجي . وقالت لنا مرحبة .
– أهلاً ، أهلاً وسهلاً .
واجبتها ببشاشة وأنا أقبل يدها .
– كم أنا سعيد بمعرفتك ، يا مدام هورتنس . إنا نريد سريرين ، ياسيدتي دون قمل .
– آوه ، بدون قمل ، لا اعتقد ذلك . ليس هنا من قمل على الاطلاق .
وتقدمتنا وهي ترفس الحجارة بقدمها القصيرة المكتنزة ، وكانت تلبس جوارباً زرقاء وضخمة وتنتعل حذاءين مشقوقين عليها عقدة صغيرة من الحرير .
ولحق بها زوربا وعينيه تكاد تا كلانها !
– انظر ، انظر أيها الرئيس ، كيف تتلوى في مشيتها كالنعجة ذات الإلية المشحمة .
وعض زوربا على شاربه بعصبية وعيناه مسمرتان على أرداف السيدة وقال :
– هم ، إن هذه الحياة ملأى بالعهر ...

- ٣ -

كان فندق مدام هورتنس عبارة عن صف من أكواخ الحمام القديمة جمعت مع بعضها البعض . أما الأولى فكانت دكاناً لبيع الحلويات ، والسكاير ،والفستق عبيد ، والشموع ، والعلكة . وأربع غرف — أو أكواخ — متلاصقة تـألفت منها غرف النوم . وفي الخلف كان المطبخ ، وغرفة الغسيل ، وقن الدجـاج والأرانب .وكانت عيدان القصب الكثيفة مغروسة حول المكان في الرمل الناعم . وكانت رائحة البحر تعبق بالمكان بالإضافة إلى روائح (البراز) و (البول) . لكن الرائحة تتغير حين تمر مدام هورتنس بين وقت وآخر ، كأن أحـدهم افرغ طشتاً للحلاق تحت انفك .

وما إن جهزت لنا الغرف والسرائر حتى انطرحنا عليها دون حراك ولم نستيقظ إلا في صباح اليوم التالي .

كان اليوم الأحد والعمال سيصلون في الغد من القرى المجاورة ليبدأوا العمل في تمام التاسعة لذلك فقد تُرك لي بعض الوقت لأقوم بجولة على الشاطيء الذي ساقتني إليه الأقدار . كان الفجر يكاد يلوح عندما خرجت . فـذهبت في سبيلي ماراً ، بالبساتين ، متتبعاً حافة البحر ، متعرفاً إلى الأرض والهواء .

وصعدت إلى تـلة مجاورة ، واجلت نظري إلى منظر الصخور الغرانيتية والكلسية القاسية ، واشجار الخرنوب القاتمة ، واشجار الزيتون الفضية واشجار لتين والدوالي .

كان هذا المنظر ، كما بـدا لي ، شبيهاً بالنثر الجيد ، المصوغ بعناية فائقـة ، بسيطاً ، خالياً من الزخارف المصطنعة ، قوياً ، صارماً . لقد كان معبراً عن كل ما هو ضروري بطريقة سهلة . انه لم يكن متباهياً ولم يكن متصنعـاً ، فهو ينطق بكل شيء بطريقة قاسية صارمة . لكن الليونة كانت متبدية من خلال اشجار البرتقال والليمون التي كانت تعطر الهواء برائحتها الزكية . ومن بعيـد

كان البحر الخالد يبدو كالشعر الذي لا ينفد .

– كريت ، كريت

قلت متمتماً لنفسي وقلبي ينبض بالبهجة !!!

ونزلت من التل الصغير ، ورحت أمشي قريباً من ماء البحر . فرأيت صبايا صغار يسرن في طريقهن إلى الدير لسماع القداس عند ساحل البحر .

ومـا ان ظهرت لهن حتى توقفن عن المسير ، واصبن بذعر شديد وتشبثن ببعضهن البعض ، وعلمت فـيما بعد أن رؤية رجل غريب كانت تخيفهن . فعلى طول الساحل الكريتي كانت القراصنة في القرون الغابرة يقمن بغزوات مفاجئة ، ويخطفون النساء والأطفال ، ويربطونهن بأحزمتهم الزرقاء الغليظة ويلقون بهن في السفينة ويبيعوهن في الجزائر ، والاسكندرية ، وبيروت ...

ورحت انظر اليهن مبتسماً بعد أن تكاتفن مع بعضهن البعض وسرن كالطود المرصوص ، واقتربن مني واضاءت وجوههن بالاطمئنان وتابعن مسيرهن بعد ان القيت عليهن تحية الصباح .

واشرقت الشمس عن سماء صافية . وجلست بين الصخور اتأمـل البحر أمامي . وشعرت بالقوة تدب في جسدي . ورحت أجول بمخيلتي كالموج الهادر أمامي مطاوعاً خاضعاً دون مقاومة لنغمات البحر .

وشعرت بالانقباض ، وانطلقت من اعماقي اصوات متضرعـة . وعلمت من الذي يدعوني . فأينما أكون بمفردي كنت اشعر بثمة نداءات تطلبني ، والمخاوف تنتابني ... وفجـأة سمعت صوت رفيقي زوربا يناديني من الخلف ، فاستدرت لأجده منتصباً وهو يضحك ويقول :

– لقد بحثت عنك منذ ساعـــات ، ولكن كيف استطيع مشاهدتك في هذا المخبأ ؟

ولما لم أجب على تساؤله ، استطرد قائلاً :

– لقد مضى نصف اليوم ، والدجاجة المطبوخة قـد نضجت ، وستذوب المسكينة بعد قليل .

– نعم ، اعرف ذلك ، ولكني لا اشعر بالجوع .

– لا تشعر بالجوع ! ولكنك لم تأ كل شيئـــاً منذ الصباح . أن في جسدك روحاً ،ويجب أن تشفق عليها . اعطها شيئاً لتأ كله ، ايها الرئيس ، اعطها شيئاً،

فاذا لم تطعمها تركتك في منتصف الطريق .

لقد احتقرت ملذات الجسد منذ سنين، ولو كان ذلك ممكناً لأكلت في الخفاء، كأني أقوم بعمل مخجل . وقلت لزوربا كي لا يثرثر .

ـ حسناً ، سآت .

وذهبنا إلى القرية بعد أن مرت الساعات الطوال بين الصخور و كما تمر الساعات بين العشاق كالبرق الخاطف . وسألني زوربا متردداً :

ـ هل كنت تفكر بالخيم ؟

ـ وهل تعتقد اني كنت افكر بسواه ؟ ففي الغد سنبدأ العمل ، لذلك يجب أن أقوم ببعض الحسابات .

ـ وما هي نتيجة الحسابات ؟

ـ بعد ثلاثة اشهر يجب ان نستخرج عشرة أطنان من الفحم ، لنغطي مصاريفنا .

ونظر إلي زوربا بشوق وقال :

ـ وما أخذك إلى شاطيء البحر لتقوم بتلك الحسابات ، بحق الشيطان ؟ ارجو المعذرة ، أيها الرئيس ، لسؤالي هذا ، ولكني لا افهم ، فمندما اضطر إلى مقارعة الارقام ، اشعر باني بحاجة إلى أن أحشر نفسي في جوف الأرض ، كي لا استطيع مشاهدة أحد . فإذا رفعت نظري ورأيت البحر ، أو شجرة ، أو امرأة ، حتى لو كانت عجوز ، عند ذلك تطير جميع هذه الأرقام وسأضطر إلى مطاردتها ...

ـ ولكنها غلطتك أنت يا زوربا ، فانت لا تستطيع التركيز ...

ـ ربما تكون على حق ، أيها الرئيس . فهذا يتوقف على نظرتك للأمور . فهناك حالات لا يتمكن حتى سليمان الحكيم ... إسمع ، ففي ذات يوم بينما كنت ماراً في قرية صغيرة ، رأيت رجلا عجوزاً يبلغ التسعين من العمر يزرع شجر اللوز فقلت له ! « هل تزرع شجرة لوز يا جدي ؟ » والتفت إلي وقال ! « يا بني ، أنا أعمل كأني لن أموت أبداً ، وأعمل كأني سأموت في أي لحظة . » ! والآن من كان منا على صواب ، أيها الرئيس ؟

ونظر إلي نظرة المنتصر وقال :

ـ والآن ، لقد احرجتك !!

وبقيت ملزماً الصمت . فهناك ممران متساويان قد يؤديان إلى القمة نفسها . أن تعمل كأن الموت غير موجود ، أو أن تعمل متوقعاً الموت في أية لحظة ، هما أمران ربما كانا متشابهين . ولكن عندما سألني زوربا هذا السؤال لم استطع الإجابة على التو . وقال لي زوربا هازئاً :

ـ حسناً ! لا بأس ، لا تغضب أيها الرئيس فلن تستطع المجادلة . ولنتكلم عن اشياء اخرى .فأنا الآن افكر بالدجاجة والارز . لنأكل الآن ، ومن ثم نرَ . فلكل شيء وقته المحدد . الآن أمامنا الارز ، فلنفكر به ، وغداً سيكون المنجم أمامنا وسنفكر بأمره أيضاً .

وعند المقهى المجاور رأينا شيخاً يبدو عليه الأسى يقف بانتظارنا . أنه مافراندوني ، كبير رجال القرية الذي أجرنا المنجم ، فقد جاء في الليلة الماضية إلى مدام هورتنس ليأخذنا إلى بيته وقال لنا :

ـ أنه من العار أن تظلا في الفندق ، كأنه لا يوجد رجال في القرية !

لقد كان متأثراً ، وكانت كلماته متزنة متناسقة مع مركزه المحترم في القرية . وعندما رفضنا طلبه شعر بالاستياء لكنه لم يلح . وقال لنا وهو يغادر الفندق :

ـ لقد قمت بواجبي ، وانتم احرار .

وبعد قليل ارسل لنا شيئاً من الجبن ، وسلة من الفواكه ، وجرة من العرق . وقد قال لنا الخادم الذي احضرها :

ـ مع تمنيات الكابتن مافراندوني . أنها ليست كثيرة ، كذلك أوصاني أن اخبركما ، لكن القصد منها حسن !

واقتربنا منه والقينا عليه التحية ، واجابنا واضعاً يده على صدره :

ـ اتمنى لكما حياة طويلة .

وتمتم زوربا معلقاً :

ـ انه لا يحب كثرة الكلام ، ويبدو بوقفته كالقضيب العجوز .

ـ لكنه فخور بنفسه ، انه يعجبني .

وما أن رأتنا مدام هورتنس ، حتى صاحت مرتبكة وهرولت إلى المطبخ . واسرع زوربا إلى وضع الطاولة على الشرفة تحت ظل الدالية ، وجاء بالخبز وقطعه قطعاً صغيرة ، واحضر النبيذ ، ثم نظر إلي بعد ان انتهى من اعداد الطاولة لثلاثة اشخاص وقال :

– هل رأيت ، أيها الرئيس ؟

– نعم رأيت ، أيها الفاسق !

ثم قال وهو يلعق شفتيه :

– أن الطيور العجائز التي تصلح للشواء ! وخذها نصيحة مني !!

ثم راح يدمدم بأغاني الحب القديمة وهو يهرع متمماً تجهيز المائدة .

– هكذا يجب أن نعيش ، أيها الرئيس ، يجب ان نستمتع بكل دقيقة نعيشها ، اني اعمل اشياء الآن كأني سأموت بعد دقيقة . وأنا اسرع بذلك كي لا يدركني الموت قبل أن أحصل على العصفور .

وسُمع صوت مدام هورتنس : « إلى المائدة » .

وقدمت إلينا القدر ، ثم وقفت مشدوهة ، فقد رأت الصحون ثلاثة . ورمقت زوربا وقد علا وجهها الاحمرار الشديد ولمعت عيناها الصغيرتان .

وهمس زوربا قائلاً :

– لقد بدأت تشعر بالحرارة تدب فيها .

ثم نظر إليها وقال لها بكثير من اللباقة والأدب :

– يا جنية الامواج الجميلة ، لقد غرقت سفينتنا والقى بنا البحر في مملكتك. ارجو ان تشرفينا ، يا عروسة البحر الجميلة ، وتشاركيننا الطعام .

وفتحت الغانية العجوز ذراعيها وضمتها إلى صدرها ، كأنها تريد أن تضمنا نحن الاثنين إليها ، ثم تمايلت بعظمة ولامست زوربا ولامستني واسرعت عائدة الى غرفتها . وظهرت بعد قليل ترتدي أجمل ما لديها من ثياب : فستاناً مفتوحاً عند الصدر ، وضمت عند الصدر وردة متألقة !! واحضرت معها قفص الببغاء الذي علقته على غصن الدالية أمامنا . وبعد ان اجلسناها بيننا ، رحنا نلتهم الطعام التهاماً ، دون ان ننبس بكلمة واحدة . فقد كان الحيوان داخلنا يأكل ويتغذى ويشرب الخمر ، والطعام الذي نزدرده يتحول بسرعة إلى دم ، والعالم من حولنا يبدو اجمل ، والسيدة التي تتوسطنا بدأت تبدو أصغر في كل لحظة والتجاعيد في وجهها بدأت تزول وتُمحى ... وكان الببغاء المعلق على الشجرة ، ينظر إلينا فيبدو كأنه رجل غريب قد سحره هذا المنظر ...

وكانت عينا زوربا تدور في محجريها ، ثم فتح ذراعيه كأنه يريد أن يعانق العالم كله ، ثم صاح بي مدهوشاً :

– ماذا جرى ، أيها الرئيس ؟ ، فما ان نشرب كأساً من النبيذ حتى يبدو العالم وقد فقد صوابه . ومع هذا فالحياة كلها خمر ونبيذ . قل لي ،بشرفك، هل هذه عناقيد متدلية فوق رؤوسنا ؟ أو هي ملائكة ؟ لا اعلم . أم ترى ليست شيئاً على الاطلاق ، ولا شيء موجود ، لا الدجاجة ، ولا عروسة البحر ، ولا كريت ! قل لي أيها الرئيس ، تكلم كي لا افقد عقلي ...

ولاحظت أن زوربا بدأ يشعر بالفرح . لقد شبع من الدجاجة ، وراح ينظر إلى مدام هورتنس . كانت نظراته تغتصبها ، وتصمدان إلى جسدها وتدخلان إلى صدرها المنتفخ وتتحسسانه وكأنهما يدان . وكانت عينا السيدة الصغيرتين تلمعان من السرور ، فقد بدأت تستمتع بعد ان افرغت عدة كؤوس من النبيذ . وبدا كأن شيطان الخمر قد رجع بها إلى الوراء إلى أيام الصبا الجميلة . ونهضت وقد عاد إليها لطفها وبشاشتها ورغبتها ، ثم اغلقت باب الحديقة الخارجي كي تمنع الأعين الفضولية من رؤيتنا – واشعلت سيكارة وراحت تنفث دخانها بهدوء واستمتاع .

في أوقات كهذه ، تتفتح أبوب المرأة جميعها ، ويستريح حرسها ، والكلمة الطيبة تصبح قوية كقوة الذهب أو الحب . وهكذا اشعلت غليوني وقلت تلك الكلمة الطيبة :

– مدام هورتنس ،انت تذكرينني بسارة برنهارت ... عندما كانت صغيرة . لم اكن للحقيقة انتظر رؤية اناقة كهذه ، عظمة كهذه ، لياقة كهذه وجمالاً كهذا الجمال . ما هذا (الشكسبير) .

– شكسبير ؟ أي شكسبير ؟

– الذي ارسلك إلى هنا بين هؤلاء المتوحشين .

وطارت بتفكيرها إلى أيام الغناء والمسرح ، وجالت به في المقاهي والمسارح من باريس حتى بيروت ، وعلى طوال شواطيء الأناضول ، وكأنها تذكرت فجأة : لقد كان ذلك في الاسكندرية ، وفي مسرح كبير عامر بالثريات ، والمقاعد الفخمة ، والرجال والنساء ، والظهور عارية ، والعطور ، والازهار . وفجأة ارتفعت الستارة وظهر رجل اسود مخيف ...

– أي شكسبير ؟

وسألتني مرة اخرى بكبرياء ، فقد تذكرت .

– هل هذا الذي يدعونه أيضاً عطيل ؟

– هذا هو . أي شكسبير إذن القى بك على هذه الصخور الوحشية ، ايها الزهرة البيضاء ؟

ونظرت حولها ، وكانت الابواب مغلقة ، والببغاء نائمة ، والارانب تتبادل الحب ، وكنا لوحدنا . وراحت تفتح لنا قلبها ، وكأنها تفتح أمامنا صندوقاً عتيقاً ، مملوءاً بالطيب ، وأوراق الرسائل الصفراء، والثياب القديمة .

وكانت تلفظ بعض الكلمات باليونانية ، وراحت تخلط بينهما ، ولكننا تمكنا من فهمها بوضوح . وفي بعض الأحيان كنا نجد صعوبة قصوى في إخفاء ضحكاتنا ، وفي بعض الأحيان كنا ننفجر بالبكاء ، علماً إننا قد شربنا كثيراً من النبيذ .

– حسناً أن السيدة التي تنظرون إليها الآن،لم تكن مغنية بسيطة في الحانات ، كلا ، فقد كنت فنانة شهيرة وكنت ارتدي ثياباً داخلية من الحرير الخالص . ولكن الحب ...

وتنهدت تنهيدة عميقة ، واشعلت سيكارة ثانية من زوربا وقالت :

– لقد احببت اميرالاً . فقد أصبحت كريت مرة اخرى ولاية ثائرة واساطيل الدول العظمى بدأت ترسو في مرفأ (سورا) . وبعد أيام قليلة رسوت أنا الاخرى هناك . آه ، ياللحظ ! لو رأيتم هؤلاء الاميرالية الأربعة . . الانكليزي ، الفرنسي ، الطلياني ، الروسي . جميعهم متلفحين بالذهب ، والاحذية اللماعة ، والقبعات المريشة ، كالديوك تماماً . ويا لتلك اللحى ، المجعدة الحريرية ، الداكنة ، الشقراء ، الرمادية ، والحمراء . وما أطيب رائحتهم ! فكل واحد منهم كانت له رائحته المميزة ، فهكذا كنت اميز بينهم في الظلام . فانكلترا كانت تتميز برائحة الكولونيا . وفرنسا برائحة البنفسج، وروسيا برائحة المسك ،وإيطاليه ، آه ! ، إيطاليا المشغوفة بالعطر . يا إلهي ، يا لهذه اللحى !!

وكنا نلتقي عدة مرات على ظهر سفينة العلم ، ونتحدث عن الثورة . وكانت بزاتهم مفتوحة وكان ثوبي الحريري يلتصق بجسدي ، فقد كانوا يصبون عليه الشمبانيا ، وكان ذلك كله في الصيف ، كما تعلم . وكنا نتحدث عن الثورة بجدية ، وكنت أنا أرجوهم واتضرع إليهم ألا يطلقوا مدافعهم على الكريتيين المساكين . وكنا نشاهدهم بالمنظار على الصخور ، قرب « كايني » ، ضئيلين

كالنمل ، يرتدون قمصانا زرقاء واحذية صفراء ، وهم يصرخو ويصيحون .وكان معهم علم ...

وفجأة سمعنا صوتاً خلف قضبان القصب ، وتوقفت المجاهدة العجوز عن الكلام ، مذعورة . ورأينا بين القضبان عيون الاطفال الخبيثة تراقبنا ... فقد شعر أطفال القرية بوجودنا ، وراحو يتلصصون علينا ...

وحاولت المغنيه القيام عن الكرسي . ولكنها لم تتمكن ، فقد أكلت وشربت كثيراً ، فعادت إلى الجلوس وهي تتصبب بالعرق ،واخذ زوربا حجراً فتفرق الأولاد وهم يصرخون .

– استمري ، يا جميلتي ، استمري يا كنزي !

كذلك قال زوربا ، واقترب بكرسيه منها .

– وقلت للاميرال الطلياني ، فقد كنت قد ألفته أكثر من الآخرين . وامسكت بلحيته وقلت له ! « كانافارو ارجوك ، يا كانافارو العزيز ، لا تفعل بوم ، بوم ! ارجوك ! »

كم من المرات ، كانت هذه المرأة الجالسة أمامكم ، تنقذ حياة الكريتيين من موت محتم ! كم من المرات كانت المدافع جاهزة للانطلاق ، وكنت اهرع لامسك بلحيته وأرجوه ألا يفعل بوم ! بوم ! ولكن من الذي شكرني على ما فعلته من أجلهم ؟ وبدلاً من الوسام ، انظروا ما حصلت عليه ...

لقد كانت مدام هورتنس غاضبة أشد الغضب لجمود الرجال ، وضربت على الطاولة بقبضة يدها الطرية . ومد زوربا يده إلى ركبتيها المنفرجتين وأمسك بهما ، بعطف مصطنع وصاح :

– يا بوبولينتي ، بحق السماء لا تفعلي بوم بوم !

– ارفع يديك .

كذلك صاحت به السيده الطيبة ، واضافت بعد قليل :

– من تظنني ؟

وحدجته بنظرة غاضبة ...

– ان الله موجود في السماء ، لا تزعجي نفسك ، يا بوبولينتي ، فنحن هنا ، يا حبيبة ، لا تخافي .

ورفعت عروسة البحر العجوز ، عينيها إلى السماء ورأت ببغائها الأخضر

يغط في النوم ، وقالت بصوت حنون :

— كانافارو ، كانافارو .

وما ان سمع الببغاء صوت سيدته حتى فتح عينيه وامسك بقضبان القفص وردد قولها كانافارو ، كانافارو .

— موجود !

كذلك صاح زوربا وهو يضع يده من جديد على تلك الركبتين اللتين خدمتا كثيراً ، كأنه يريد امتلاكها . واستدارت المغنية العجوز على كرسيها وفتحت فيها لتقول :

— وأنا أيضاً حاربت ببسالة ، لقد حـــاربت صدراً بصدر ، لكن الأيام العصيبة جاءت وتحررت كريت بعد أن تلقت الاساطيل الاوامر بالانسحاب. « ولكن ما الذي سأصير إليه ؟ » كذلك قلت وأنا امسك باللحى الأربعـــة . « أين ستتركوني ؟ لقد تعودت على العظمة ، وعلى الشمبانيا ، والدجـاج ! لقد اعتدت على البحارة الصغار وهم يؤدون لي التحية العسكرية حين أمر أمامهم ، سأصبح أرملة أربع مرات ، يا سادتي الاعزاء ... »

ولكنهم سخروا مني .. ! هكـــذا هم الرجال . لقد اشبعوني بالليـــرات الانكليزية والإيطالية ، والروبلات والفرنكات التي وضعتها في جواربي ، وقميصي وحذائي . وفي الليلة الأخيرة بكيت كثيراً حتى أن القواد الأربعة اشفقوا علي ، فملأوا المغطس بالشمبانيـا ، ووضعوني به ثم شربوا منه على شرفي وسكروا ، وبعد ذلك اطفأوا النور ...

وفي الصباح استيقظت على رائحة العطور الممزوجة تفوح في الغرفة ، رائحة البنفسج والكولونيا وغيرها ... لقد كنت ممسكة بالدول الأربعة ، انكلترا ، فرنسا ، روسيا وإيطاليا ، على ركبتي ، هنا على ركبتي ، وذهبت هكذا معهم ...

ثم راحت مدام هورتنس تهز بيديها كأنها تلاعب طفلاً صغيراً على ركبتيها ، ثم قالت :

— هكذا ! هكذا .

وعند انبلاج الفجر راحت المدافع تنطلق في الهواء . واقسم ان ذلـك كان على شرفي ، نعم اطلقوا المدافع ، وجاء زورق صغير أبيض ليقلني إلى الشاطيء.

ثم تناولت منديلها وراحت تمسح دموعها وتبكي ... وهتف زوربا :

– اغمضي عينيك يا بوبولينتي الصغيرة ، اغمضي عينيك يا كنزي . فأنا هو كانافارو !

وصرخت السيدة الفاضلة :

– ارفع يديك ، لقد قلت لك ذلك ، انظر إلى نفسك ، أين شاراتك الذهبية ؟ والقبعة واللحية المعطرة ! آه ! آه !

ثم ضغطت على يد زوربا وراحت تبكي من جديد .

لقد بدأ الطقس يبرد ، وساد الصمت حولنا ، وكان البحر ، من وراء القصب يتنهد . لقد سادت الطمأنينة والهدوء أخيراً ، فالريح سكنت والشمس غرقت عند الافق لتنام . ومرّ من فوقنا غرابان يصفقان باجنحتها كأن قطعة من الحرير قد تمزقت ، ربما كان قميص مغنية !!

وهمهم زوربا بعطف وهو يضغط بركبته على ركبتها :

يا بوبولينا ، لا تضطربي ، ليس هناك من اله أو شيطان . ارفعي رأسك الصغير ، واسندي خدك على يدك وانشدي لنا اغنية ، وليذهب الموت إلى الجحيم !

لقد كان زوربا يشتعل بالحب . وكانت يده اليسرى تفتل شاربه ، بينما يده اليمنى تنساب على المغنية المنتشية ... وكانت كلماته تنطلق متقطعة وعيناه واهنتان . ولم تكن هذه العجوز المطلية بالمساحيق هي التي تثيره ، بل أنه كان يرى آفاق متمثلاً ، الجنس الانثوي بأجمعه ، كما كان يدعو المرأة . لقد اختفى القرد ، وانمحى الوجه سواء أكان فتياً أم هرماً ، جميلاً أم بشماً ، فهذه كانت اختلافات لا اهمية لها . ان خلف كل امرأة يقف وجه افروديت المقدس الغامض .

هذا هو الوجه الذي كان يراه زوربا ، ويحدثه ويشتهيه . أما مدام هورتنس فلم تكن سوى قناعاً شفافاً سريع الزوال يمزقه زوربا ليقبل الشفاه الخالدة .

وردد في صوت متضرع هامس :

– ارفعي عنقك الناصع ، يا كنزي ، ارفعي العنق الأبيض وانشدينا باغنية جميلة ؟

ووضعت المغنية العجوز يدها على خدها ، وراحت تنشد اغنية من اغنياتها القديمة ، وقفز زوربا واحضر السانتوري ، جلس متربعاً على الأرض ثم صاح بأعلى صوته :

– آوه ، آوه ، خذي سكيناً واقطعي به عنقي ، يا بوبولينتي ...

وعندما بدأ الليل يقترب ، وبـدأت النجوم تتألق في السماء ، وبعد أن ملأت النشوة نفوسها ، ابتدأت مـدام هورتنس تتقلب وتلتصق بزوربا برفـق ودلال ، ونظر إلي مشيراً ثم همس بقوله :

لقد بدأت تنسجم ، كن لطيفاً واتركنا لوحدنا ....

– ٤ –

عندما انبلج الفجر استيقظت لأرى زوربا أمامي جالساً عند طرف السرير يدخن وهو غارق في بحر التأملات ، وعيناه مسمرتان على زجاج النافذة ...

وتذكرت اني تركتهما لوحدهما ليلة البارحة وقلت له :

– اني ذاهب ، يا زوربا ، تمتع جيداً ، وتشجع ...

وقد قال لي :

– إلى اللقاء ، أيها الرئيس ، واتركنا الآن لنرتب الأمر جيداً .

وقد بدا لي أنهما قد رتبا الأمر جيداً ، فقد سمعت في الليل اصواتاً مكتومة ، وتهزهزات في الغرفة المجاورة . وبعد منتصف الليل دخل زوربا إلى غرفتنا عاري القدمين وانطرح على السرير بكثير من الهدوء كي لا يوقظني ...

ولكنه الآن ، عند الفجر ، يبدو شارداً ، وعيناه تضيع بعيداً . وكان لا يزال غارقاً في نشوة الليل الفائت مستسلماً بهدوء إلى شعاع الشمس المتداخل من زجاج النافذة .

وبدأت القرية تفيق من نومها ، وبدأت الحركة تدب في الأزقة ممتزجة بأصوات الديوك والخنازير ، والحمير ، والناس . وخطر لي أن أقفز من سريري وأصرخ : « هيا يا زوربا فلدينا عملاً اليوم » لكني كنت اشعر ، أنا الآخر بسعادة كبيرة في الاستسلام هكذا دون حراك منتظر تسرب الفجر الرائع . ففي هذه اللحظات الساحرة ، تبدو الحياة خفيفة كالغبار . وتبدو الأرض كأنها تتكون من الريح كالغيوم المتموجة الطرية ...

ونظرت الى زوربا وهو يدخن ، فشعرت برغبة في التدخين انا الآخر ، فتناولت غليوني . وحدقت به منفعلاً . انه غليون انكليزي الصنع ، كان صديقي القديم قد اهداني اياه ، وتذكرت قوله حين منحني هديته تلك : خذ هذا الغليون ، واترك السجاير التي تدخن نصفها وترميها بعد ذلك كأنها امرأة

عاهرة . تزوج الفليون ، فهو كالمرأة الوفية . فعندما تعود الى بيتك ، ستجده دوماً هناك بانتظارك فتشعله وتجلس تتأمل دخانه الصاعد في الهواء ، ثم تتذكرني ...

لا زلت اذكر ان الوقت كان ظهراً ، وكنا في احد متاحف برلين ، حيث كان صديقي يودع لوحته المزيزة « المحارب » للرسام رامبرانت ، ونظر صديقي الى تلك اللوحة متأملاً المحارب الحاقد اليائس . وقال « اذا ما تمكنت من القيام في حياتي بعمل جدير بالرجل ، فسأكون مديناً به له ! » .

كنا في صالة المتحف ، نقف قرب عامود ، وامامنا تمثالا من البرونز لفارسة عارية تمتطي حصاناً برياً متوحشا . وغط عصفور على رأس التمثال والتفت صوبنا وهز بذنبه واطلق لحناً هازئاً ثم طار في سبيله .

وارتمدت وانا انظر الى صديقي وسألته :

– هل سمعت العصفور ؟ لقد خلت انه قال لنا شيئا ، ثم طار في سبيله .

وابتسم صديقي واجابني بمثل من أمثالنا العامة :

« انه عصفور ، دعه يغني ، انه عصفور ، دعه يتكلم . »

كيف كانت ، في هذه اللحظة عند طلوع الفجر ، عند شاطيء كريت ، هذه الذكرى تعود الى مخيلتي مع هذا المثل الحزين لتملأ عقلي بالمرارة ؟

ووضعت قليلا من التبغ في غليوني واشعلته . ان كل شيء في هذا العالم له معان خفية . الرجال ، الحيوانات ، الشجر ، النجوم ، انها جميعها تبدو كالرموز الهيروغليفية لمن بدأ في حل رموزها ليكشف عن خفاياها ... فعندما تراها فانك لاتفقه لها معنى ، . فتعتقد انها رجالاً اقحاح ، وحيوانات ، واشجار ، ونجوم . ولكن بعد مرور السنين وبعد فوات الاوان تفهم معناها الحقيقي ...

ورحت اتابع الدخان المتصاعد من الفليون ، وكانت روحي تندمج بهذا الدخان ، وتتلاشى معه في الحلقات الزرق المكونة . ومر وقت طويل ، كنت اشعر ، دون العودة الى المنطق ، وبتأكيد لا يوصف ، بحقيقة هذا العالم وانبثاقه وزراله .

واطلقت زفرة هادئة ايقظتني من افكاري الشاردة ، فنظرت الى ما حولي الى هذا الكوخ الخشبي الحقير ،وهذه المرآة الصغيرة المتدلية على الحائط والمنعكس

عليها شعاع الشمس ، فبدت تقدح بالشرر . وكان زوربا لا يزال جالساً على حافة السرير يدخن بهدوء مديراً لي ظهره !

ومرت احداث الامس بمخيلتي . رائحة البنفسج والكولونيا ، والمسك ، والببغاء الذي بدا كرجل قد تحول الى ببغاء يضرب قفصه بجناحيه منادياً حبيباً قديماً ، وسفينة قديمة ، لا تزال الوحيدة الباقية على قيد الحياة لتقص اقاصيص الحرب والمعارك البحرية القديمة ...

واستدار وزربا عندما سمع صوت زفرتي ، وتمتم قائلا :

— لقد اسأنا التصرف ، لقد اسأنا التصرف ايها الرئيس . لقد ضحكت ، وكذلك فعلت انا ، وقد رأتنا هي . وهذه الطريقة التي غادرتنا بها دون ان تنبس بكلمة رقيقه واحدة . يا للعار اللعين ! ان هذا ليس تهذيباً ، ايها الرئيس. وهذه ليست طريقة حسنة للتصرف ، اسمح لي ان اقول لك . انها امرأة ، على كل حال . اليس كذلك ؟ مخلوقة ضعيفة خائفة . وقد عملت عملا جيداً حين بقيت لاعزيها .

— ولكن ما تعني بقولك يازوربا ؟ وهل تعتقد بكل جدية ان جميع النساء ليس في عقولهن من شيء سوى هذا ؟

— نعم أيها الرئيس ، فليس في عقولهن شيء آخر . اصغ إلي الآن ... لقد رأيت جميع الأشياء ، وعملت كل شيء ... أن المرأة ليس عندها من شيء آخر في نظرها . أنها مخلوق ضعيف ، مشاكس . وإذا لم تقل لها انك تحبها وتريدها ، فانها تبدأ في البكاء . وربما هي الاخرى لا تريدك اطلاقاً ، بل ربما تحتقرك وربما تقول لك كلا . فهذه مسألة اخرى . لكن جميع الرجال الذين يرونها يجب أن يشتهوها ، فهذا ما تريده تلك المخلوقة المسكينة ، لذلك فالأجدر أن تحاول ارضاءهـا .

فأنا مثلاً ، كانت لي جدة تبلغ الثمانين من عمرها . ان قصتها حقيقية تماماً. وكانت تسكن قريباً من منزلنا فتاة صبية نضرة كالوردة ، واسمها كريستالو .

وفي كل يوم سبت عند المساء ، كنا نحن الشباب نذهب إلى الحانة لنحتسي كأساً من الخمر ونتنشي به ، ثم نضع ضمة من الحبق وراء اذننا ويأخذ ابن عمي قيثارته ونذهب لنتنزه . يا للحب .. يا للعاطفة ..! كنا نخور كالقبر .. كلنا

كنا نريدهـا وكل يوم سبت كنا نتوجه لهـا مرة واحدة ليقع اختيارهـا على واحد منا .

ـ حسناً .. هل تصدق هـذا أيهـا الرئيس ؟ يا له من لغز ؟ ان في النساء جرحاً لا يلتئم بالمرة. كل الجروح تشفى إلا هذا . لا تعتمد كثيراً على كتبك... انه لا يلئم أبداً . لماذا ... لأنها قد أصبحت في الثمانين ؟ ومع ذلـك فالجرح لا يزال مفتوحاً .

إذن كل سبت كانت العجوز المتصابية تجر اشياءها نحو النافذة . وتتنـاول مرآتها الصغيرة وتحاول تسريح ما تبقى من شعرها وتنشره على فرقـين فوق جمجمتها . ومن ثم تختلس نظرات سريعة حولها خوفاً من أن يشاهدها أحـد ، وان اقترب أحد منها ، تندفع إلى الوراء لتستكين بهدوء وتدعي النوم . ولكن كيف كانت تستطيع النوم ؟ فانها بانتظار النزهة . وهي في الثمانين من عمرها... هل ترى الآن هذا اللغز المجهول الذي في المرأة أيها الرئيس ؟ . أن هـذا يشدني الآن للبكاء . أما في ذلك الوقت فقد كنت تافهاً . ولم أفهم هذا . وهذا ما كان يدفعني للسخرية . في أحد الأيام غضبت منها ، لقد كانت توبخني لأنـني كنت اجري خلف الفتيات . عندها صحت في وجهها دون مواربة وبكل صرامة !! لماذا تدلكين شفتيك بورق الجوز كل سبت . وتسرحين شعرك . اتظنين باننـا نتنزه من أجلك ؟ إننا نأتي من أجل كريستالو . أما أنت فلست إلا جيفة نتنة .

هل تصدق أيها الرئيس ؟ في ذلك اليوم فقط عرفت ما هي المرأة . دمعتان دفقتا من عيني جدتي . انكمشت كانها كلبة ، وراحت ذقنهـا ترتجف . وصحت « كريستالو » واقـتربت منها أكـثر لكي تتمكن من أن تسمعني بوضـوح : « كريستالو ».. أن الشبان حيوانات قاسية . أنهم ليسو من المخلوقات الانسانية . لا يفهمون شيئاً .

عندها رفعت جدتي ذراعيها النحيلتين نحو السماء وصاحت « عليك اللعنـة من أعمق أعماق قلبي » ومنذ ذلك اليوم بدأت صحتها تتلاشى وتتدهور . وبعد شهرين كان يومها قد بدأ يقترب . وبدت أيامها معدودة . وعندما كانت تحتضر شاهدتني . فشهقت كأنها حشرة وحاولت أن تمسكني بأصابعهـا وقالت « لقد كنت أنت من أنهى حياتي . فليلعنك الله » ياالكسيس ويجعلك تعاني كل مـا عـانيته أنا » .

وابتسم زوربا وتابع .

ـ آه . . أن لعنة العجوز قد أصابت هدفها .

وراح يصلح من حال شاربه وتابع قائلاً .

ـ إنني في الخامسة والستين الآن . ولو عشت حتى المئة ، فلن اتقاعد ، فسأظل أحمل المرآة الصغيرة في جيبي ، وسأبقي أجري خلف النساء .

وابتسم ثانية ، ورمى سيجارته من النافذة ، ومد ذراعيه قائلاً .

ـ لي أخطاء غير هذه كثيرة ، إلا أنها الوحيدة التي سوف تقضي علي .

وقفز من سريره وصاح :

ـ لقد تحدثنا بما فيه الكفاية اليوم . يجب أن نشتغل اليوم .

وارتدى ثيابه وحذاءه بمثل لمح البصر وخرج .

وبرأس محنى ، رحت استعيد كلمات زوربا . وفجأة لمعت في رأسي ،مدينة مغطاة بالثلوج . كنت في معرض لأعمال « رودان » . وتوقفت لأنظر إلى يد برونزية ضخمة « يد الله » كانت اليد نصف مفتوحة . وفي نصف الراحة كان يوجد رجل وامرأة متعانقان ويكافحان .

جاءت فتاة واقتربت مني . وكانت تبدو غير مستكينة ومضطربة . وراحت تنظر إلى ذلك العناق الأبدي بين الرجل والمرأة . كانت نحيلة ،أنيقة ، وكان لها شعراً اشقراً كثيفاً . وذقناً قاسية وشفاه ناعمة كان بادياً عليها التصميم والرجولة . كان في طبيعتي عدم البدء بالحديث . ولكن لا أدري ما الذي دفعني لأن التفت نحوها واسألها :

ـ بماذا تفكرين ؟

فتمتمت بسرعة :

ـ آه . . لو نستطيع أن نهرب !

ـ وأين نذهب ،فيد الله في كل مكان . فلا يوجد أين مهرب . هل أنت آسفة ؟

ـ كلا . . فالحب قد يكون أكبر متعة في الوجود . هذا ممكن . إنما الآن فأرى تلك اليد البرونزية . فأفكر بالهرب .

ـ اتفضلين الحرية ؟

ـ أجل .

ــ ولكن لنفترض بأننا عندما نطيع تلك اليد نشعر بأننا أحرار . لنفترض بان كلمة « الله » ليس لها المعنى الذي تمنحه له الجماهير .

نظرت إلي بقلق . وبدت عيناها رماديتان ، وشفتاها جافتين مرّتين .

ــ لم أفهم ..

قالت وابتمدت بسرعه .

اختفت ، ومن ذلك الوقت لم افكر بها مطلقاً . ولكن لابد وانها كانت تعيش في داخلي ، واليوم على هذا الشاطيء المهجور ، ظهرت من جديد شاحبة نحيلة ، من أعماق كياني .

نعم لقد كان تمرفي غير لائقاً . كان زوربا على حق . فاليد البرونزية كانت حجة . فالاتصال الأول قد تم . وكانت الكلمات اللطيفة قد تبودلت وكان من الممكن ، تدريجياً ، أن نتعانق ونتحد بهدوء ودون ازعاج في يد الله . إلا أنني قفزت فجاة من الأرض نحو السماء . فارتعشت الفتاة وهربت .

كان الديك المعجوز يصيح في باحة حديقة السيدة هورتنس . وأنوار الصباح الجديد قد بدأت تزحف عبر النافذة الصغيرة . وانحدرت من الفراش .

كان العمال قد بدأوا يغدون حاملين ، معاولهم ومجارفهم . وراح يتناهى لمسامعي صوت زوربا يصدر الأوامر . فقد انغمس في العمل بسرعة فائقة . إذ أن الإنسان يشعر بانه يعرف كيف يامر ، ويحب المسؤولية .

مددت رأسي من النافذة الصغيرة وشاهدته واقفاً هناك . كانه عملاق بين ثلاثين من العمال النحيفين ، القساة ، السمر . كانت يده ممدودة بقسوة وكانت كلماته مختصرة وفي صلب الموضوع .

وبعد قليل أمسك بعنق فق صغير كان يتقدم متمتماً بصوت خفيض . فصاح زوربا :

ــ هل عندك شيء لتقوله ؟ هيا قله بسرعة وبصوت عال ، فانا لا أحب الدمدمة ، يجب أن تكون مستمداً للعمل . وإلا فعد للحانة .

عندها ظهرت السيدة هورتنس ، بشعر مشعث ، وخدين غائرين ، لأنها لم تضع أي مسحوق على وجهها . وكانت ترتدي ثوباً طويلاً قذراً ، وتنتعل ذوجاً من الأحذية الطويلة المهترئة . وسعلت سعالاً قاسياً كسعال مغنية سابقة ، كأنه نهيق حمار . توقفت ونظرت نحو زوربا بكل فخر وكبرياء . ومضت عيناها ،

فسفلت من جديد ، متى يلحظها . ومرت بقربه . تهز وتحرك ردفيهــا بإثارة مصطنعة . أكمامها الواسعة كادت تلسه . إلا أنه لم يتحمل مشقة النظر إليهـا . وأخذ قطعة من خبز الشعير وقبضة من الزيتون وصاح بالعمال :

ـ الآن أيها الرجال . باسم الله ، ارسموا علامة الصليب .

وسار بعيداً يتقدم الرجال بخط طويل نحو الجبال . لن اصف هنا العمل في المنجم .. فهذا يحتاج لصبر طويل . وأنا ينقصني الكثير منه . قرب البحر بنينا كوخاً من القصب والخيزران وبقايا صفائح البنزين . كان زوربا يستيقظ عنـد الفجر ، ويتنـاول معوله ، ويذهب إلى المنجم قبل كل العمال . ويفتح نفقـاً جديداً ، ويكتشف عرقاً من الفحم ويرقص من الفرح . إلا أنه بعد يومـين أو ثلاثة يتوه عن العرق فيصيح ويرمي نفسه على الأرض ويرفع رجليه ويـلوح بهم نحو السماء كانه يسخر أو يهزأ من السماء .

كان يعمل بكل اخلاص . ومنذ اليوم الأول تحولت كامل المسؤولية عـبر يدي ليستلمها هو بكل شجاعة ، كان عمله هو أن يتخذ القرار وأن يضعه قيـد التنفيذ ، وكان علي تحمل العواقب . إلا أن هـــذه التدابير ناسبتني أكثر لأنني شعرت بان هذه الشهور ستكون أسعد أيام حياتي .

وباعتبار كل هذا شعرت بانني اشتري سعادتي بثمن زهيد ..

كان جدي ، والد أمي ، الذي كان يسكن في إحدى قرى جزيرة كريت ، اعتاد أن يحمل كل ليلة فانوسه ليدور في شوارع القريمة ، علّه يصادف أحـد الغرباء . فيصطحبه إلى المنزل ليقدم له الطـعام والشراب ، ومن ثم يجلس فوق أريكته المعتادة ويشعل غليونه التركي ، ويلتفت نحو ضيفه ، الذي حان الوقت ليرد له الضيافة ، ويقول له بلهجة واثقة قاسية :

ـ هيا .. تكلم ...

ـ اتكلم ... عن ماذا أيها الأب موستويورجي :

ـ ماذا تكون .. من تكون . من أين أتيت . عن المدن والقرى التي زرتها ؟ كل شيء ، حدثني عن كل شيء . هيا تكلم .

ويبدأ الضيف بالحديث دون هدف ، ليخلط بين الحقائق والأساطير ، بينما يكون جدي جـالساً بهدوء فوق أريكته يدخن غليونه ، يصغي لضيفه بكل جوارحه ومتابعاً له في جميع أسفاره . وان احب الضيف ، فسوف يقول له :

– سوف تبقى يوم غـــد أيضاً . سوف لن ترحل ، فقد بقي عندك أشياء كثيرة لتقصها عليّ .

لم يترك جدي قريته أبداً ، حتى إلى كانديا أو كانيا « لماذا اذهب لهنـاك » كان يقول أن بعض أهالي كانديا وكانيا ، يمرون من هنا . وهكذا فكانديا وكانيا ياتون إليّ . إذن لماذا اذهب أنا إليهم ؟!!

وعلى هذا الشاطيء الكريتي اتبع أنا عادة جدي . أنا أيضاً قـــد وجدت ضيفي بعد ان بحثت عنه مع قنديلي . وسوف لن أدعـــه يرحل . بالطبع هو يكلفني أكثر من مجرد عشاء ، إلا أنه يستحق كل هذا ، كل مساء انتظر عودته من العمل ،وأجلسه أمامي ونلتهم طعامنا . وعندما يحين الوقت ليرد لي الضيافة أقول له « تـكلم » وادخن غليوني واصغي . هذا الضيف قد شاهد العالم باسره وخبر الروح البشرية. وأنا لا أمل ابداً الاصغاء إليه .

– تـكلم يازوربا ... تـكلم .

وعندما يبدأ حديثه تبدو أمام ناظري « ماسيدونيا » حيث تمتد في الفسحة التي بين زوربا وبيني ، بجبالها وغاباتها وسيولها وثوارها . ونساءها الذين يعملون بجد ورجالها ذوو الاجسام الضخمة . وأيضاً جبل آتوس بابرشياته الواحـــد والعشرون ومصانع الاسلحة ، وسكانه العاطلين عن العمل . وعندما ينهي زوربا حديثه عن الرهبان يهز رأسه ويغرق بالضحك قائلاً :

– ليحفظك الله أيها الرئيس ، من مؤخرات البغال ومقدمات الرهبان .

كل مساء يأخذني زوربا عبر اليونان ،بلغاريا والقسطنطينية . فأغمض عيني.. وأرى . كان قد جاب كل سهول البلقان وعاينها بعينيه الصغيرتـــين اللذين كان يفتحهما دائماً بدهشة وتعجب ، اشياء اعتدنا عليها ، تمر أمامها بكل بساطة . وفجأة تقفز أمام زوربا كأنهم مردة مخيفين . وعندما يشاهد امرأة تمر أمامنا ، يتوقف بذهول ويتساءل :

– يا لهذا اللغز المحيّر ! ما سر المرأة .. لماذا تدير رؤوسنا ؟.هيا اخبرني .. أنا اسألك ما معنى هذا .؟.

انه يستجوبني بهذه الطريقة ، وبمثل هذا الذهول ، كلما لمح رجـلاً ، شجرة في أوجها أو قدحاً من الماء البارد . أن زوربا يرى يومياً كل هذه الأشياء وكأنه يراها لأول مرة .

بالأمس كنا جالسين قرب الكوخ ، عندما عب كأساً من الخمر ، والتفت نحوي بسرعة قائلاً :

– مهما يكن هذا السائل الأحمر ، أيها الرئيس ، اخبرني . أغصان قديمة تنبت اغصان . وفي بادىء الأمر بعض الحصرم الحامض يتدلى فيها . ويمر الوقت وتنضج تحت أشعة الشمس ، ويصبحون بحلاوة العسل . عندها ندعوهم عنباً . وندوسهم بأرجلنا ونقطّر عصيرها ونضعهم في براميل خشبية . فيتخمرون من تلقاءهم . ونفتحها في عيد القديس يوحنا السكير [1] ونجدهم قد أصبحوا نبيذاً . إنها معجزة . وعندما تشرب هذا السائل الأحمر وينتفخ دماغك،وتشعر بأن روحك تكبر ، تكبر على الهيكل المظمي القديم ، وتتحدى الله للقتال . اخبرني أيها الرئيس كيف يتم كل هذا .

لم اجب شعرت وأنا أصغي لزوربا بأن العالم يتكشف من جديد : كل الأيام القاسية قد عادت لها حيويتها كما كانت في بدء التاريخ ، عندما خرجنا من بين يدي الله . الماء ، النسوة ، النجوم والخبز كلها عادت إلى أصلها المحير والدوامة الإلهية عادت لتدور من جديد في الجو .

لهذا ، كنت كل مساء ، اتمدد على الشاطيء بانتظار زوربا . فأراه يخرج بقوة من بطن الأرض بجسده المليء بالوحل والأقذار وخطواته الواسعة من بعيد كنت استطيع أن اشاهد كيف كانت نتيجة العمل اليوم ، من طريقة سيره ، من انتصاب رأسه عالياً أو انخفاضه ومن حركات يديه المتأرجحتان .

أول الأمر كنت ارافقه لأراقب العمال ، كنت اجهد نفسي في محاولة لتغيير مجرى حياتي ، لأشغل نفسي في حياة عملية . لأعرف ولأحب المادية الانسانية التي وقعت بين يدي . لأختبر واشعر بالمتعة التي انتظرتها طويلاً لا بمجرد كلمات اقرأها أو اكتبها بل مع رجال على قيد الحياة .

ورسمت بعض الخطط الرومانتيكية،فيما لو نجح مشروع التنقيب عن الفحم . سوف انظم نوعاً من المنظمات الإجتماعية حيث نشترك في كل شيء . حيث سنأكل جميعاً نفس الطعام ، ونرتدي نفس اللباس كأننا اخوة . وخلقت في رأسي أمراً دينياً جديداً ، نواة لحياة جديدة .

ولكنني لم أكن قد قررت بعد أن افاتح زوربا بمشروعي ، لقد كان ينزعج

---

(١) هو يوم كليدوناس ويقام في الخامس عشر من شهر آب .

من ذهابي ومجيئي بين صفوف العمال . اسأل واتدخل ، ودائماً لصالح العمال .

عندها يقلب زوربا شفتيه قائلاً :

– أيها الرئيس الن تذهب في نزهة بعيداً عن هنا . ألا ترى الشمس والبحر هنـــاك .

في بادىء الأمر كنت أصر على البقاء وابقى. كنت اسأل واثرثر ،اردت أن أعلم قصة حياة كل رجل . كم من الأولاد لديهم يجب أن يعيلوهم واخوات ليزوجوهم واقرباء ليس لهم من معين . بماذا يهتمون ، والأمراض وكل ما يقلقهم .

– لا تغوص هكذا في تاريخ حياتهم . أيها الرئيس ، سوف تندفـــع نحوهم بقلبـك الرقيق ، وسوف تحبهم أكثر ممـــا يجب لمصلحتك ومصلحتهم . ومهما سوف يفعلون ستخلق لهم الاعذار . عندها فلتساعدنا الآلهة ، فسوف يهملون عملهم ، ويقومون به بأي طريقة يريدونها ، وعندها فليساعدهم الله أيضاً ، يجب أن تدرك هذا جيداً . عندما يكون الرئيس قاسياً عندهـــا سيحترمونه العمال ويعملون بجد ، وعندما يكون ناعماً يتركون كل شي عليه ، ويمضون وقتاً طيباً، هل تفهم هذا ؟.

في إحدى الامسيات ، بعد إنتها العمل ، رمى بمعوله في الظل وصاح قائلاً بعد ان نفذ صبره .

– انظر هنا ، توقف عن التدخل ، بالسرعة نفسها التي ابني فيهـا انت تهدم كل شيء . . والآن ما هـــذا الذي كنت تتحدث عنه اليوم مع الرجـــال ؟ اشتراكية وهراء ؟ هل أنت واعظ أو رأسمالي ؟ يجب أن تقرر . .

ولكن كيف استطيع ان اختار ؟ لقد كنت أحاول جهدي أن أجمع بـين هذين الشيئين . لأجد طريقة تجمع بين هذين التناقضين ولأنجـح في الحصول على كلامن ، الحياة في الأرض وملكوت السماوات ، كان هذ يتعامل داخلي منذ سنوات ، ختى منذ الأيام الأولى لطفولتي . عندما كنت لا ازال في المدرسة . حيث كنت قد نظمت مع أقرب اصدقائي جمعية سرية تدعى « المجتمع الودي » [1] هـذا كان الاسم الذي اطلقناه عليها .وداخل غرفة نومي المغلقة أقسمنا اليمين لنكرس

---

(١) Friendly Society المنظمة الشهيرة الــتي مهدت فيما بعد للثورة اليونانيـــة في سنة ١٨٢١ .

حياتنا من أجل محاربة الظلم . دموع غزيرة انهمرت فوق وجوهنا عندما أقسمنا اليمين وأيدينا فوق قلوبنا .

مبادىء صبيانية ! ولكن يالتعاسة من يسخر منها عندما يسمعها . ولكن عندما شاهدت ما صار إليه أعضاء هذه المنظمة ، من اطباء مدعون ، ومحامون غشاشون ، وأصحاب محلات ، سياسيون دجالون ، وصحفيون خونة . غاص قلبي . إن مناخ هذا الأرض قد اصبح جلف وقاس ، وأثمن البذور لا تنمو وتختفي تحت الأرض وبين الشوك والقراص . استطيع أن أرى بكل وضوح اليوم ، بالنسبة لنفسي ، لم اصبح معقولاً بعد ، ولكن ليتمجد اسم الرب ، اشعر بانني لا ازال مستعداً لأقوم ببعض المغامرات الدون كيشوتية .

كنا أيام الآحاد نحضر أنفسنا بكل عناية وكأننا شابين يحضران نفسيهما للزواج ، نحلق ونرتدي قمصاناً بيضاء ، ونتوجه بعد الظهر لرؤية السيدة هورتنس ، كانت كل يوم أحد تذبح لنا طيراً . وكنا أكثر الاحيان نجلس ثلاثتنا لنأكل ونشرب ، وتمتد يد زوربا الطويلة إلى صدر السيدة المضياف ليمتلكه . وعندما يحل الليل نعود إلى شاطئنا . كانت الحياة تبدو بسيطة ومليئة بالنوايا الحسنة تماماً كالسيدة هورتنس .

وذات أحد ، وبينما كنا عائدين من وليمتنا الممتعة ، قررت أن اخبر زوربا بمشاريعي . اصغى إلي مجبراً نفسه ، وضاغطاً عليها ليكون صبوراً كفاية . إلا أنه من وقت لآخر كان يهز رأسه الضخم بغضب ظاهر .. كلماتي الاولى جعلته يصحو من سكره .. وطردت الخمرة من رأسه . وعندما انتهيت نزع بعصبية شديدة شعرة أو شعرتين او ثلاثة من شاربه وقال :

— اعذرني لما سأقوله ايها الرئيس ، ولكن لا اعتقد بأن عقلك قد اكتمل بعد ، كم تبلغ من العمر ؟.

— خمسه وثلاثون سنة .

— إذاً فهو لن يكتمل ابداً .

وانفجر مقهقهاً . وشعرت بأني قد لسعت . وصحت به .

— الا تؤمن بالأنسان ؟.

— والآن لا تندفع غاضباً ايها الرئيس ! فأنا لا أؤمن بأي شيء . فلو كنت أؤمن بالانسان لآمنت بالله . ولكنت آمنت بالشيطان أيضاً . وهذه هي كل

المشكلة حيث تختلط الاشياء وتسبب لي كثيراً من التعقيد .

وخيم عليه الصمت ، وانتزع قبعته وحك رأسه بقسوة وشد شاربه كأنه يريد أن ينتزعه من مكانه . كان يريد أن يقول شيئاً ، إلا أنه منع نفسه ونظر إلي من زاوية عينه ، ومن ثم نظر إلي ثانية وقرر أن يتكلم . وصاح ضارباً الأرض بعصاه بقسوة .

ـ الانسان ليس إلا بهيمة . بهيمة كبيرة . إلا أن سعادتك لا تدرك هذا أبداً . إذ يبدو بأن كل شيء كان سهلاً بالنسبة لك . اسألني أنا ، فأجيبك بأنه بهيمة فأن كنت قاسياً معه سوف يخافك ويحترمك . وان كنت لطيفاً معه فسوف ينتزع عيونك .

احفظ المسافة بينك وبينهم ، لا تجعل الرجال اقوياء هكذا . لا تتمشى بينهم وتقول لهم بأننا كلنا متساوون ، وان لنا نفس الحقوق ، وإلا سوف يدوسون على حقوقك أنت .سوف يسرقون خبزك ويتركونك تموت من الجوع. احفظ مركزك أيها الرئيس من أجل الخير الذي اتمناه لك .

ـ ولكن الا تؤمن بشيء ؟

ـ كلا لا أؤمن بشيء بالمرة . كم مرة يجب أن اكرر هذا . فأنا لا أؤمن بأي شيء أو بأي شخص . بل بزوربا وحده ، ليس لأن زوربا أحسن من غيره . كلا فهو بهيمة كغيره . ولكن لأن زوربا هو الوحيد الذي يقع تحت سلطتي ، والوحيد الذي أعرفه . أما الباقون فكلهم اشباح . فأنا أرى بهاتين العينين ، واسمع بهاتين الاذنين ، واهضم بهذه المعدة . كل الباقون اشباح اقول لك ، عندما أموت ، فسوف يموت كل شيء معي . كل العالم الزوربي سوف يغوص إلى الأعماق .

فقلت ساخراً .

ـ يا لها من أنانية !.

ـ لا استطيع معها شيئاً . آ كل فاصوليا ، فأتحدث عن الفاصوليا ، أنا زوربا فأتحدث عن زوربا .

لم أقل شيئاً . كلمات زوربا لسعتني كالسوط ، لقد ادهشتني قوته ،لإحتقاره الرجال إلى هذا الحد ، وبنفس الوقت رغبته في العيش والعمل معهم . أما أنا فيجب إما أن اصبح ناسكاً ، أو ازخرف رؤوس الرجال بريش مزيف حتى

استطيع ان احملهم .

التفت زوربا نحوي ، وتحت ضوء النجوم استطعت أن أرى ضحكة زوربا حتى اذنيه .

– هل ازعجتك ايها الرئيس .

قال فجأة عندما وصلنا إلى الكوخ . نظر زوربا إلى بعطف وقلق . لم أجب ، شعرت بأن عقلي يوافق مع زوربا إلا أن قلبي راح يقاوم ، يريد الانطلاق والهروب من البهيمة ، وليسير في طريقه الخاص . قلت :

– لا اشعر بالنعاس هذه الليلة ، اذهب انت لتنام .

كانت النجوم تلمع في السماء ، والبحر كان يحمل الاصداف تتلألأ .

ولمعت إحدى الأصداف واضاءت تحت منارتها الصدفية . حيث كان قطر الندى يقطر من شعر الليل الداكن .

تمددت على وجهي ، مأخوذ بالسكون ، دون أن افكر بأي شيء . كنت وحيداً بين الليل والبحر . كان عقلي كأنه صَدفة اضاءت منارتها واستقرت على أرض الشاطيء الداكنة وراحت تنتظر .

كانت النجوم تسافر وتدور ، والساعات تمر ، وعندما نهضت ، كنت قد قررت ، دون ان اعلم ، الخطة المزدوجة التي علي ان اتبعها على هذا الشاطيء

ان اهرب من بوذا . وأخلص نفسي من الكلمات الميتيافيزيقية واحرر نفسي من القلق الغير مجدٍ .

ان اقوم باتصالات مباشرة مع الرجال وابتداء من هذه اللحظة .

وقلت لنفسي « ربما لم يفت الأوان بعد » .

- ٥ -

« العم اناغنوستي ، الجد ، يحييكم ويسأل ان كنتما تهتمان للمجيء إلى منزله لتناول الطعام ، أن الرجل المختص سوف يمر بالقرية اليوم ليخصي الخنازير انها مناسبة فالاعضاء لذيذة جداً ، كيريا ماروليا ، زوجة المختار سوف تقوم بطبخهم خصيصاً لكم . كما يصادف اليوم أيضاً عيد ميلاد حفيدهما متياس وسوف تتمنون له عيداً سعيداً وسنوات عديدة » .

انه من المفرح جداً ، أن تدخل إلى بيت أحد الفلاحين الكريتيين . فكل شيء في البيت يوحي بأن الأب هو صاحب اليد الطولى . المدفأة ، قنديل الكاز ، والجرار المصفوفة على الأرض ، بضع كراسي ، وطاولة . وعلى الشمال عندما تدخل ، تشاهد فتحة في الجدار حيث توجد جرة من الماء البارد . وفي العوارض الخشبية تتدلى خيطان السفرجل ، والنباتات كالنعنع والصعتر . والحر الأحمر .

وفي أقصى نهاية الغرفة ، سلم أو بضع درجات خشبية ، تقودك نحو الدهليز الطويل حيث يوجد سرير كبير وفوقه ، الأيقونات المقدسة مع مصابيحها ، يبدو المنزل فارغاً ، إلا أنه يحوي كل ما نحتاجه . بالحقيقة أن الضروريات التي يحتاجها الإنسان قليلة جداً .

كان يوماً رائعاً ، حيث كان لطيفاً تحت اشعة شمس الخريف ، جلسنا أمام المنزل في الحديقة ، تحت شجرة زيتون تتدلى منها الثمار . وعبر الأوراق الفضية كان البحر يبدو هادئاً تماماً ، وبعض الغيوم كانت تمر من حين لآخر في مواجهة الشمس لتضفي على الأرض مسحة حزن ، ومن ثم فرح ، كما لو أنها تتنفس .

وفي آخر الحديقة الصغيرة ، وداخل زريبة مغلقة ، كانت الخنازير المخصية تئن من الألم لتصم آذاننا ، وكانت رائحة طهي السيدة كيريا ماروليا تصل إلى انوفنا .

كان حديثنا يدور حول الاشياء الخالدة ، مواسم الذرة ، الكروم ، المطر . كان علينا أن نرفع أصواتنا لأن المختار السابق كان ثقيل السمع . وكان يقول

بأن لديه « اذن متكبرة » . هذا العجوز الكريتي كان يعيش حياة صادقة وآمنة ، كشجرة في وادٍ أمين . كان قد ولد ، وشب وتزوج ، ورزق أولاداً ، واتيح له الوقت لرؤية أحفاده ، بعضهم مات ، إلا أن الآخرون فلا يزالون على قيد الحياة ، إذن فاستمرار ذرية العائلة أصبح مؤمن .

هذا العجوز الكريتي استطاع أن يستعيد ذكرى الأيام السابقة ، الأحكام التركية ، أقوال والده ، والمعجزات التي حصلت في تلك الأيام لأن النساء كن يخشين الله وكان لديهن إيمان .

– الآن انظروا إليّ ، أنا العم أناغنوستي اكلمكم ، ولادتي أنا كانت معجزة . نعم كانت معجزة . وعندما اخبركم كيف حدث هذا سوف تندهشون . « ليرحمنا الله » سوف تقولون ، وتذهبون إلى دير السيدة مريم العذراء وتشعلون شمعة لها .

ورسم إشارة الصليب ، وبصوت ناعم وبطريقة لطيفة بدأ برواية قصته :

– في تلك الأيام كان يوجد سيدة تركية تعيش في قريتنا ، لعنة الله عليها ، وذات يوم حملت اللعينة وكانت على وشك أن تضع طفلاً ، مددوها على الأريكة وبقيت تصرخ من الألم لمدة ثلاثة أيام كأنها بقرة ، إلا أن الولد لم يخرج . عندها اقتربت منها إحدى صديقاتها عليها اللعنة أيضاً ونصحتها قائلة :

– ظافر خانم . يجب أن تسألي الأم مريم لتساعدك . هكذا يسمون مريم العذراء . ليمجد الله اسمها . فاجابتها ، « لماذا ادعوها افضل الموت على ذلك » إلا أن آلامها زادت حدتها . واستمر الحال لمدة يوم آخر . ولم تستطع أن تضع طفلها . إذن ما العمل . ولم تستطع أن تتحمل المزيد من الآلام . وبدأت تصرخ بأعلى صوتها « أيها الأم ماري أيها الأم ماري » ولكن دون جدوى . ولم تتوقف الآلام ولم تضع الطفل . إلا أن صديقتها قالت « ربما لا تفهم اللغة التركية » عندها صاحت الكلبة « ياعذراء الروم .. يا عذراء الروم » . فعادت الآلام تتضاعف . وعادت صديقتها لتقول « انك لا تناديها بالطريقة المناسبة ، ولذلك فهي لا تأتي للمساعدة » عندها صاحت تلك الكلبة الكافرة « أيها العذراء القديسة » عندها وبسرعة انساب الطفل كشعرة من الوحل .

حدث هذا يوم أحد ، ويوم الاحد التالي كانت والدتي تعاني من الآلام لأنها كانت بنفس الحالة . عندها صرخت والدتي المسكينة « أيها العذراء القديسة ،

أيها العذراء القديسة » إلا أنها لم تضع طفلهــا . وكان والدي جالساً في وسط الباحة . كان والدي لا يستطيع أن يأكل أو يشرب بسبب آلامها . عندهــا شعر والدي بالغضب من السيدة العذراء ويقول « أترون لقد نادتها تلك الكلبة التركية وجعلتها تضع طفلها بسرعة » وفي اليوم الرابع لم يستطع والدي أن يصبر أكثر من هذا . فأخذ عصا الحقل وتوجه نحو دير السيدة العذراء . كانت في عوننا ، وعندمــا وصل لهناك وبدون أن يرسم إشارة الصليب ، بسبب غضبه الشديد . صفع الباب خلفه وتوجه رأساً إلى المذبح وصاح قائلاً « انظري أيها السيدة العذراء . أن زوجتي كرينيو ، أنت تعرفيها ، اليس كذلــك ؟ من المفروض أن تعرفيهــا فهي تأتي لتحضر لــك الزيت كل يوم سبت وتضيء مصباحك . إنها تعاني الآلام لمدة ثلاثة أيام بلياليها . وقد نادتك . الم تسمعيها ؟ إذا لم تسمعيها فأنت طرشاء .

لو كانت ظافر خانم نادتك لكنت لبيتها بسرعة . إلا ان زوجــتي كرينيو المسيحية لا تسمعيها . اتعلمين لو لم تكوني السيدة العذراء لكنت لقنتك درساً بعصاي هذه .

ودون زيادة أي كلمة ، ودون ان ينحني لها ، وادار ظهره لها وهم بالذهاب ، ويا لعظمة الرب ، وبنفس اللحظة علا صرير من المذبح وكأن السيدة العــذراء تذوب . دعوني اخبركم هنا ، ان كنتم لا تعرفوا هذا ، ان العذراء ترسل هــذا الصوت عندما تكون تصنع المعجزات . عندها فهم والدي بسرعــة . واستدار بسرعة وركع راسماً إشارة الصليب وصاح « لقد اخطأت بحقك ايتهــا السيدة العذراء ، لقد تفوهت بأشياء كثيرة كان يجب الا اقولها » .

ومــا كاد يصل إلى القرية حتى سمع الخبر العظيم « نتمنى له عيشاً سعيداً يا كوستاندي . لقد وضعت زوجتك طفلاً ذكراً » وهــذا الطفل هــو انا ، أناغنوستي المجوز . إلا انني ثقيل السمع . لقد اهان والدي السيدة العــذراء ودعاها بالطرشاء .

ولا بــد ان العذراء قالت « إذن انت تدعوني بالطرشاء ، اليس كذلــك ؟ سوف اجعل ابنك اطرش ، سوف اعلمك كيف تهينني » .

ورسم العم اناغنوستي إشارة الصليب ، وتابع قائلاً :

— إلا أن هذا ليس مهم ليمجد اسم الرب . كانت بمقدورهــا ان تجعلني

اعمى او مجنون او احدب او ... ليحمنا الله . كان بمقدورها ان تجعلني امرأة ، ليس هذا بشيء ... انا انحني لقداستها .

وملأ الكؤوس ورفع كأسه قائلاً :

– لتكن في عوننا .

– نخب صحتك ايها العم انا غنوستي .. نتمنى ان تعيش مئة عـــام لترى احفاد احفادك .

وجرع العجوز كأسه دفعة واحدة ومسح شاربه بظهر يده .

– كلا يا ولدي..ان هذا كثيراً لتتمناه . لقد شاهدت احفادي وهذا يكفي ويجب انلا نسأل اشياء غير معقولة . لقد اقتربت ساعتي ، لقد اصبحت عجوزاً ايها الاصدقاء ، لقد فرغت عظامي . ولم اعد استطع ان انجب اطفالاً .. فلماذا اعيش إذاً ؟

وملأ الكؤوس ثانية وتناول من وسطه بضع جوزات وبعض اكواز التـين المجففة ملفوفة بورق الغار واقتسمهم معنا جميعاً .

– لقد منحت كل ما املك لأطفالي .. ولقد اصبحنا فقراء جـداً ... نعم فقراء جداً ، ولكن لا اشتكي .. فعند الله كل ما نحتاجه .

عندها صاح زوربا في أذن العم انا غنوستي قائلاً :

– الله عنده كل ما نحتاجه ايها العم اناغنوستي ! . ربما الله عنده كل شيء ، ولكن ليس نحن ، فالعجوز البخيل لا يمنحنا شيئاً .

إلا ان العجوز صاح بقسوة .

– لا تحقره هكذا .. فهو يعد علينا جميع اخطاءنا . الا تعلم هذا !

في هذه اللحظة دخلت الجدة انا غنوستي بهدوء حاملة الأعضاء المحتفى بها على طبق خشبي ، وحاملة ايضاً وعاء كبير من النبيذ الأحمر . ووضعتهم امامنا على الطاولة ووقفت بقربنا بيدين مسدلتين وعينين منخفضتين .

شعرت بقرف من تذوق هـــذه « الأعضاء » ولكنني لم استطع ان ارفض تجربتها . كان زوربا يراقبني بطرف عينه بسخرية .

– انه ألذ طعام تناولته طوال حياتك ايها الرئيس .. لا تقرف .

وابتسم العم اناغنوستي . وقال :

– انها الحقيقة .. جربهم وسترى ، يذوبون في الفم بسرعة . عندمـا زار

الامير جورج الدير هناك فوق الجبل. حضر الرهبان مأدبة ملكية من أجـــله . وقدموا للجميع اللحم ما عدا الأمير ، حيث قدموا له طبقـــاً من الحساء . فتناول ملعقته وراح يحرك الحساء وقال متعجباً « ما هذا ؟ فاصوليا ! فاصوليا بيضاء » فأجابه رئيس الدير قائلاً « جربهـا يا صاحب السعادة . وسوف نتكلم عنها فيما بعد . » فتناول الأمير ملعقه وتذوق الحساء . مرة ، مرتين وبلحظات قليلة أفرغ الطبق ولعق شفتيه وقال يا له من طبق لذيذ ! يا لهذه الفاصوليا من لذيذة . ان طعمهم كالنخاعات تماماً .

– انها ليست بفاصوليـــا يا صاحب السعادة .. لقد خصينا جميع الديكة التي في الجوار .

وغرق العجوز مقهقهاً وشك إحدى هذه الأعضاء بشوكته وقال :

– أفتح فمك . انـــه طبق أمراء .

وفتحت فمي ووضع « العضو » في فمي . وملأ الكؤوس من جديد وشربنا نخب حفيده الأكبر . ولمعت عيني العم اناغنوستي . فسالته قائلاً :

– ما الذي تريده ان يكون حفيدك ايها العم اناغنوستي .. أخبرنا لنستطيع ان نتمنى له ذلك .

– ما الذى أتمناه . أتمنى ان يسير في الطريق القويم ، وان يصبح رجـــلاً صالحاً ، رب عائلة. وان يتزوج ايضاً ويرزق اطفالاً واحفاداً، وأتمنى ان يكون احد اولاده مثلي تماماً . حتى يقول العجائز « الا يشبه العم اناغنوستي رحمه الله كان رجلاً طيباً » .

ومن ثم صاح دون ان ينظر نحو زوجته :

– ماروليا ، مزيداً من الخمر . املأي الوعاء ثانيــة .

عندها فتح باب الزريبة بلطمة قوية من الداخل، واندفع الخنزير الى الحديقة. فالتفت زوربا نحو قائلاً بشفقة :

– انه يتألم . يا له من حيـوان مسكين .

– بالتاكيد . افترض انهم فعلوا هــذا بك . ألن تتالم ؟

قفز زوربا من على كرسيه ودمدم قائــلاً برعب :

– ليقطع الله لسانك ايها العجوز الأصم .

راح الخنزير يسير أمامنا وينظر الينا بثورة وغضب . فقال العم اناغنوستي ،

الذي روحه قد بدأت تسرح بفعل النبيذ الذي كان قد جرعه .

– اعتقد بانه يعرف باننا نا كل اعضاءه .

ولكننا ، وكاننا من أكلة لحوم البشر ، رحنا نتابع الأكل بهدوء ، ونشرب النبيذ الأحمر . حيث كنا نحدق عبر اوراق الزيتون الفضية تجاه البحر الذي تغير لونه الى الوردي بفضل غياب الشمس .

وعند الغروب غادرنا منزل العجوز ، بدا زوربا منتشياً بفضل النبيذ الذي إحتساه ، كما بدا راغباً بالكلام .

– ما الذي كنا نقوله اول امس ايها الرئيس ؟ قلت انك بانك تود لو تفتح عيون الناس . حسناً ، اذهب وافتح عيني العم اناغنوستي . لقد شاهدت كيف كانت تتصرف زوجته . بانتظار اوامره . كا نها كلية تستجدي . اذهب اليه واخبره بان النساء لهم نفس الحقوق كالرجال تماما . وانه من الوحشية ان تا كل اعضاء الخنزير بينما هو يئن من الألم امامكم ، وانه من البساطة والجنون أن نرفع الشكر لله لانه يملك كل شيء بينما نحن نشتغل حتى الموت . ما الذي سيفيده العم اناغنوستي من هذه الايضاحات الفارغة . سوف تسبب له الكثير من الإزعاج . وما الذي ستفيده الجدة اناغنوستي من هذا ايضا ؟ سوف تشعل النار في البيت وتبدأ المشا كل العائلية . وتحاول الدجاجة ان تكون ديكا . ويبدأ الزوجان بالتشاحن . دع هؤلاء الناس ايها الرئيس ودع عيونهم مغمضة .

ولكن لنفترض بانك فتحت اعينهم ، فما الذي سيرونه ... بؤسهم ، دع عيونهم مغلقة . ودعهم يغرقون في احلامهم .

وصمت لحظة وحك رأسه كان يفكر .

– إلا ... إلا .. إلا اذا إستطعت ، عندما يفتحون اعينهم ، ان تجعلهم يرون عالما افضل من هذا الذي يعيشون فيه الآن . هل تستطيع ذلك ؟ .

لم أكن اعلم ، كنت ادرك تماما الذي سيدمر ، ولكن لم أكن اعلم ما الذي سيبنى فوق هذه الأنقاض . لا أحد يعرف هذا مهما كانت درجة تاكده . رحت افكر . العالم القديم صامد . نحن نعيش فيه مكافحين وعاملين بجهد كل لحظة . انه موجود . اما عالم المستقبل فهو لم يولد بعد . تستطيع لمسه ، سائل ، ومصنوع من الأنوار التي تصنعها الأحلام ، انها ليست إلا غيوم

دفعتها الرياح القاسية . الحب ، الحقد ، التخيلات ، الحظ ، الله .

اعظم نبي على الارض لا يستطيع ان يمنح اكثر من كلمة أمر ، وكلما كان الأمر صحيحا ورقيقا كان النبي عظيما .

ونظر زوربا لي بخبث وسخرية مبتسما . فصرخت.

— نعم استطيع ان اريهم عالما أفضل .

— اتستطيع ؟ اذن دعنا نسمع شيئا عنه .

— لا استطيع ان اشرحه لك، فلن تفهم ما أعنيه .

— هذا يعني بانه ليس لديك شيئا لتريه . لا تظن باني غبي ايها الرئيس . واذا قيل لك ذلك فقد خدعوك . ربما انا لست متعلماً تماما كالعم اناغنوستي ولكنني لست غبيا . فإذا لم افهم أنا ، فما الذي تنتظره من هؤلاء المساكين ان يفهموه . وماذا عن الناس الذين هم مثل العم اناغنوستي في هذا العالم، هل ستريهم ظلمات جديدة ؟ انهم قد استطاعوا ان يتدبروا امرهم حتى الآن ، عندهم اولاد واحفاد ايضاً.والله يحمل اولادهم صم أو عمي ولكنهم مع ذلك يقولون «ليتمجد اسم الرب » يشعرون بانهم مرتاحون في بؤسهم . اذن دعهم كما هم ولا تقل شيئاً .

وخيم علي السكوت ، ومررنا قرب نافذة الحديقة . وتوقف زوربا لبرهة وتنهّد ولم يقل شيئاً . لا بد إن السماء قد أمطرت في مكان ما ، لان رائحة الأرض الرطبة كانت تعبق في المكان . وكانت النجوم الأولى قد بدأت تظهر ، والقمر الجديد قد بدأ يلمع في السماء بلونه الأصفر المخضر . كانت المذوبة تخيم على السماء .

ورحت أفكر . ان هذا الرجل لم يدخل أي مدرسة ، وعقله لم يتخبط في مشاكل الا ان عنده كل الخبرة اللازمة . فقد تفتح عقله وقلبه نما وأصبح أكبر دون أن يفقد ذرة من شجاعته . وكل المشاكل التي نجدها معقدة وليس لها أي حل يمر بها وكانه يحمل سيفاً . تماماً كانه الكسندر الكبير . من الصعب عليه أن يفقد هدفه ، لأن قدماه مثبتتان بالأرض بفضل ثقل جسده الكبير . يوجد بعض المتوحشين الافريقيين،المتوحشين الذين يقدسون الثعابين لانها ترتكز بكامل جسدها على الأرض ، لهذا يجب أن تعرف جميع أسرار هذه الأرض . تعرفها ببطنها وذيلها وبرأسها . انها على اتصال دائم بالأرض . وهذا ينطبق تماماً على

زوربا . ونحن معشر المثقفين وكاننا طيور فارغة الرأس في الهواء .

كانت النجوم تتضاعف في السماء وكانوا جميعهم قساة، متوحشين، وساخرين دون رحمة تجاه الانسان .

لم نعد للحديث ثانية ، وكنا نحن الاثنين نحدق في السماء بخوف ورعب . وكل لحظة كانت النجوم تزداد وتشع ليمتد الحريق .

وصلنا أخيراً إلى الكوخ . ولم يكن لدي أي قابلية للطعام . وجلست على صخرة بقرب البحـــر . وأشعل زوربا النار وتناول طعـامه ، وكـان على وشك المجيء بقربي . إلا انه غير رأيه في آخر لحظة وتمـدد فوق سريره وغرق في النوم .

كان الهدوء الشديد يهيمن على البحر . وتحت النجوم المتلألئة كانت الأرض راقدة بسكون ودون حركة . لا نباح كلاب ولا صوت عصافير . كان صمتاً مخيفاً خطراً كانه مشكلاً من آلاف الصرخـــات البعيدة العميقة حتى اننـا لم نستطع أن نسمعها . كنت أسمع هدير الدم يضرب أوردتي وشرايين عنقي .

رحت أفكر انها أنشودة النمر ، هناك في الهند ، عندما يرخي الليـــل سدوله ، ترتفع الأصوات بأغنية حزينة ، رتيبة مؤلمـــة وبصوت خفيض ، انشودة هادئة متوحشة . كانها تثاءب حيوان مفترس . انشودة النمر .! عنـــدها يرتجف قلب الانسان ويبحث عن مخرج وينظر برعب عظيم .

وبينما كنت أفكر بهذه الأنشودة بدأ قلبي يمتـــلىء شيئاً فشيئاً ، وبدأت الحياة بالعودة إلى أذني . وعلى صوت السكون . كان الروح قد تشكلت من هذه الأنشودة وكانت تحاول الهرب من الجسد لتصفي .

وانحنيت وملأت راحتي بمـــاء البحر ورطبت جبيني ورأسي . وشعرت بالراحة . ومن أعماق وجودي ، كانت ثمة صرخات تتجاوب بتوعّد ونفاذ صبر. كان النمر في داخلي ، وكان يزمجر .

ومرة واحدة ملأ هذا الصوت أذني . انه صوت بوذا . ورحت أسير بسرعة على حافة المياه كما لو انني أحاول الهرب . منذ مدة ، وعندما أكون وحيداً في الليل ويكون الصمت مخيفاً أسمع هذا الصوت ، بادىء الأمر حزيناً مؤلمـاً ومن ثم يبدأ بالغضب موبخاً آمراً ، ويبدأ برفس صدري كانه جنيناً قد حان وقت تركه الرحم .

لا بد وأنه كان منتصف الليل . كانت الغيوم السوداء قد تجمعت في السماء وبدأ نقط ثقيلة من المطر تنهمر فوق يدي.ولكني لم اعرها اي اهتمام كانت غارقاً في جو محرق . كنت اشعر بان لهيباً كان يخرج من صدغي .

لا بد وان الوقت قد حان . رحت افكر ، العجلة البوذيــة تحملني بعيداً . لقد حان الوقت لأحرر نفسي من هذا الجنين المعجزة .

عدت بسرعة الى الكوخ واشعلت القنديل . وعندمـا وقع النور على زوربا تحركت جفونه وفتح عينيه وراح يراقبني منكباً على الورق وغارقاً في الكتابة . ودمدم بشيء لم استطع ان أفهمه . وعاد واستدار نحو الحائط وغرق في النوم من جديد .

كنت اكتب بسرعة . كنت على عجلة . كان بوذا مستعداً تماماً في داخــلي . كنت أراه بوضوح ينساب من عقلي كأنه شريط حريري مـــليء بالرموز ، كان ينساب بسرعة وكنت ابذل اقصى جهدي للحاق به . ورحت اكتب ، كان كل شيء سهلا بسيطاً . لم أكن اكتب بل كنت انسخ . كأن عالماً كاملا يبدو أمامي مؤلفاً من الحنان والمعارضة والهواء. قصور بوذا ، نساء الحريم ، العربة الذهبية ، والمصادمات المصيرية الثلاثة . مع العجوز والمريض والموت . الهرب وحـــياة التصوف والخلاص. واعلان النجاة. كانت الارض مغطاة بازهار صفراء. والفقراء والملوك يرتدون اثواباً زعفرانية اللون . الصخور ، الاشجار واللحم بدت خفيفة. وتحولت الروح لبخار ، والبخار لروح . والروح تحولت للاشيء .

بـــدأ التعب يسيطر على اصابعي ، ولكن لا لن استطع ان اتوقف . الرؤيا كانت تمر بسرعة وتختفي . وكان علي اللحاق بها .

عند الصباح وجدني زوربا غارقاً في النوم فوق الخطوط .

٦

كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء عندمـــا استيقظت . شعرت بان اصابع يدي اليمنى قد تصلبت لأمساكي بالقلم لتلك المدة الطويلة . ان العاصفة البوذية قد طعمتني وتركتني متعباً فارغاً .

انحنيت لألتقط الصفحات المبعثرة فــوق الارض ، لم يكن لدي القوة أو الرغبة لمجرد النظر اليهم . كما لو أن ذلك الخيال الآسر كان مجرد حلمــاً . لم أعد اتمنى ان اراه سجين الكلمات وذليلا لها .

كانت السماء تمطر بهدوء وسكينة ، وزوربا ، قبل مغادرتـه الكوخ اضرم النار في الموقد ، وبقيت طيلة الوقت جالساً فوق ركبتي ماداً يدي فوق النــار بلا اكل ، صامتاً اصغي الى صوت رذاذ المطر الذي كان يتساقط على مهـل . لم اكن افكر بأي شيء . كأن عقلي كان يخلد الى الراحة كأنــه قد جمع الى بعضه فوق ارض مبللة كان بأستطاعتي ان اسمع حركات ودمدمـــات الارض وانهمار المطر ونمو الحبوب . كما كنت اشعر بان الارض والسماء قـــد اتحدتا ، كما في الأزمان الماضية كرجل وامرأة لينجبا الأطفــال . استطعت ان اسمع هـــدير البحر امامي على طول الشاطيء كانه وحشاً مزمجراً يمد لسانـــه ليطفيء عطشه .

كنت امر بفترة سعادة حقيقية ، واشعر بالسعادة تماماً ولم اكن اشعر بهـــذا دائماً . الا انه عندما يمضي الوقت نشعر فجأة ، وبدون مقدمات كم كنـــا سعداء . الا اننا فوق هذا الشاطيء الكريتي كنت امر بتلك السعادة واختبرها تمامـــاً .

ان هذ الخضم الظاميء ، ذو اللون الازرق الداكن كان يمتد حتى شواطيء افريقيا . كان غالباً ما تهب ريح جنوبيـــة حارة . وفي الصباح كان البر يرسل رائحة كرائحة البطيخ الاحمر ، وعند الظهيرة يغطيه الزبـــد ويهدأ . وتبدو

تموجاته الخفيفة كانها صدور تعلو وتهبط. وفي المساء يتنفس الصمداء ويتحول لونه الى الوردي ، والنبيذ والباذنجان والازرق الداكن .

وبعد الظهر امضي وقتي بان املأ كفي بالرمل ذو اللون الجميل ومن ثم أدعه ينساب من بين اصابعي دافئاً وناعماً . ان اليدين هما ساعـــة رملية ــ تنساب حياتنا فيها وتضيع الى الأبد . تضيع وانا احـدق في الخضم ، واصغي لزوربا لأشعر بصدغيّ يكادان ينفجران من السعادة .

تذكرت كيف انه في ذات يوم، التفتت الي ابنة اخي إلكا، وهي في الرابعة من عمرها ، وكان عيد رأس السنة . وقالت لي تلك الملاحظة العجيبة .

ــ عمي اوغر ، اني مسرورة جداً لانه تنبت لي قرون .

لقد شدهت ، باللحياة من معجزة ، وكم الأرواح تتشابه عندما تتحد وتمتد اصولها الى الأعماق . لانني بسرعة تذكرت تمثـــال لبوذا مصنوع من الانبوس شاهدته في احد المتاحف البعيدة، ان بوذا قد حرر نفسه ليستحم في متعة عارمة بعد سبع سنين من العيش في الانبوس . وبدأت جانبيْ جبهته بالإنتفـــاح حتى خرج من تحت الجلد قرنان طويلان . قرنان معقوفان كانهـــما « رفاصان » من الفولاذ .

وقبل الغروب كف المطر عن الهطول. وبدت السماء صافية . كنت جائعاً . وشعرت بالسعادة لمثل هذا الجوع . لان زوربا الآن سوف يأتي ويشعل النـــار ويبدأ عادته اليومية والطبـخ .

غالباً عندما يبدأ زوربا الطبخ كان يقول ؟

ــ هذا شيئاً آخر لن يتركك لوحدك أبداً . ليست المرأة وحدهـــا ، عليها اللعنة ، فهذا شيء آخر . يوجد الطعام .

لأول فوق ذلك الشاطىء شعرت كم هو لذيذ الأكل. كان من عـــادة زوربا أن يأتي عند المساء ويضرم النار ويحضر الطعام لنبدأ الطعام والشراب. ويتشعب الحديث . لأول مرة أدرك بأن الطعـــام هو شيء روحي وان اللحم والخمر هم المواد الأولية التي يصنع منها العقل .

بعد يوم طويـــل من العمل الشاق كانت تعلو وجه زوربا علامـــات التعب والانهاك وقبل أن يبدأ الأكل والشراب أحس بأنه يجب أن أسحب الكلمة من بين شفتيه سحباً. وتبدو حركاته بطيئة ومكرهة ولكنه ما ان يبتدأ « بتشغيل

المحـــرك »ويزوده بالوقود حتى تبدأ جميـــع أعضاء جسده بالحركة وتعود له الحياة ، وتشع عيـــناه ، ويمتلىء عقله بالذكريات وتلتصق الأجنحة بقدميه ويبدأ بالرقص .

– قل لي ماذا تفعل بالطعام الذي تتنـــاوله ، أقل لك من أنت . البعض يحولونه إلى سمن وأوساخ ، والبعض للعمل والمرح . والآخرون ، كما قيـــل لي ، الى الله . إذن ، فهناك ثلاثة أنواع من الرجـــال . وأنا لست من أسوأهم ولا من أحسنهم ربما بين الاثنين.فالذي أتناوله أحوله إلى عمل وإحساس بالمتعة وهذا ليس سيئاً بالمرة .

ونظر إلي بخبث وراح يقهقه . ومن ثم تابع .

– أما بالنسبة لك أيها الرئيس ، فأنا أظن بأن كل ما تتناوله تحاول أن تحوّله إلى إله . ولكنك لا تستطيـــع أن تتدبر هذا . وهذا ما يضايقك . وتقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الغراب .

– ما الذي وقع به الغراب يا زوربا .

– أنت تعلم بأنه كان يسير بإحترام وبانتظام . تمامـــاً كالغراب . إلا إنه ذات يوم خطر بباله ان يتبختر كالحمام . فلم يستطع أن يتعـــلم المشية الجديدة ، بل نسي مشيته القديمة ولم يعد يعلم كيف يمشي وراح يعرج » .

* * *

سمعت وقع خطوات زوربا فرفعت رأسي . وبعد لحظات شاهدته يقترب مقطب الجبين بذراعيه الطويلتين المتأرجحتين . وبدون حيوية بالمرة ، قال :

– نعمت مساء .

– أهلاً زوربا . كيف كان العمل اليوم ؟

فلم يرد على سؤالي وقال .

– سوف أضرم النار وأحضر الطعام .

وتناول ربطة من الحطب من الزاوية وخرج . ووضع الحطب بين الحجرين بمهارة وأشعلها . ومن ثم وضع القدر فوق النار وصب داخلها بعض المـاء وبعض البصل والبندورة والرز وبدأ بالطبخ . وفي تلك الأثناء وضعت أنا غطاء الطاولة ورحت أقطع الخبز قطعاً كبيرة . ورحت أصب النبيذ من الوعاء الكبير في

الأقداح الحمر المزركشة بالرسوم والتي كان العم أناغنوستي قد أهداها لنـــا بمناسبة وصولنا .

ركع زوربا أمام الوعاء وراح يحدق في النار دون أن يحرك شفتيه وفجأة وجهت له هذا السؤال .

– هل عندك اولاد يا زوربا ؟ فنظر حوله واجاب .

– لماذا تسأل ؟ عندي إبنة .

– هل هي متزوجة ؟

وغرق زوربا بالضحك .

– لـماذا تضحك يا زوربا ؟ .

– ما هذا السؤال ؛ بالطبع هي متزوجة . فهي ليست غبية . كنت أعمل في منجم نحاس قرب برافيستا . وذات يوم استلمت رسالة من أخي « ياني » . أوه عفواً نسيت ان اخبرك بان لي اخاً حساساً يحب البقاء في البيت، عاقل ، مراب ويذهب للكنيسة دائماً . من اعمدة المجتمع الحقيقيين . وعنده دكان سمانة في سالونيكا . كتب اخي لي قائلا :

عزيزي الكسيس .

لقد اتبعت ابنتك فروسو الطريق الخطأ ، ولوثت اسمنا وعندها عشيق وقد انجبت طفلا منه سمعتنا قد تحطمت . وسوف اذهب الى القرية لأذبحهـا .

– ولكن ما الذي فعلته أنت يا زوربا .

هز زوربا كتفيه وقال :

– آه ، للنساء ، قلت هذا ، ومزقت الرسالة .

وحرّك الرز ووضع بعض الملح وتابـع :

– ولكن انتظر سترى الجهة المضحكة من هذه القصة . بعد شهرين أو ثلاثة استلمت منه رسالة ثانية تقول « أتمنى لك الصحة والسعادة أيها الأخ العزيز ان شرفنا بأمان . وبإمكانك ان ترفع رأسك عالياً الآن، لقد تزوج الرجل المذكور ابنتك فروسو .

والتفت زوربا نحوي وعلى ضوء سيجارته استطعت أن أرى عيناه اللامعتان وهزّ كتفيه ثانية . وقال بسخرية لاتوصف .

– آه ، يا للرجال .

وبعد قليل تابـع .

– ما الذي تنتظره من النساء . ان يحاولوا انجاب الأطفال من اول رجـل يصادفونه ، وما الذي تنتظره من الرجـــال ؟ ان يقعوا في الفخ . علّم على كلامي ايها الرئيس .

وتنـــاول القدر من فوق النار وبدأنا وجبتنا . وغرق زوربا في متـــاهة الأفـكار ثانية .

لا بد وان شيئاً ما كان يزعجه. ونظر إلي وفتح فمه كأنه يريد ان يتكلم ومن ثم اغلقه دون ان يقول اي كلمة . وتحت ضوء القنـديل استطعت ان اشاهد النظرة القلقة والفضولية في عينيه . لم استطع ان اتحمل رؤيتــه على هذه الحال .

– زوربا هناك شيء تود ان تقوله لي ، هيا اخبرني. وسوف تشعر بالراحة .

الا ان زوربا بقي صامتاً ، وتناول حجراً صغيراً ورماه بقوة إلى الخارج عبر النافذة .

– دع هذه الأحجار .. هيا تكلم .

مد زوربا عنقه وتكلم اخيراً بقلق محدقاً في عيني .

– هل تثق فيَّ ايها الرئيس .

– اجل يا زوربا مهما كان الذي تفعله ، فأنت لا تستطيـع ان تخطىء حتى ولو اردت ذلك ، فأنت ، لنقـــل ، كأسد او ذئب او كأي نوع من تلك الوحوش التي لا تتصرف كأنها نعجة او حماراً . وتتصرف بحكم طبيعتها . وانت « زوربا» حتى نهاية اصابعك ؟

هز زوربا رأسه وقال :

– ولكن ليس عندي أدنى فكرة إلى أين نسير .

– أنا عندي . لا تهتم لهذا بل تابع عملك كما تفعل الآن .

– كرر هذا ايها الرئيس فهذا يعطيني الشجاعة .

– تابع .. تابع .

ولمعت عينا زوربا من جديد وقال :

– الآن استطيع ان اقول لك ، كنت أحضر في رأسي خطة كبيرة خلال الأيام القليلة التي مرت ، خطة جهنمية ، هل اتابع ؟ .

– وهل تسألني ، ألم نأت هنا من أجل ان نحقق مثل هذه الأفكار .
حرّك زوربا عنقه ونظر إلي بفرح وخوف وقال :
– قل لي أيها الرئيس بصراحة . ألم تأتي إلى هنا من أجل الفحم ؟ .
– ان الفحم كان ذريعة فقط ، لنغلق الباب على السكان حتى لا تكثر تساؤلاتهم ، ولكي يظنوا بأننا متعهدون ، حتى لا يستقبلونا برشقنا بالبندورة ، هل تفهم هذا يا زوربا ؟

كان زوربا مشدوهاً محاولاً جهده أن يفهم . فقد كان صعباً عليه ان يفهم معنى هذه السعادة وبمثل لمح البصر كان مقتنعاً ، واندفع نحوي وأمسك كتفي ، وسألني بحماس :
– هل ترقص ... هل ترقص ..؟
– لا .. لا ..

كان كما لو انه لا يصدق أذنيه . مسبلاً ذراعيه برخاوة . وبعد لحظة قال :
– حسناً .. سأرقص أنا أيها الرئيس ... اجلس بعيداً عني حتى لا أصطدم بك .

وقفز قفزة كبيرة واندفع خارج الكوخ وخلع حذاءه ومعطفه ، وصدريته وثنى أكمامه وسرواله إلى أعلى وراح يرقص . كان وجهه لا يزال ملوثاً بالفحم وعيناه البيضاوان تلمعان .

واندفع كلياً ليرقص ملوحاً بيديه قافزاً ودائراً في الهواء ثم ساقطاً فوق ركبتيه . وقافزاً ثانية ثانياً ركبتيه . كان كما لو أنه مصنوعاً من المطاط . وفجأة قفز قفزة هائلة في الهواء ، كما لو انه كان يريد أن يتحدى قوانين الطبيعة ويطير عالياً، شعرت بأن المرء عندما يراه يحس أن في داخل ذلك الجسد العجوز توجد روح قوية تحاول أقصى جهدها لتطير به نحو الظلام . تلك الروح هزّت الجسد ومن ثم ألقت به ثانية نحو الأرض لأنه لم يقوَ على البقاء طويلاً معلقاً بالهواء . وهزّته ورفعته من جديد ، ولكنه هذه المرة أعلى قليلاً ، إلا انها وبدون رحمة أعادته ثانية إلى الأرض منهكاً ، بالكيد يستطيع أن يلتقط أنفاسه .

قطب زوربا حاجبيه . وبدت على وجهه علامات القوة . ولم يعد يرسل تلك الصرخات . وبأسنان مشدودة كان يحاول أن يصل إلى المستحيل .

وصرخت به .

– زوربا . زوربا هذا يكفي .

خشيت بأن جسده العجوز قد لا يحتمل مثل هذه القسوة ويتناثر آلاف القطع ولتنتشر شظاياه في أرجاء الدنيا الأربع .

ولكن ما فائدة صراخي ؟ كيف كان بإمكان زوربا أن يسمع صراخي الذي كان يطلق من الأرض ؟ فقد أصبحت أعضاءه كأعضاء الطيور .

بتعلق شديد كنت أتابع ذلك الرقص الوحشي اليائس ، في صغري كنت أترك لمخيلتي العنان وأخبر أصدقائي بأكاذيب ضخمة . كنت بعد وقت قليل أصدقها أنا أيضاً .

ذات يوم سألني أحد زملائي في المدرسة :

– كيف توفى جدك !

وبمثل لمح البصر ! إختلقت كذبة . وكل ما أختلق شيئاً كنت أؤمن به .

– كان لجدي لحية بيضاء . وكان قد اعتاد أن يرتدي أحذية من المطاط . وذات يوم قفز من على سطح بيتنا وما أن لامست قدماه الأرض حتى قفز ثانية كأنه كرة ،أعلى من المنزل ، وراح يعلو ويعلو ، حتى اختفى بين الغيوم. هكذا مات جدي .

وبعد اختلاقي لتلك الأكذوبة ، وكلما كنت أذهب إلى كنيسة سان ميناس وأشاهد عند نهاية الهيكل تمثال صعود المسيح أشير اليه وأقول لرفقائي :

– أنظروا . هذا هو جدي بحذائيه المصنوعين من المطاط .

والآن وفي هذا المساء بعدان مرت تلك السنون أشاهد زوربا قافزاً في الهواء شعرت بأني أعيش تلك الأكذوبة الصبيانية برعب شديد خوفاً من أن زوربا قد يختفي بين الغيوم وصرخت من جديد .

– زوربا .. زوربا ... هذا يكفي !

وأخيراً انبطح زوربا على الأرض لاهثاً . كان وجهه مشرقاً وتبدو عليه السعادة الفائقة . وبضع شعرات بيضاء التصقت بجبهته . وبضع نقط من العرق الممزوج بالفحم ,كانت تنساب فوق وجنتيه وذقنه ..

انحنيت فوقه بقلق . وبعد برهة قال .

– أشعر بأني أحسن ، أستطيع أن أتكلم الآن .

وعاد إلى الكوخ وجلس بجانب الموقد ونظر إلى ببهجة .

– ما الذي أصابك لترقص هكذا ؟

– ما الذي كنت أفعله أيها الرئيس ؟ سروري كان يهزّني ، وكان علي أن أجد مخرجاً .. وأي مخرج ؟ كلمات ؟.. لا ... بف

– أي سرور .

أظلم وجهه وارتجفت شفتيه .

– أي سرور ؟ حسناً ما الذي قلته لي منذ لحظة . أهكذا يطير الكلام في الهواء ؟ ألم تفهم ما قلته ، قلت بأننا لم نأت هنا من أجل الفحم . هذا ما قلته أليس كذلك؟ قلت بأننا قد جئنا إلى هنا لنمضي الوقت واستعملنا تلك الذريعة حتى لا يظنوا بأننا مجانين ويرمونا بالبندورة . وبأننا عندما نكون وحيدين لا يرانا أحد نستطيع أن نتمتع بوقتنا ونقهقه . اليس هذا صحيحا ؟ اقسم بأنني كنت أريد هذا أيضاً ولكن لم أكن أعلمه تماماً ، كنت أفكر تارة بالفحم وتارة أخرى ببوبولينا . ومرة بك أنت ، مزيج غريب . وعندما كنت أنقب في أحد الأنفاق قلت لنفسي : ما أريد هو الفحم . ومن رأسي إلى أخمص قدمي تحولت إلى فحم . ولكن بعد ان انهي العمل ، وأحلق مع تلك البقرة العجوز في السماء اقول .. ليذهب كل الفحم والرؤساء إلى الجحيم . كل هذا من اجل شريطة عنقها العاجي ، ولكن عندما اكون وحدي وليس لدي اي عمل اقوم به افكر بك ايها الرئيس ويذوب قلبي ويقع ثقل كبير فوق ضميري ويصرخ . هذا عار يا زوربا ... من العار عليك ان تحاول ان تخدع هذا الرجل الطيب وتلتهم جميع امواله . استبقى هكذا ؟ هذا يكفي .

اقول لك ايها الرئيس . لم اكن اعلم اين انا . كان الشيطان يشدني بعيداً والرحمن يشدني من ناحية اخرى . وكنت انا بين الاثنين . والآن ايها الرئيس باركك الله . لقد قلت شيئاً عظيماً . استطيع ان أرى كل شيء بوضوح الآن . لقد رأيت وفهمت واتفقنا ، لنتكلم في موضوع اهم . كم تبقى لديك من النقود ، احضرهم كلهم ، ولنصرفهم .

مسح زوربا جبينه ونظر حوله . كانت بقايا عشاءنا لا تزال على الطاولة

الصغيرة ، فمد يده الطويلة اليهم قائلاً :

– بعد اذنك ايها الرئيس . لقد جعت ثانية .

امسك بقطعة من الخبز وبصلة وبقبضة من الزيتون . وراح يأكل بنهم ورفع بجرة النبيذ دون ان يدعها تمس شفتية وراح يعب الخمر عبا . ومن ثم لمق بلسانه قائلا :

– اني اشعر بأن شيئاً قد ازيح عن صدري .

ونظر الي بطرف عينه قائلا :

– لماذا لا تضحك ايها الرئيس! لماذا تحدق فيّ هكذا! هذا انا،هناك شيطان في داخلي يصرخ . وانا افعل ما يأمرني به ، وكلما اشعر بأني مغموم يصرخ بي قائلا « ارقص .. ارقص » والبي طلبه وهذا ما يعيد الهدوء لنفسي . عندما توفي ابني الصغير ديميترا كي في شاليدس نهضت كما فعلت اليوم واندفعت لأرقص. عندما رآني اصدقائي واقربائي ارقص امام الجسد الجثى اندفعوا نحوي يريدون إيقافي . وراحوا يصرخون « لقد جن زوربا .. لقد جن زوربا » . لكن في الحقيقة لو لم افرج عن نفسي في الرقص لكنت جننت حقاً . لأنه كان ولدي الأول وقد بلغ الثالثة من عمره . اتسمع ما اقول ايها الرئيس ام انني اتكلم إلى مجرد جدار .

– انني اسمع .. اني اسمع .. كلا انك لا تتكلم إلى جدار .

– ومرة ثانية .. كنت يوما في روسيا.بالقرب من بلدة تدعى نوفوروسليك، نعم لقد ذهبت لهناك ايضاً ، من اجل مناجم النحاس ، كنت قد تعلمت خمس أو ست كلمات روسية كل ما يعوزني من اجل عملي : لا ، أجل ، خبز ، ماء ، اجل ، تعال ، كم ؟ وكنت قد عقدت صداقة مع احد الروس البلشفيين المتحمسين . وكنا كل مساء نتوجه إلى حانة المرفأ، وفي احد الأمسيات شربنا عدة كؤوس من الخمر والفودكا حتى ثملنا ، عندها انفكت عقدة لساننا ، هو يحاول ان يقص علي كل ما جرى له اثناء الثورة الروسية ، وانا اريد ان اخبره بكل الحوادث والحركات التي مررت بها ، لقد شربنا معاً واصبحنا اصدقاء كما ترى ، كإننا اخوان ، كان من الصعب على احدنا ان يفهم كلمات الآخر . واخيرا استطعنا ان نفهم بالحركات . بدأ هو الكلام اولاً ، وعندما اشعر بأني لم اعد افهم اصيح به « قف » فينهض عندئذ ليبدأ بالرقص .. اتدرك

هذا ايها الرئيس .. يقول كل شيء لي بالرقص ، وهذا ما فعلته انا ايضاً فكل شيء لم نستطع ان نقوله بلساننا وشفاهنا كنا نعبر عنه بأرجلنا وأيدينا وبجميع أعضاء جسدنا ، حتى بصيحاتنا الوحشية . هاي .. هـــاي . هو بلا ... هو هي .

وبدأ الروسي ، كيف حمل السلاح ، كيف انتشرت الحرب ، وكيـــف وصلوا إلى نوفوروسيسك ، وعنـــدما لا استطيع متابعته ، اصرخ « قف » فيتوقف الروسي فوراً عن الكلام . ويندفع راقصاً ... راقصاً كانه مجنون ، وأروح انا ارقب يديه ، قدميه ، صدره وعينيه ، وأفهم كل شيء .

كيف دخلوا المدينة وفتكوا بأعيانها . كيف سرقوا المحلات . ونهبـــوا المنازل وسبوا النساء وكيف أولاً بدأن ينتحبن . الفاجرات ويحاولن لطم وجوه الرجال إلا انهن شيئاً فشيئاً كانت تخف مقاومتهن . ويغمضن جفونهن ويبدأن بالأنين من المتعة واللذة، يا للنساء ... اولئك النساء .

وبعد ذلك جاء دوري .. وعندما بدأت بكلماتي الأولى . وربما لانـــه كان ثقيل السمع أو لان رأسه كان لا يعمل تماماً صرخ بي « قـــف » بالحقيقة كنت انتظرهذا بفارغ الصبر وقفزت ... اخليت المكان من الكراسي والطاولات... وبدأت الرقص ... آه يا صديقي المسكين . كل الرجـــال غرقوا وانخفضوا كثيراً . اخـــذهم الشيطان . لقد اصبحت اجسادهم خرساء وكانوا يتكلمون بأفواههم فقط... ولكن ما الذي تنتظره من الفم أن يقوله ؟ ما الذي يستطيع أن يعبر عنه ؟ لو كنت فقط تستطيـــع أن تشاهد ذلك الروسي الذي كان يصغي الي من رأسي إلى أخمص قـــدمي . وكيف كان يتابع كل حركـــة ، رقصت مصائبي ... رحلاتي ... وكم مرة تزوجت ... المهن التي تعلمتها ... بائـــع متجول ... حداد ... رجل عصابات ... وكيف ادخلت الى السجن وكيف هربت . وكيف وصلت إلى روسيا .

وبالرغم من صممه بدا بأنه كان يفهم كل شيء . قدماي ويداي تكلمتـــا . وكذلك شعري وثيابي وحتى خنجري المربوط إلى حذامي تكلم أيضاً . وعندما انتهيت ضمني الرجل المجنون إلى صدره بشدة . وملأنا الكؤوس ثانية . وبكينا وضحكنا كل منا بين ذراعي الآخر . وعند انبلاج الفجر . افترقنا عن بعضنا وجررنا كل منا إلى فراشه ، وعند المساء التقينا من جديد .

هل تضحك مني ؟ الا تصدقني ايها الرئيس ؟ لا بد وانك تقول لنفسك مهما كانت الاساطير التي يرويها هذا السندباد البحري فهي مسلية . هل من المعقول أن يتكلم أحد بواسطة الرقص ؟ أما أنا فاقسم بأنها الطريقة الوحيدة التي تتفاهم بواسطتها الآلهة والشياطين .

ولكني أرى بأنك نعسان . لانك نامماً كثيراً .. هيا اذهب لتنام ...وغداً سوف نتحدث عن هذا ثانية . عندي مشروع .. مشروع رائع. وسوف اكلمك عنه غداً، سوف ادخن سيجارة ثانية . وربما سوف استحم في البحر أيضاً . اشعر كما لو اني فوق النار ويجب ان اطفئها . تصبح على خير ».

مر وقت طويل دون ان استطيع ان انام . ان حياتي قد ضاعت ، رحت افكر ، لو استطيع ان اتناول قطعة من قماش وأمحي كل الذي تعلمته،وشاهدته وسمعته لاذهب إلى مدرسة زوربا لأبدأ بتعلم الالفباء الجديدة العظيمة . يا لهذه الطريق العجيبة التي ساتبعها . سوف احفظ حواسي الخمسة براقة . وكل جسدي أيضاً . وهـذا يجعلها تتمتع وتفهم . يجب ان اتعلم كيف اركض ، اصفر ، اسبح ، امتطي الخيول ، اجذف ، لاقود سيارة ولاطلق الرصاص . سوف املأ روحي باللحم ،واملأ لحمي بالروح . في الواقع . سأجمع في داخلي هذين النقيضين الابديين.

كنت جالساً فوق فراشي افكر بحياتي التي ضاعت هباءً . ومن خلال شق الباب استطعت ان ارى زوربا تحت ضوء النجوم جالساً على أحد الصخور كأنه طائراً ليلياً ، حسدته . انه هو وحده الذي استطاع ان يكتشف الحقيقة. انها الطريق الوحيد الذي يؤدي الى الحقيقة .

لو كان زوربا يعيش في عصر بدائي . لكان زعيم قبيلة . لكان قد بدأ منذ ذلك الحين بإكتشاف هذا الطريق بفأسه .

أو ربما سيكون شاعراً يزور الحصون والقصور . والكل كان يحفظ أشعاره السيدات والسادة حتى الخدم . أما في عصرنا الحاضر فزوربا يتنقل يعمل على ما يسد رمقه كأنه ذئب . أو ينحدر ليصبح موصياً أو مهرجاً لكاتب فاشل .

نهض زوربا فجأة ورمى ثيابه فوق الأرض وقفز إلى البحر . ولعدة لحظات وتحت ضوء القمر الضئيل استطعت أن أرى رأس زوربا يظهر ويختفي في الماء . وبين الفينة والفينة كان يرسل صرخات عالية . يسبح ، ويصهل أو يصيح

كالديكة . كأن روحه ، في تلك الليلة الفارغة قد وجـــدت نفسها تعود إلى حالتها الحيوانية .

بهدوء ، وبدون أن أعلم سقطت غارقاً في النوم ، وصباح اليوم التالي وعند أول ضوء للنهار رأيت زوربا مرتاحاً ومبتسماً آتياً ليشدني من قدمي قائلاً :

ــ هيا انهض ايها الرئيس . دعني اعترف لك بمشروعي . هل تصغي إلي ؟.

ــ اجل انني مصغي .

وجلس على الارض كأنه ديكاً رومياً وراح يشرح لي كيف سنقيم خطاً من أعلى الجبل إلى أسفل الشاطيء . وبهذه الطريقة نستطيـع أن نأتي بالأخشاب التي نحتاجها لأجل الانفاق . والباقي نبيعه ليستعمل في بناء المنازل ، كنا قـد قررنا أن نستأجر غابة صغيرة تخص الدير ، وكنا قد وجدنا بأن نقل الخشب من أعلى الجبل إلى الشاطيء كثير الكلفة ولم نكن نجد البغال الكافية لذلك . وهكـذا فقد فكر زوربا أن نبني خطاً بالحبال الضخمة مع بضع بكرات .

ــ هل توافق ؟ هل توقع ؟

ــ سأوقع يازوربا فأنا موافق .

أضرم النار في الموقد ووضع الركوة على النار وبــدأ بتحضير القهوة لي . ووضع غطاءً فوق قدمي حتى لا اصاب بالبرد وراح يكمل .

ــ سوف نفتح نفقاً جديداً اليوم . لقد وجدت عرقاً رائعاً . عرقـاً ماسياً اسوداً .

وفتحت أنا مخطوطــة بوذا . وأنا أيضاً بدأت العمل في انفاقي الخاصة . كتبت كل النهار . وكلما تقدمت كنت اشعر بأني أعود إلى حريــتي . كانت حواسي مختلطة . الفرح ، الكرامة واشمئزاز . ولكني تركت نفسي مستسلمـاً للكتابة . لاني علمت بأني ما آن انتهي من تلك المخطوطــة حتى أعود لأشعر بالحرية .

كنت جائعاً تناولت بعض حبات الزبيب والمشمش وقطعة من الخبز . كنت بانتظار عودة زوربا ومعه كل الاشياء التي تعيد المتعة إلى قلب الانسان. الابتسامة الصافية ، الكلمات اللطيفة والاطباق اللذيذه .

وأخيراً عند المساء ظهر ، وأعد الطعام . وأكلنـا إلا أن عقله كان في مكان آخر . ركع وتناول بضع قطع من الخشب وزرعها في الأرض ومـد خيطاً بينها

وراح يجرب ليستطيع أن يقدر الانحناء اللازم ، حتى لا يتهدم كل شيء ويتحول إلى حطام ، ومن ثم راح يشرح لي :

– إذا كان الانحناء مائلاً كثيراً ، سوف نضيع كل شيء ، يجب ان نجد لانحناء الدقيق ولذلك أيها الرئيس يجب أن يكون لدينا الكثير من العقل والخمر أيضاً .

– فقلت ضاحكاً .

لدينا الكثير من الخمر .. إلا أن العقل .

وانفجر زوربا ضاحكاً وقائلاً :

– انك بعض الاحيان تعلق على اشياء كثيرة أيها الرئيس .

وجلس محاولاً أن يرتاح قليلاً واشعل سيجارة وبدا بأن روحه المرحة قد قد عادت إليه وقد عاد لثرثرته .

– إذا نجح هذا الخط فسوف نأتي بكل الغابة إلى الشاطيء ، وعندها نستطيع أن نبني مصنعاً ، ونضع ألواحاً واعمدة ، سوف نجمع الكثير من المال . ونبني مركباً بثلاث اشرعة ونحزم امتعتنا ونرمي حجراً خلفنا ونبحر حول العالم .

لقد شبت أيها الرئيس وأسناني قد بدأت تتزحزح . أما أنت فما زلت شاباً . تستطيع ان تنتظر . لذلك فأنا اعترف بأني كلما كبرت كلما ازدت وحشية ، لا تترك أحد يقول لي بأن السن الكبيرة تستطيع أن تجعل الرجل مستقيماً ، ولا ذلك الذي عندما يرى الموت قادماً يمد يديه قائلاً « هيا دعني اموت لكي اذهب إلى السماء » . فكلما طال عمري كلما ازدت ثورة ، سوف لن استسلم أبداً .. اريد ان اغزو العالم .

ونهض وتناول السانتوري وقال .

– اقترب ايها الصديق ، بالله عليك ما الذي تفعله هناك معلقاً على الحائط هكذا ؟ دعنا نسمعك تغني .

لم اكن اشبع من النظر إلى زوربا ، بأي طريقة وأي نعومة وهدوء راح يخلع عن السانتوري لفته . بدا وكأنه ينزع قشرة رأس تين أو يخلع ثياب سيدة .

ووضع السانتوري على ركبتيه . وانحنى فوقه وبخفه لامس الأوتار . كما لو أنه كان يستشيرهم أي لحن يجب أن يغني ؟ كما لو انه كان يتضرع أليه لكي يستيقظ . كما لو انه كان يحاول خداعه ليستطيع أن يأخذ روحه من العزلة التي وقع بها . وجرب اغنية إلا انها لم تكن صحيحة ، فتركها وجرب ثانية ، فأنت الأوتار كألوانها حزينة ، كما انها كانت لا تود الغناء . اتكأ زوربا على الحائط ومسح جبينه الذي بدأ فجأة يتصبب عرقاً . وتمتم وهو ينظر إلى السانتوري بتعب قائلاً :

– انه لا يريد ... لا يريد .

وعاد ليعيد السانتوري إلى لفته ولكن هذه المرة بحذر الخائف الوجل كأنه يلف وحشاً كاسراً يخشى أن يلتهم اصابعه ، واعاده إلى مكانه على الجدران متمتماً مذهولاً :

– انه لا يريد .. لا يريد وإذا كان كذلك فيجب ان لا نزعله .

وجلس زوربا على الارض . وحرك جمر الموقد ووضع بينها بعض ثمار الكستناء وعاد ليملأ اقداح الخمر . وراح يشرب ويشرب ويتناول حبوب الكستناء من على النار ليلتهم دون حساب . وبعد مدة ليست بقصيرة نزع قشرة أحد حبوب الكستناء وقدمها لي قائلاً .

– اتدرك انت شيئاً ايها الرئيس ؟ أما انا فلا . فكل شيء له روحه الخاصة ، الخشب ، الحجر ، حتى الخمر الذي نعبّه ، والارض التي نسير فوقها .. نخب صحتك .

وجرع كأسه دفعة واحدة بينما غرقت في الضحك وتابع قائلاً .

– يا لهذه الدنيا من فاجرة .. انها مثل الام بوبولينا تماماً ... لا .. لا تسخر ايها الرئيس . هذا صحيح . الدنيا مثل الام بوبولينا تماماً ، عجوز هرمة ... ومع هذا فلا يزال فيها ما يشوق .. فعندها من الالاعيب ما يجعلك تجنّ .. وعندما تقفل عينيك تتخيل نفسك بين يدي شابة في العشرين . اقسم لك يا رفيقي .. فقط يجب أن تكون مستعداً . حيث تكون الانوار مطفأة .

قد تدعي وتقول بأنها نصف ميتة ، فهي قد عاشت حياة عاهرة ، فقد تفسقت مع قباطنة ، ونوتيه ، وعساكر ، ومزارعين ، وبائعين ، وكهنة ، وصيادين . وغيرهم .. وغيرهم ، .. ثم ماذا بعد هذا فهي تنسى بسرعة ، الفاجرة

لا يعود لذاكرتها أحداً من أحبابها . فهي تعود لطبيعتها دائماً ، طـير هادىء بريء . لا .. لا أنا لا أنكّت .. يا للمرأة من سر غريب مجهول . انها تسقط اكثر من الف مرة وبعد كل هذه المرات تعود عذراء من جديد .. لا تسأل لماذا؟ بكل بساطة لانها تنسى .

فتجلت لي النكتة فقلت محاولاً إثارة تحفظه .

— ولكن الببغاء لا ينسى يا زوربا ، فهو دائمـاً يصرخ باسم غريب وليس بإسمك . الا يغضبك هذا ، ففي اللحظة التي تصل معها لذروة السماء السابعـة ، وتسمع الببغاء هاتفاً « كانافارو .. كانافارو » . الا تتمنى أن تمسكه وتدق عنقه؟ لقد آن الاوان ان نجعله يصرخ « زوربا .. زوربا » .

فنجحت محاولتي وصاح زوربا محاولاً عدم سماع كلامي بسد اذنيه الطويلتين .

— آه .. لا .. آه .. يا لك من محافظ ! لماذا تريد ان ادق عنقه ؟ فأنا احب سماع صوته وهو يصرخ بهذا الأسم . فهي تعلقه الفـاجرة في الليل فوق فراشها وعندما يرانا بثاقب عينيه الحادتين ، ونكون نحن قد توصلنا لفترة التفاهم ، حتى يصيح النذل « كانافارو .. كانافارو » .. وبسرعة ، اقسم لك ايهـا الرئيس ، ولكن كيف يمكنك أن تدرك ما أقوله ، بعد ان افسدتك الكتب ، أجل .. اقسم لك ، عندما يصرخ ذلك الببغاء اللعين ، اشعر بأن حذاءين لماعين وضعت في قدمي ، وبريش الاميرالات فوق رأسي ، وبلحية كثة ناعمة تلتصق بذقني . صباح الخير . مساء الخير . اتحب المكرونة . نعم .. اتحوّل الى كانافارو على حق ، وأعتلي بارجتي المثقوبة الف ثقب .. النار في الأتون .. وتطلق المدافع .

وغمز زوربا بعينيه بخبث وعلت قهقهته واردف :

— اعذرني ايها الرئيس ، فأنا اشبه جدي ألكسيس ، رحمه الله ، فقد كان كل مساء يجلس أمام باب منزله ، وكان قد بلغ المائة من العمر ، ليتابع بنظره الخفيف الضئيل ، الشابات المتوجهات إلى العين . وما ان يراهم حتى يهتف .

— تقدمي .. تقدمي ، من انت ؟ لينيو ابنة مـاسترانـدوني ؟ إذن اقتربي اقتربي كي المسك ، لا تخشي شيئاً .

فتضغط الصبية على نفسها حتى لا تنفجر بالضحك وتقترب ، فيمد جـدي يده ليلمس وجهها بهدوء ونهم . وتنهمر الدموع من عينيه . فدفعني فضولي مرة لأسأله . « لماذا تبكي يا جدي ؟ » فتنهد قائلاً « ألا تظن معي بأن هناك ما يدعو

حتى العويل يا ولدي ، فأنا على شفير الهاوية تاركاً ورائي كل هـــذا العدد من الشابات الجميلات » .

وتنهد زوربا وتابع :

ـ آه .. يا لجدي المسكين . نعم .. فأنا ادرك الآن ما عنيته ، فأنا غالباً ما احـدث نفسي قائلاً : « يا للتعاسة لو ان كل النساء والفتيات الجميلات يهلكن في نفس اللحظه الـــتي اغيب فيها عن هذه الدنيا » لكن العاهرات ، سيعشن ويتمتعن ، ويعانقوهم الرجال ،ويلثمون شفاههن ، أما زوربا فيكون قد أوري الثرى ويطاء بالاحذية .

وتناول بضع حبات من الكستناء من النار ، وقرعنا قدحينا ، وجلسنا طويلاً على هـــذا المنوال ، نأكل ونشرب ، كأننا ارنبتين كبيرتين ، ونصغي لهدير البحر في الخارج .

- ٧ -

بقينا قرب الموقد حوالي الساعتين الى ان مضى وقت طويل من الليل وشعرت ثانية بالسرور في هذا الجو من الزهد : بضع أقداح من الخمر ، وبضع حبات من الكستناء ، ومدفأة قديمة ، وصوت البحر ، هذا كل شيء . ليشعر الانسان بكل هذه السعادة ، فيجب أن يكون عنده كنز القناعة وبلا شعور سألت زوربا :

– زوربا كم مرة تزوجت ؟

كنا قد انتشينا بعض الشيء ، ليس من كمية الخمر التي جرعناها ، بل بسبب السعادة العارمة التي كانت تعتمل داخلنا .. لم نكن إلا حشرتين طفيليتين زائلتين . وكنا نتشبث بقشور الأرض . وكنا نشعر بعمق ونشوة كل حسب نفسيته . فلقد وجدنا ركناً صغيراً على الشاطيء خلف القصب والالواح ، وبقايا الصفائح حيث كنا نجلس ملتصقين . وبقربنا مناظر رائعة .. وطعام . وفي داخلنا السكون والحب والسلام .

لابد وان زوربا لم يسمع سؤالي . بدا وكأنه قد غرق في خضم بعيد ، لايصله صوتي ، وكانت روحه تعوم هناك . فمددت يدي ولكزته بأصبعي وكررت سؤالي :

– زوربا .. زوربا كم مرة تزوجت ؟

لقد سمع هذه المرة ، وانتفض وهز يده قائلاً :

– أوه .. ما الذي تحاول الوصول إليه الآن ؟ فأنا رجل ، فأنا أيضاً قد وقعت في « الطامة الكبرى » هذا ما اسمي الزواج. فليغفر لي جميع المتزوجين. فقد وقعت إذن بالطامة الكبرى وتزوجت .

ومد يده ليحك رأسه بانفعال وقال :

– تسأل كم مرة ؟ شرفياً . مرة واحدة وبشرف قليل مرتين . وبلا شرف

بالمرة ، الفاً والفين وثلاثة آلاف مرة . كيف تحب أن يكون الحساب .

– تكلم .. تكلم يازوربا ففداً الأحد . سوف نحلق ذقوننا ، ونرتدي ثياباً نظيفة لنذهب عند الأم بوبولينا . ليس لدينا ما نفعله غير هذا غداً . إذن فباستطاعتنا أن نتأخر بالسهر .

– اكلمك عن ماذا ؟ فليس لدي شيء اكلمك عنه ، ! فالارتباطات المقدسة ، ليس لها أي طعم . كأنها طعام دون توابل ، أأكلمك واقول لك ، بأن اللثم والتقبيل ليست له أية لذة من خلال أيقونات القديسين ونظراتهم المحدقة ليمنحوك البركة . فهناك في قريتنا مثلاً يقول : اللحم لن يكون لذيذاً إلا إذا كان مسروقاً وأما زوجتك الحقيقية ، فهي ليست مسروقة . أما الارتباطات الغير شريفة كيف تريدني ان احصرها هل تحمل الديوك دفاتر للتسجيل ؟ اتتخيل ذلك . عندما كنت شاباً كنت آخذ بضع شعرات من كل فتاة اضاجعها . لذلك فقد كنت احمل دائماً مقصاً صغيراً لهذا السبب . وحتى عند ذهابي للكنيسة ، احتفظ دائماً بالمقص في جيبي . فنحن رجال . من يدري ما الذي سيحدث .. اليس كذلك ؟

اجل كنت آخذ بضع شعرات من كل فتاة ، حتى اصبح عندي خصلاً من جميع ألوان الشعر الاسود ، والاشقر والكستنائي ، وحتى في بعض الأحيان ، الابيض . ولكثرة الخصلات التي جمعتها فقد حشوت بها وسادة صغيرة وبعد زمن بسيط ، فاحت منها رائحة نتنة ، فأحرقتها .

وغرق بالضحك وعاد ليقول وقد غلبه ضحكه .

– كان ذاك دفتري الذي الذي اسجل عليه واحرقته ، بعد ان مللت منه . ظننت بانني لن اجمع كثيراً ، إلا انه تبين لي بعد ذلك بأن الأمر لا ينتهي إلا بعد موتي . عندها القيت بالمقص .

– والارتباطات النصف المقدسة ؟

فأجاب زوربا ساخراً :

– آه هذه كلها سحر ، يا للنساء السلافيات ، وآه من الحرية الفائقة ، فهم لا يسألن أبداً ، ولا تضطر لسؤالهن عن أي شيء ... حرية كاملة .

تعرفت على اثنين منهم الأولى تدعى ، « سوفنكا » والثانية « نوسا » . قابلت « سوفنكا » في قرية كبيرة قرب « نوفوروسيك » في فصل الشتاء ،

الثلوج الناعمة تتساقط . وكنت افتش عن وظيفة في أحد المناجم - وفي هـذه القرية توقفت . وكان يوم البيع . ومن كل القرى القريبة توافـد الرجال والنساء للشراء والبيع والتجارة . كانت مجاعة صعبة وقاسية ، وبرد شديـد . والناس كانوا يبيعون كل ما يملكون ، حتى ايقوناتهم ، ليحصلوا على الخبز .

كنت ، كما قلت ، اتنقل في هذه القرية بحثاً عن عمل ، عندما لمحت شابـة يافعة تقفز من عربة صغيرة ، شابة مرحة طويلة ، ولها عينين زرقاوين كزرقـة السماء ، ولها وركين كأوراك فرس مطهمة . فذهلت عندما وقع نظري عليهـا وتمتمت ، « زوربا يا لك من مسكين لقد هلكت » .

ورحت أسير خلفها واحدق فيها ، كيف اشبع نهمي . آه لو رأيت وركيها اللذان كانا يهتزان كأنهما اجراس الفصح . وحدثت نفسي لماذا اذهب لاعمـل في المناجم .. وافتش عن المناجم .. فلقد عثرت على منجمي .. الذي سأحفر نفقي فيه .

وتوقفت الصبية قرب أحد البائعين لتساوم واخيراً لتشتري كمية من الحطب ومدت يداها .. آه من تلك الذراعين . لتمسك أعواد الحطب وتضعها في العربة . وثم ابتاعت بعض الخبز والسمك المقدد . وسألت عن الحساب . ومدت يدهـا لتتناول فردة حلق من اذنها لتدفع ثمن ما اشترت .

لم تكن تملك مالاً بالمرة . عندها توقف دوران دمي . فكيف ادعها تدفـع بهذه الطريقة ؟ فتدفع حليها ، وعطورها . فلو دفعت كل هذا ، فالى أين يصير هذا العالم ؟ تماماً كأنك اقتلعت ريش الطاووس . ؟ كلا .. كلا .. فما دام زوربا على قيد الحياة فلن يحدث هذا ابداً . وتناولت كيس نقودي . الممتلىء بالروبلات الورقية ، كنت وقتها تدفع مئة روبلاً لتشتري بغلاً ، وعشرة روبـلات من أجـل امرأة .

ودفعت النقد بدلاً من حلق الفتاة . فالتفتت الفتـاة نحوي ، وانحنت على يدي لتقبلها ، ولكني سحبتها بسرعة ، مـاذا ، اتعتقد بأني عجوز ؟ وهتفت « سباسيبا . سباسيبا » عفواً . هـذه الكلمات معناها « شكراً .. شكراً » وقفزت إلى عربتها وتناولت السوط ورفعته . لتلسع الحيوان . إلا انني قلت في نفسي « زوربا أيها الكهل . ستختفي وتهرب منك ولن تراها أبداً » وقبل ان يسقط السوط على الحيوان المسكين كنت قـد اصبحت بقربها . لم تهتم لركوبي

بقربها ، بل حتى لم تلتفت إلي . وطار الحصان .

وفي طريقنا، أفهمتها بأني اريد ان اتخذها كزوجة ، وهمست بكلمات ثلاث كيفما اتفق . نصفها روسي ولم أعد أذكر ما كان نصفها الآخر . ولكنه في مثل هذه الحالات ، لا يحتاج الانسان للكلام ودار الحديث بيننا ،بالاعين ،والايدي، والركب . وبالإيجـاز ، وصلنا أخيراً إلى القرية . ونزلنا من العربة . ولطمت الباب بكتفها فانفتح ودخلنا . وحملت الحطب إلى الباحة قرب المنزل وحملنـا السمك داخل الغرفة . حيث كانت تجلس عجوز نحيله قرب المدفأة التي لم تكن تشتعل فيها النار . كانت العجوز ترتعش من شدة البرد . فاقتربت من المدفـأة وملأتهـا بالحطب وأضرمت النار . فرفعت العجوز رأسها وابتسمت . وهمست الفتاة باذن العجوز ببضع كلمات جعلت ابتسامتها تعرض وتتسع .. لكني لم افهم شيء ممـا قالته . وما ان احست العجوز بالدفء حتى عاودتهـا الحيويـة من جديـد .

خلال هذا الوقت كانت الفتاة قد حضرت المائدة وأتت بقليل من الفودكا . وتناولنا الطعام وشربنا الفودكا . وثم صنعت لنا الشاي . وقدمت منه للعجوز . وبخفة عجيبة غيرت أغطية السرير وأعدته للنوم . وأشعلت فوقه القنديل الذي كان قرب أيقونة السيدة العذراء . وصّلبت على صدرهـا ثلاث مرات . ثم أشارت إلي لاقترب من العجوز فركعنا أمامها ولثمنا يدهـا . ومن ثم وضعت العجوز يديها فوق رأسينا وتمتمت ببضع كلمات لم افهمها . ولكني علمت بأنها قد منحتنا البركة . فشكرتها بالروسية وبعد برهة كنا قد اندسينا بالفراش .

وساد السكون لحظة كان زوربا خلالها سارحاً في الافق البعيد . ثم اردف بايجـاز :

— كان اسمها « سوفنكا » .

ولكني كنت انتظر بفارغ الصبر أن يتابع قصته ، فسألته :

— تابع .. تابع ثم ماذا ؟

— ألا يوجد هناك سوى «ثم» «ولماذا» ؟فمثل هذه المواقف يجب أن لا نتكلم عنها ، فالمرأة كأنها نبع بارد عذب فما ان تنحني فوقها وترى وجههـا . حتى تنهل وتنهل ، حتى ترتوي ، وبعدك يأتي دور غيرك وقد اهلكه الظمأ فينحني بدوره وينهل ، حتى يشبع ، ثم شخص ثالث وهكذا ... نعم فالمرأة ليست

إلا نبع لا ينضب .

– تابع . وبعد ذلك ما الذي فعلته .

– ما الذي تريدني ان افعله ؟ كما قلت لك فالمرأة نبع لا ينضب ، وأنا كنت غريب ، فرجعت إلى الطريق ، بعد ان لبثت معهـا حوالي ثلاثة شهور حيث عادت لذاكرتي فكرة البحث عن منجم . فقلت لها « سوفنكا لدي عمل يجب أن أقوم به ، لذلك يجب ان اذهب » . فأجابت « حسناً سأبقى بانتظـارك شهراً كاملاً . إلا انـك إذا لم ترجع سأكون في حل من أمري واصبح حرة ، وانت بدورك وتركتها وذهبت .

– وبالطبع رجعت بعد شهر !!.

إلا ان زوربا نظر إلي مستنكراً :

– اظنك ابله أيها الرئيس، عفواً هل يتركنك هادئاً هؤلاء النساء الفاجرات، فبعد عشرة أيام في « كوبان » ، تعرفت إلى نوسا ...

– هيا .. تابع .. تابع .

– هذه المرة أيضاً يجب ان لا نمزج بينهما ، التعيسات ، نخب سوفنكا .

وقرع قدحه وجرعه دفعة واحدة وأسند ظهره إلى الجدران وتابع :

– حسناً سأروي لك قصة نوسا أيضاً فرأسي منتفخ هذه الليلة بكل شيء عن روسيا لذلك فسأقول لك كل شيء .

ومد يده إلى شاربه ومسحه قائلاً :

– هذه الثانية تعرفت بها ، كما قلت لك في إحدى قرى « كوبان » كان وقتها قـد بدأ فصل الصيف ، فشاهدت تلال من البطيخ الأحمر والاصفر ، فأخذت واحدة وقسمتها قسمين ورحت التهمها دون أن يقول أي شخص كلمة واحدة ، فكل شيء في روسيا كثير أيها الرئيس ، ليس فقط البطيخ ، كل شيء السمك ، والزبدة حتى النساء . قد تشاهد بطريقك بطيخة فتتناولها ، وقـد تشاهد فتاة فتتناولها أيضاً . ليس مثل اليونان ، حيث لا تحاول أن تأخـذ من أحدهم مجرد قشرة بطيخ حتى يقيم عليك الدعاوي ويسحبك للسجن . وما أن تمس فتاة حتى يبادر اخوها ليتناول سكيناً ليقطع لحمـك كما يقطع الكفتة .. يا لهم من بخـلاء ... لا يعرفون للكرم طريق ... لماذا لا يذهبون إلى روسيا ليشاهدوا كيف يكون السادة الكرام .

كنت ماراً في أحد الحقول ، حيث شاهدت فتاة . فاعجبتني ، يجب ان تعرف ايها الرئيس ، ان السلافيات هن كالنساء اليونانيات النحيــلات اللواتي تشتري منهن الحب ، فيدفعن لك بالنقطة ويحاولن أن يقدمن لك أقل مما يجب ويهضمنك حقوقك . أما السلافيات فيقدمن كل شيء ويعطين كل مـا عندهن . في كل شيء النوم ، الطعـــام والحب . فهن أشبه بالأرض والحيوانات . تعطي وتعطي كثيراً ودون مقابل . انهن لسن كاليونانيات اللواتي يساومنك طويــلاً ويمنحن أقل ما يمكن .

فاقتربت منها وسألتها عن اسمها . كنت قد تعلمت بعض الكلمات الروسية مع النساء . فأجابت « نوسا وانت » . اجبتها « الكسيس » وقلت لهــا بأنها قـــد اعجبتني كثيراً . فنظرت إلي بامعان كأنها تتفحص جواداً تنوي شراءه وقالت « انت كذلك لا يبدو عليك بأنــك ضعيف ، فأسنانك متينة وشارباك كبيران ، وكتفيك عريضين ، ويداك قويتان ، فأنت تعجبني أيضاً » ولم تزيـد أي كلمة فلم تكن بحاجة لذلك وفي برهة وجيزة اتفقنا . وكان علي ان اذهب إلى بيتها مرتدياً ثياب الأحد. وفي أحد الأيام سألتني « اعندك قطعة فرو » فأجبتها متعجباً « في هـــذا الحر ؟ » فردت بتصميم ، « لا يهم احضرهـــا فيجب أن تبدو ثرياً » .

وعند المساء ، وضعت علي أجمل ثيابي كأنني عريس جديد ، وحملت الفروة وتناولت عصاً فضية كانت عندي وتوجهنا نحو بيتها . كان منزلهـــا عبارة عن غرف فردية كبيرة . منها للابقار وللمعاصر والنار تشتعل وسطه . وحلل كبيرة فوق النار ، واحدة يغلي فيها عصير البطيخ الأحمر والثانيــة يغلي فيهـــا عصير البطيخ الاصفر . اتسمع أيها الرئيس .. نوعين من عصير البطيخ ... أجل أنهـا الأرض المنتظرة .. نخب صحتك .. أما نحن فقد وجــدنا أنفسنا كجرذان قرب قطعة من الجبن .

وصعدت درجات السلم الخشبي القديم ، حيث كان والدا نوسا يقفان مرتدين اثواباً خضراء ، وحمراء ، وحذاء ويعتمران قبعات واسعة . ومـــا ان وصلت امامها حتى فتحا ذراعيها وضماني إلى صدرهما وهات يا تقبيل من هنا وهنـاك حتى امتلأ وجهي لعاباً . وبدأ حديثهما بسرعة لم استطع أن الحق بما يقولان ولكني أدركت من حركاتها بانهما لا يريدان أذيتي .

ودخلت الصالة الواسعة حيث كانت الموائد تملأها . وتملأ الموائد جميع أنواع الطعام والشراب . وحول الموائد وقف النساء والرجال والاطفـــال ووسطهم جلست « نوسا » بأجمل حلة ، متزينة . وقد طرزت فوق قلبهـا مباشرة منجل ومطرقة وقد عقدت خضائر شعرها بمنديل أحمر . وما ان وقع نظري عليهـا حتى سال لعابي عليهـا وتمتمت محدثاً نفسي .. زوربا .. يا لـك من محظوظ . اكل هذا الجمال ... واللحم لك وحدك ... ما أجمـل الجسد الذي ستفرق في طياته هذه الليلة .

وارتمى الجميع ليلتهموا الاطعمـة الشهية ، فأكلنا كالوحوش وشربنـا دون ارتواء . فاقتربت من والد نوسا الذي كاد ينفجر من كثرة ما التهم من طعام ، أين الكاهن .. الكاهن الذي سيمنحنا بركته؟ « فأجاب والزبد يتناثر من بين شفتيه » لا يوجـد أي كاهن .. فالدين مخدر الشعب . وبعد برهة نهض ممتلئاً كبرياء ، وأشار بيده ليسكت الحاضرون . وكان ممسكاً بيده الاخرى قدحـاً طافحـاً بالخمر . وثم بدأ خطابه .. خطاب لم افهم كلمة واحدة منه . والله اعلم ما الذي قـاله . وتعبت وكانت الخمرة قـد بدأت تلعب برأسي . والصقت ساقي بساق « نوسا » .

وتابع الوالد خطابه حتى بدأ العرق يتصبب من جبينه وعنقـه .. وراح يتكلم ويتكلم .. دون أن ينتهي .. وأخيراً أمسكوه غصباً عنه . عندهـا لكزتني « نوسا » وقالت « لقد جاء دورك .. هيا تكلم » .

فوقفت وتكلمت ، بلغة ولهجة ، نصفها روسي والنصف الآخر يوناني ، أما ما قلته ، ليخنقني الله لو أعلم ! فكل ما اتذكره انني عندما انتهيت. رحت اغني اغنية « كليفتية » ورحت انهق بلا شعور :

« تسلق الكليفتيون إلى قمة الجبل . ليسرقوا الخيل ، ولكن لم يجـدوا أياً منها، فخطفوا نوساً». كما ترى أيها الصديق لقد حوّرت فيها هذا المقطع من أجل ذلك الوقت، وتابعت انشودتي«واسرعوا، واسرعوا.. آه يا نوسا. آه يا نوسا..» وعند آخر صرخة آه « انحنيت على نوسا » وقبلتها . وما ان فعلت ذلك حتى اسرع بعض الشبان من ذوي اللحى الصفراء واطفؤوا المصابيح المنيرة .

وعلا صوت النساء العاهرات ، كن يتظاهرن بالخوف . ثم تتابعت صرخاتهم وأنينهم ... وكان هذا يجعلني اشعر بالمرح والسرور .

أما الذي حدث تلك الليلة. فلا اذكر منه شيئاً أبداً .. ولا يعرفه إلا الله.. وأظن بأنه هو لا يعرف أيضاً . وإلا لكان ارسل صاعقة لتمزقنا .. وامتلأت الأرض بالرجـــال والنساء .. دون أن يعلم أحد من يعاشر . فرحت افتش عن نوسا دون جدوى فالتقيت باحداهن فخشيت ان يضيع الوقت . فعملت لهـا ما كان يجب ان اعمله لنوسا .

وعنـد بزوغ الفجر ، استيقظت وكان الجو لا يزال داكناً فرحت ابحث عن زوجتي لاصحبها إلى البيت ، ولكني لم أكن لأرى جيداً ، فأمسكت بأول قدم رأيتها . ولكنها لم تكن هي .. وقدم ثانية وثالثة ورابعة .. إلى أن وجدتها بين ثلاثة أو أربعة من الشياطين الذين كادوا يحطمون ضلوعها . فأيقظتها إلا أنهـــا قالت قبل ان نغادر « لا تنس أن تأخذ الفروة ... وذهبنا » .

وعدت لأسأل زوربا من جديد .

ـ تابـع .. تابـع . ثم ماذا .؟

فهتف زوربا بانفعال .

ـ لقد عدنا ثانية لنسأل . « ثم » و « ماذا » و .. آه .. بقيت معهـــا ستة اشهر تقريباً . ومن ذلك اليوم .. لم أعد أخاف شيئاً البتة اللهم إلا شيئاً واحداً، هو أن يمحو الله أو الشيطـان من مخيلتي تلك الاشهر الستة السعيدة . أتـــدرك ما أقـوله ؟

واقفل زوربا عينيه ، كان يبدو متأثراً جداً ، حالماً بالماضي السعيد ، فهذه المرة الأولى التي أراه فيها تؤثر بها ذكريات يرويها . فعدت لألح عليه .

ـ إذن فقد وقعت بغرام نوسا اليس كذلك ؟

وفتح زوربا عينيه وقال :

ـ انك لا زلت شاباً يافعاً أيها الصديق ، فلا تستطيـع ادراك ما اشعر بـه الآن . ولكن عندما يبيض شعرك ستفهم . على كل سنعود للكلام عن هـذه القصة الخالدة .

ـ قصة خالدة ..؟ أية قصة .

ـ أيجب أن اكرر ما اقوله لك الف مرة . انها المرأة أيهـــا الرئيس ، ان المرأة قصة خالدة . أما انت الآن فانك كالديك الفتي الذي يهجم على الدجاجات ثلاث مرات . ثم يرتفع فوق قنانة الزبالة ليأخـــذ بالصياح بكبرياء . نافخـاً

صدره . والديك لا ينظر إلى الدجاجة بقدر ما ينظر إلى عرفها . وإذا كان كذلك فما الذي ستدركه عن الحب .

ولاك لعابـــة في فمه ثم بصقه بازدرداء وأدار رأسه بعيداً عني حتى لا يرى وجهي . وعدت لأسأله مصمماً على ان اعرف النهاية .

– تكلم ثم ماذا يا زوربا ؟

لم يعترض زوربا هـذه المرة على سؤالي بل أجاب دون وعي سارحـــاً في اعماق البحر .

– وفي إحدى الليالي عدت إلى المنزل فلم اجدها وعلمت انها هربت مـــع جندي شاب جميـل ، وانتهى كل شيء . لقد انشطر قلبي إلى شطرين . ولكنه سرعان ما التحم من جديد ، يا له من خبيث . هل شاهدت قطع القماش البيضاء والصفراء والحمراء الـــتي تصنع منها الاشرعة وتهب عليها العواصف والصواعق دون ان تؤثر بها . نعم هكذا قلبي مثلها . فيه الآن الثقوب وآلاف الرقـــع ، لذلك فأنا لا أخشى شيئاً البته .

– ألم تكره نوسا وتحقد عليها ؟

– لماذا اكرهها واحقد عليها ؟ لك ان تقول ما تريد ، ولكن الفتيات شيء آخر ، فهي ليست بإنسانة ، إذن ، لماذا احقد عليها ، فالمرأة ، بشكل عام ، لا يستطيع أن يدرك سرها أحد ، وجميع القوانين المشرعة لا تنظر لهـذا بعين الاعتبار . فهي تظلم المرأة وتستثنيها من القوانين القاسية ، فلو قدر لي ان اقرر القوانين . لكنت قررت عشرات ومئات منها للرجـــال . لأنه يملك القدرة لتحملها .. أما النساء فهم مخلوقات ضعيفة ، كم مرة يجب أن اكرر هذا . نخب نوسا . وليسلط الله على رؤوسنا الرصاص ليهلكنا نحن الرجال .

وعبّ قدحه دفعه واحدة رافعاً يده وما لبث ان ترك يــــده تسقط دون تحفظ . وقال :

– ليسلط الله على رؤوسنا الرصاص ، أو ليهيء لنا عملية !! ولكن على كل حال سوف نموت ولا شك

- ٨ -

بدأت السماء الامتزاج بالأرض بواسطة المطر المنهمر ببطء ودون انقطاع . عند رؤية هذا المطر اللاامنقطع ، عادت لذاكرتي نقشاً من الحجـارة السوداء الداكنة يمثل رجلاً يضع ذراعيه حول عنق امرأة وملتصق بهـا التصاقاً تامـاً . ويبدو على تقاطيعهما بأنهما في ذروة الاستسلام واللذة . حتى انك لتشعر ، بعد أن مدت يـد الزمن على الجسدين واذاب قسماً منهما . يخيل اليك بأنـك تشاهد حشرتين ملتصقتين بشدة والمطر الذي لا يرحم ينهمر فوقهما . والأرض من حولهم تنتشي بنقط المطر العذبة .

كنت جالساً داخل الكوخ ، سارحاً في الغيوم الـتي كانت تتلبد في السماء ، ومن ثم اعود لاسرح بالبحر الممتد أمامي إلى الافق . دون أن يظهر فيـه أي شكل ، لأنسان أو لشراع أو لمركب ولا حتى لطـير . بل لم اكن اشعر إلا برائحة الأرض العطنة تتسرب من النافذة .

نهضت ومددت يدي لأمسك حبات المطر كأني فقـير يستمطي ، ولم اشعر إلا والدموع قد ملأت عيناي . لم أدرِ لماذا . ولكن حزناً عميقاً تملكني . ليس من أجـل نفسي ، بل أعمق . حزن يتصاعد من الأرض الرطبة . حزن كأنه الرعب الفظيع الدي يسيطر على الحيوان الذي يتجول محاولاً اصطياد طعامه . ثم يشعر ، ودون سابق إنذار بأنه قد حوصر ولا يستطيع الافلات .

كادت تفلت من شفتي صرخة مدوية ظناً مني بأن هذا سيهدىء من روعي قليلاً إلا اني خجلت . كانت الغيوم والسحاب تتكاثر فبدت السماء وكأنها تقترب من الأرض بهدوء .

كم هي لذيذة ، تلك الساعات ، الهادئة التي لا يتخللها إلا رذاذ المطر الناعم . فهي تعيد للخيال ذكرى الوقائع المؤلمة المختفية تحت طيات القلب ، افـتراق الاحباء ، وابتسامات الفتيات الباهته ، وآمال كأنهـا الفراشات التي فقدت

اجنحتها فلم يبق منها غير جسدها الذي يبدو كأنه حشرة مؤذية . ووقفت هده الحشرة فوق أوراق قلبي وراحت تلتهمها .

وبهدوء وبلا أي مقدمات عادت لذاكرتي ، صورة صديقي الذي سافر إلى القوقاز ، وتناولت قلمي وانكببت على اوراقي محاولاً التكلم إليه عبرها ولأزيح عن نفسي كابوس المطر المظلم :

« أيها الصديق الحبيب ، أخط رسالتي هذه من شاطيء بعيد منزو من شواطيء جزيرة كريت ، حيث عقدت اتفاقاً مع الدهر لأمثل خلال ستة شهور دور الرأسمالي الثري الذي يملك منجماً للينيت . ابدو الآن كرجل أعمال ، وإذا نجحت بتمثيل دوري عندها سأصرح لك بأن هذا العالم لم يكن دوراً تمثيلياً،بل لأحوّل مجرى حياتي .

لاشك وانك لم تنسَ بأنك ناديتني ، يوم سفرك « بالجرذ قارض الورق » فثارت ثائرتي وقررت يومها ان اترك القلم والدواة لحين أولاً ، أو للأبد . لأرمي بنفسي في غياهب العمل .. فأجرّت منجماً من اللينيت ، وتعاقدت مع عمال. واشتريت رفوشاً ومعاول وقناديل ، وقفف وعربات وكل ما احتاجه في عملي . وبدأت بحفر الانفاق لادفن نفسي فيها . هكذا لاثيرك ، واصبحت بعد هذا العمل خلداً وليس « جرذاً قارضاً للورق » . آمل ان تسرّ لهذا التحوّل . ان سعادتى هنا لا تحد وفي غاية البساطة ، سعادة صنعت من مواد أبدية . نسيم عليل ، وشمس دافئة . وبحر وخبز وطعام . وكل ليلة يحدثني السندباد البحري الرائع . الذي كلما تكلم اتسع العالم ، وفي بعض الأحيان وعندما لا يجد كلمة تفي بالوصف كاملا يقفز ليعبر عنها برقصة المجنون الوحشي . وان لم يكف هذا أيضاً يتناول السانتوري ليبدأ العزف القاسي الحنون .

«فعندما يكون عزفه همجياً وحشياً تحس وكأنه لم يعد هناك هواءً لتنشقه، لانك ستشعر عند ذلك بأن الحياة تافهة لا تستحق أي عناء . وعندما يعزف لحناً حزيناً هادئاً تشعر بأن الحياة تتسلل وكأنها تمر بين أصابعك . وبأن السلام والأمان لا وجود لهما .

« عندها أشعر بأن قلبي كأنه آلة حياكة يغوص من بداية إلى نهاية جسدي، وكأن صاحبي هذا يحيك الاشهر التي سأقضيها على الجزيرة . واعتقد ، وليغفر لي الله ، بأني سعيد » .

« يقول الفيلسوف الصيني كونفوشيوس « غالباً ما يبحث الانسان عن السعادة في مكان أعلى منه ، وآخرون يبحثون عنه في مكان تحتهم ، ولكن السعادة تكون دائماً بحجمهم » وإذا كان هذا صحيحاً ، فلكل انسان سعادته التي تساويه . هذه هي يا استاذي وتلميذي ، سعادتي التي اعيشها اليوم . واني احاول قياسها لأعلم مدى طولي . لأن طول الانسان ، كما تعلم ، ليس واحداً ، وغالباً ما يتغير .

« يبدو الناس لي وأنا أنظر إليهم من خلوتي لا كالنمل بل على العكس ، كوحوش ضارية ، من نوع الحيوانات المنقرضة الضخمة الطائرة التي تحجرت بفعل الزمن ، تحيا في جو عابق بأوكسيد الفحم وبنذالة الدوافع اللاإنسانية ، غاية غامضة . إن مقاييس « الوطنية » واللون التي تتمسك بها ، واعتبارات « الوطن الأم » و « الانسانية » التي دفعتني نحوها ، تتميز بطابع التدمير الخارق . إننا نشعر بأننا ارتفعنا ثانية لنلفظ بضع جمل وفي بعض الأحيان ليست بجمل على الاطلاق بل مجرد همسات وتمتمات لا تكاد تلفظ ك .. أ . و . أو . ومن ثم ترتطم لتتلاش . وأرفع المبادىء ، لو شقت أمعاؤها لظهرت لنا على حقيقتها ، دمى محشوة ببقايا الخشب حيث نجد بين طباتها آلة نابضة من الصفيح .

« لا شك أنك تعلم علم اليقين أن هذه التخيلات العنيفة ، غير قادرة على إرغامي على الاستسلام ، بل على العكس ، عيدان ثقاب ضرورية لمدّي بها بما أحتاجه من دفىء داخلي . لانني وكما قال استاذي العظيم « بوذا » قد « شاهدت » . وبما أنني شاهدت ، ووصلت إلى اتفاق برمشة عين مع المخرج المسرحي « الخيالي » فأنني اقدر منذ الآن ، مليء بالمرح ، والهدوء ، تمتلكني رغبة عارمة لأن اقوم بما أريد من الأشياء التافهة ، أن أتقن تمثيل دوري على مسرح الحياة إلى التهام ، بانسجام طبيعي برغبة لا تقهر ، وذلك لأنني « شاهدت » فقد شاركت أيضاً في الرواية التي نمثلها على مسرح الالهة .

« ولهذا أتخيلك وأنا أجول بنظري في زوايا مسرح الحياة ، هناك في قمر الخيالية ، تقوم أنت أيضاً بتمثيل دورك ، جاهداً لإنقاذ الآف البشر الذين يواجهون خطر الفناء . لا شك أنك سرومينيوس آخر ، ولكنك تختلف عنه بأنه لا يتحمل العذاب على حقيقته ، وهو يجاهد ضد كل قوى الشر : الجوع ،

والبرد ، والمرض ، والموت ، ولكنك تبتهج أحياناً لما يتملكك من كبرياء ، لأن قوى الشر متعددة وغير متطورة ، ولهذا يكون جهادك بدون أمل في الانتصار أعمق بطولة ، وتبلغ نفسك عظمة أروع .

« إنك تعتبر ولا شك ، ان الحياة التي تعيشها هي منتهى السعادة ، وبما أنك تعتبرها هكذا فهي لك كما أردت ، لقد صنعت سعادتك لنفسك ، ليتبارك الله في عليائه ، إن سعادتك هي أكبر من سعادتي ، والاستاذ المثالي لا يرغب بأكثر من ان يربي تلميذاً يتقدم عليه .

« أما أنا فغالباً ما يغيب عن خاطري ، وألوم واضيع ، وما إيماني إلا نقوش متعددة من الكفر والالحاد الأبدي . وقد أرغب في بعض الأحيان ان اقوم بعملية استبدال بسيطة : ان آخذ لحظة صغيرة وامنح حياة كاملة بدلاً عنها . لكنك انت تتعلق بالدقة لتقودها بدقة ، دون ان يغيب عن فكرك ولو لبرهة وجهتك العقيقية ، حتى في أجمل اللحظات المهلكة .

« لا بد وانك لم تنس يوم كنا في إيطاليا ، عائدان إلى اليونان ، فقد كانت رغبتنا ان نزور مقاطعة « بونت » التي كانت تجتاحها الاخطار آنذاك . إلا زلت تذكر ذلك ؟ حين توقفنا في مدينة صغيرة . تركنا القطار بعجلة . فلم يكن معنا أكثر من ساعة واحد لوصول القطار الثاني . غزونا بستان صغير قرب المحطة . بستان تكتنفه الاشجار الضخمة واشجار الموز ذات الاوراق العريضة . حيث كانت النملات الشقراء تقف على جذع زهرة مهتز تحت وقع مصها لرحيق شفتيه .

« واقتربنا بسكون ، وقد أملكتنا نشوة هادئة وكأننا في خيال بعيد . وسمعنا فجأة من بين الأغصان المتحركه . وقع أقدام شابتان رائعتا الجمال . كانتا تتصفحان كتابين لا اذكر ملامحها تماماً بل كل ما اذكره ان واحدة منهن كانت بيضاء والثانية سمراء وكانتا تتزينان بثوبين ربيعيين . وبشجاعة وجرأة الانسان الواقع تحت تأثير الحلم . تقدمنا منها وبدأت الكلام مبتسماً « مهما كان نوع الكتاب الذي تطالعونه فسوف نتحدث حوله قليلاً » فقد كانتا تقرآن كتاباً لفوركي . وأذكر تماماً باننا تحدثنا يومها عن ، الحياة ، التعاسة ، الحب ، وهيجان النفس . لن استطيع أن انسى أبداً مرحنا وبؤسنا ، كنا قد وصلنا تلك الفتاتان ونحن، نحو جسر الصداقة الحميمة بسرعة لا شعورية . صداقة

أزلية ، وحب أبدي ، شعرنا واننا اصبحنا مسؤولين عن جسديها وروحيها . كنا على عجلة من امرنا ففي بضع دقائــق سنضطر للرحيل ، عنــدها ، فاحت بالجو رائحة الشهوة والفناء .

« وأخيراً جاء القطار وعلا صوت صفارته ، وتنبهنا ، كأننا نهضنا من ثبات عميق . وبسرعة عجيبة التقت اصابعنا بأنامل الفتاتان ، كنا نشعر باننا لا نريد الافتراق ولكن صفارة القطار الثانية انتزعتنا من بين يدي الفتاتان ، و كأن روحنا انتزعت منا كانت الفتاتان في حالة غريبة الأولى شاحبة حزينه ، والثانية سعيدة مبتسمة مرحة ، واذكر انني قلت لك عن الفراق « هــذا هو الواقع ، وأما اليونان والوطن والوطنية ، فهي مجرد كلمات دون معنى » عندها جـــاء ردك السريع « اليونان والوطن والوطنية ، لا تعني شيئاً بالتأكيد . إنما من أجل هذا الشيء التافه « سنتوجه بكل سرور لنقضي » .

لا أدرى سبب كتابتي لك عن هــذا ؟ ربما لاجعلك تشعر بانني لم أنسى أي لحظة من اللحظات التي قضيناها سوياً ، ولا منح لنفسي الفرصة لكي اقول لــك ما لا كنت اسمح لنفسي ان اقوله عندما كنا سوياً . فهذه المــادة الطيبة أو الردئية التي كنا نقيد بها أنفسنا ، كانت تشدنا لنتمالك شعورنا .

والآن وبما انك غائباً عن ناظري ، وأنت غير قادر على رؤية تقاطيع وجهي اقولها لك بصراحة ... اني احبك جداً » .

وبعد ان تحدثت مع صديقي عبر هذه الأوراق ، انهيت رسالتي ، بعــد ان عاد الهــدوء لنفسي . ناديت زوربا الذي كان جالساً القرفصـــاء على صخرة ، محاولاً إجراء بعض التجارب على مصمده . وصحت قائلاً :

– إنهض يا زوربا ولنتمشى في القرية .

– ولكنها تمطر ايها الرئيس ، إذا كنت تشعر ان مزاجك مناسب ، لمــاذا لا تتنزه لوحدك !

– أجل ، وأريد ان ارافقك . وبهذا لا أجازف بفقدان مزاجي الطيب .

فقهقه قائلاً :

– كم انا مسرور لانك تحتاجني دائماً ، هيا لنسير .

ووضع عليه رداءه المصنوع من الصوف الذي كنت قد قدمته له كهديــة ، ورحنا نغوص في الوحول .

كان رذاذ المطر يتساقط حولنا ، والسحاب يخفي وراءه قمم الجبـــال ، وأغرب من ذلك لم يكن يوجد ثمة نسمة واحدة . وكان الضباب الداكـن يخفي وجه جبل الفحم الصغير ، هكذا بدا هذا الجبل حزيناً كئيباً وكأنه قد وقـع مغشياً عليه . لاحظ زوربا تحديقي بهذا الجبل فنظر إلى قائلاً :

– ان فؤاد الانسان يعتصر الماً ويغتم عندما يبـدأ المطر بالتساقط . ويجب ان لا نلومه على ذلك .

واقترب من السياج واحنى هامته وقطف أول زهرة نرجس برية صادفهـا فقرّبها من أنفه وراح يشم عبيرها بعمق ، وكأنه يرى تلك الزهرة لأول مرة . وأخيراً تنهّد وقدمها لي قائلاً :

– لو كنا نلمّ بما تقوله ، الأحجار ، والأزهار والمطر ايها الرئيس ؟ ! ربمـا تهتف بنا ، تنادينا ، ونحن لا نصغي ، وان اصغينا فلا نفهم . متى سيسمع الناس ، بل متى سيبدأون الفهم ، متى سنمد أيدينا لنضم الجميع الى صدرنا ، الجميع دون استثناء . الازهار والاحجـار وحتى المطر ... ما الذي تقوله عــن هذا ايها الرئيس ؟ ما الذي قرأته في كتبك ؟ .

فحاولت إرضاء زوربا فأستعملت تعبيره المفضل :

– ليأخذها الشيطان إلى الجحيم .

ومد زوربا يده ليمسك بيدي ويقول :

– عندي فكرة اريد ان اطرحها عليك ايها الرئيس ، ولكن يجب ان لا تغضب . لماذا لا نجمع كل كتبك ونضرم فيها النار . وبعدها من يدري ؟ فانت رجل قوي ومقدام ، يمكن ان نخلق منك شيئاً .

ودون شعور شعرت بنفسي . تصيح راضية « .. أجل .. أجــل انه على حق . ولكن لا استطيع احتمال ذلك » .

تابع زوربا مرتبكا :

– يوجد شيء يبدو لي باني استطعت ان ادركه و ....

– هيا تابع .. تكلم !

– لا أعلم تماماً ما هو ، ولكني اشعر باني أستطعت ان ادرك شيئاً ما . فلو حاولت ان احدثك عنه لتهدم كل شيء . ويوما ما عندما أكون مستعداً سأقوله لك رقصاً .

وزاد انهمار المطر قوة ، كنا وقتها قد اقتربنا من القريـة . في وقت كانت الفتيات الصغيرات يرجعن بمواشيهن من المراعي . والفلاحين قد حلّوا ثيرانهم ، تاركين حقولهم نصف محروثة . والنساء يلحقن باولادهن في زوايا الازقة . فقد خيم على القرية جذع رهيب خوفـاً من العاصفة المطرية . والنساء تعلو اصواتهن بصرخات قوية بينما كانت وجوههن تضحك بلا ادراك . بينما كانت حبات المطر الكبيرة تتعلق بلحى وشوارب الرجال الرمادية المغبرّة . وفاحت رائحة عفونة الأرض من خلال الاحجار والأعشاب الندية .

وأخيراً وبعد ان اغرقتنا مياه الامطار دخلنـا إلى « المقهى الملحمة » الذي كان مكتظا بالزوار الذين كانوا متنـاثرين بعضهم يلعب الورق ، والبعض الآخر يتصايحون بصوت مرتفع . وكأنهم يكلمون بعضهم من جبل لآخر . وفي واجهة الصالة كان يجلس اشراف القرية على طاولة صغـيرة ، العم انانيوستي الذي كان يرتدي قميصاً ابيضاً فضفاضاً . ومافراندوني ذو الوجه القاسي ، الهادىء الذي كان ممسكاً ببربيش نارجيلته وعيناه محدقتان فوق سطح الارض . وأخـيراً الاستاذ الذي تقدمت به السن . ذو وجه وقور ، جاف ، وابتسامة هادئة تعلو وجهه . يصغي باهتمام لحديث رجل طويل القامة كث الشعر كان قد وصل تواً من مدينة « كاندي » وبدأ يحدث الجالسين عن مناظر تلك المدينة الرائعة . اما صاحب الحان فقد كان متكئاً على طاولته مصغياً مبتسماً محاولاً ، بـين الفينة والفينة ، مراقبة ركوات القهوة الموضوعة على النار .

وما ان لمحنا العم انانيسوستي حتى نهض مرحباً .

— هيا اقتربا واجلسا ههنا . فإن سفاكيانو نيكولي ، يقص علينـا ما شاهده وسمعه في كاندي . انه لطيف جداً ، هيا أقتربا .

وثم استدار نحو صاحب الحان وقال :

— « ما نولاكي » قدحين من العرق .

وجلسنا ، فعندما رأنا الكابتن ، بدأ يتردد في متابعة كلامه واخيراً صمت . إلا ان الاستاذ قال يستحثه على الكلام .

— لقد اخبرنا بانك قد زرت المسرح أيضاً ، هل اعجبك يا كابتن بنكولي ؟

ومد الكابتن سفاكيانو نيكولي يده وتناول قدح الخمر وعبّه دفعة واحـدة متشجعاً ليتابع :

– بالتأكيد لقد زرت المسرح .. كنت اسمع الناس يذكرون كلمة « كوتوبولي هنا .. كوتوبولي هناك وذات ليـلة قررت الذهاب ، اجل سأذهب ، قسماً بالله لأراها اخيراً ورسمت إشارة الصليب وتوجهت .

مد أنانيوستي رأسه ليسأل .

– هيا تكلم ما الذي شاهدته أيها البطل ؟

– الحقيقة اني لم أر شيئاً .. نعم لم أر شيئاً ، اقسم بذلك . كنت اظن بان كلامهم ، في المسرح سيكون بمتع ومسلٍ . إلا ان الأمر كان مختلفاً تماماً . لقد ندمت على الفلوس التي دفعتها . فالمسرح عبارة عن حانة كبيرة مستديرة وكانه زريبة . مكتظ بالناس ، حتى ليـكاد ينفجر ، بالكراسي والثريات . كنت مضطرباً ولم استطع أن أر شيئاً ، فقلت محدثاً نفسي « يا للجحيم لا شك بأنهم يمهدون ليوقعوني في فـخ مرعب ... سأختفي» إلا انه في تلك البرهة تقدمت مني فتاة صغيرة لتمسك بيدي وتقودني ومن ثم تجلسني في مكان مزدحم بالرجال والنساء شمالي ويميني ، وأمامي وورائي . وشعرت بان روحي ستزهق فلم يكن الهواء كافياً . فأستدرت نحو جاري وسألته « انه لمكان مزدحم جداً من أين ستظهر الراقصات أيها الرفيق ؟ » فأجاب مشيراً إلى ستار طويل . من هناك .

وتأكدت من ذلك عندما قرع جرساً . وارتفع الستار وبدت « كوتوبولي » إلا انه على الرغم من اسمها كان « كوتوبولي » أي « دجاجة صغيرة » فقد كانت امرأة وإمرأة بكل ما في الكلمة من معنى ، راحت تمشي وتتمايـــل . وتتقدم وتتأخر وترقص . حتى ملّ المشاهدين منها . فراحوا يلطمون الكراسي بأيديهم فهربت من نفسها دون تأخير » .

عندها ارتفعت اصوات المزارعين مقهقهين من كل ناحية ، مما جعل الـكابتن « نيكولي » يقطب جبينه غضباً . واستدار نحو الباب وحاول تغيـــير مجرى الحديث قائلاً .

– انها لا تزال تمطر .

وبحركة لا شعورية اتجهت جميع الانظار نحو الباب وفي هذه اللحظة ظهرت من خلال فتحة الباب امرأة تركض مسرعة وقد رفعت طرف ثوبها بيدها حتى ركبتيها ، وشعرها مسبل فوق كتفيها . كان جسدها ملفوفاً ، متمايلاً ، وثيابها المبللة ملتصقة بجسدها لتظهر مفاتنه المثيرة .

وقفزت من مكاني فلقد شعرت بان هذه المرأة خطرة وكأنها وحش ضار ، وحدثت نفسي قائلاً « يالها من حيوان كاسر » .

وادارت المرأة رأسها باتجاه المقهى لترسل نظرة يتطاير منها الشرر . عندها تمتم أحد الشبان الصغار كان جالساً قرب النافذة :

– فليتمجد اسمك ايتها العذراء القديسة .

وهتف مانولاكس ناطور الغابة .

– لعنة الله عليك ، يا زارعة بذور الخلاف . فالنار التي تضرمينها لن تخمد أبداً .

وراح الشاب الجالس بجانب النافذة يدندن بلحن اغنية بصوت خفيف ثم بدأ يعلو شيئاً فشيئاً .

« لوسادة الأرملة عبير السفرجل » .

« انا أيضاً تمتعت بعبيرها ولم أقو على النوم » .

فصاح مافراندوني مهدداً .

– اسكت . .

إلا ان ملامح الشاب لم تتغير وبقي هادئاً . فأقترب رجل كهل من مانولاكس ناطور الغابة وهمس له في اذنه :

– ها قد بدأ الغضب يجتاح عمّك . لو كان يستطيع اليها سبيلاً لقطعها إرباً. يا لها من بائسة ليرحمها ويحميها الله .

فأجاب مانولاكس ساخراً .

– آه . ايها الاب ماندولي يظهر بانك انت أيضاً ، مغرم بتلك الأرملة .. الا تستحي ؟ أنت يا رجل الدين .

– كلا .. كلا .. وأكرر ذلك ليرحمها ويحميها الله..لا شك وانك لم تشاهد الأطفال الذين يولدون في قريتنا منذ وقت ليس بقصير ، اتسأل لماذا ؟ هذا كله يعود الفضل به للأرملة . فكما يقال فانها عشيقة كل من يقطن قريتنا هذه : فمندما تطفأ المصابيح . وتتخيل ان التي تنام معك ليست بزوجتك ، بل الأرملة ..... لهذا فان قريتنا تنجب أطفالاً غاية في الجمال والقوة .

وساد السكون لبرهة ثم تابع الأب ماندولي هامساً :

– كم ستكون نشوى تلك الاعضاء التي تضمها ... آه يا رفيقي ، لو كنت

شاباً في العشرين مثل بافلي ابن مافراندوني !!

فعلت قهقهة أحد الجالسين وهو يقول :

— لا شك بأنك ستراه الآن عائداً .

واستدار الجميع نحو الباب ثانية ، كان المطر يهطـــل بشدة ، والمياه تسيل فوق الحصى . ومن حـين لآخر كان البرق والرعـــد يشق عنان السماء ، نوراً وهديراً .. وبدا زوربا نافذ الصبر . بعـــد ان بعث رؤية الأرملة الدفء في جسده . ولمس يدي قائلاً :

— هيا لقد توقف المطر .

عندها بدا عند مدخل الحانة ، شاباً ، مشعث الشعر ، حافياً ، وعينيـــه الواسعتين تائهتين . تماماً كما كان الفنـــانون يرسمون القديس يوحنا المعمدان . وبالاضافة إلى هذا كانت عيناه مكورتان ربما بسبب عدم الأكل والصلاة والسهر .

وهتف بعضهم هازئين .

— أهلا .. ميميتو !

كما يقال لكل بلد أبلها . وان لم يكن بها ، فيدفعون واحداً للجنون للهزء منه والضحك عليه . وكان ميميتو هذا ابله هذه القرية .

عندما دخل الشاب قال متعلثماً متردداً :

— ايها الرفاق .. ايها الرفاق .. لقد تاهت عنزة الأرملة سورمولينا . ومن يجدها له مكافأة خمسة ليترات من الخمر .

إلا ان الاب مافراندوني صرخ بوجهه ليطرده :

— هيا اذهب من هنا ... اذهب !

فأقترب العم اثانيوستي من الشاب مشفقاً وقال :

— تعال .. يا ميميتو .. وتناول قدحاً من الخمر .. لتدفىء جسدك ... فما قيمة قريتنا بدون الابله .

وفي هذه اللحظة برز عند الباب شاباً آخراً . يبدو عليـــه المرح بوضوح . ذو أعـين زرقاء سماوية . كان تعباً لاهثاً وشعره مبللاً متدلياً فوق وجهه .

خرج مانولاكس لدى رؤيته .

— اهلاً . بافلي .. اهلاً ايها الابن العم الصغير .. ادخل .. ادخل .

والتفت مافراندوني إلى ولده عابساً كأن الآم الدنيـــا تعتمل في جسده والافكار تدور في نفسه « أهذا ولدي ؟ . هـــذا المسخ ؟ يا للجحيم من يشبه ؟

ليتني استطيع ان احمله وأرميه على الأرض لأدق عنقه » .

كان زوربا جالساً فارغ الصبر ، منتظراً اشارتي لنغادر المقهى . كأنه لم يعد يطيق المكوث بين هذه الجدران . بعد ان سلبت لبه تلك الأرملة الشابة . وكان بين الفينة والفينة يهمس في اذني .

– هيا بنا . لماذا لا نغادر ؟ .. أكاد اختنق هنا .

بدا لي بان زوربا يشعر بان السحاب قد انقشع والشمس سطعت . فألتفت نحو صاحب الحانة يسأله بلا مبالاة :

– من هذه الأرملة ؟

فرد عليه كوندومانوليو :

– فرس ! !

ووضع يــــده على شفتيه وغمز نحو الاب مافراندوني . الذي كان مطأطأ الرأس . واردف قائلاً :

– فرس .. ولكن لنترك محاولة الكلام عنها فهذا يجرنا إلى الجحيم .

عندها نهض مافراندوني تاركاً نارجيلته فقال معتذراً :

– استميحكم عذراً .. سأذهب إلى البيت .. هيا بافلي .. سر خلفي .

وأمسك بيد ابنه وغادرا المقهى تحت المطرا لمنهمر فنهض مانولاكس وتبعهما. وأخذ كوندومانوليو مكان مافراندوني . وهمس بصوت خافت حتى لا تسمعه الطاولات المجاورة :

– يا لمافراندوني التعيس : فالعار سيخنقه يا لها من مصيبة تلك التي هزّت منزله . البارحة سمعت ابنه بافلي يقول له مصراً : « إن لم تزوجنيها سأقتــــل نفسي » ولكنها الفاجرة . ترفض ذلك فهي تعتبره « بسيطاً » .

عندها أصر زوربا على الذهاب وقال مكرراً :

– هيا .. هيا بنا .

وعلت أصوات الديوك ، بعد ان خفّ المطر قليلاً فنهضت قائلاً :

– حسناً ... هيا .

وما ان غادرنا حتى قفز ميميتو ولحق بنا .

كان الحصى يتلألأ بعد أن غسلته الامطار . كما تغير لون الأبواب بعد ان بللها المطر . خرجت العجائز والسلال معلقة بأذرعتهن ليبحثن عن البزّاق .

أقترب ميميتو مني وأمسك بيدي قائلاً :

– قدّم لي سيجارة ايها الرفيق فهذا سيجعلك سعيداً في الحب .

ومد يده الضعيفة وتناول السيجارة التي قدمتها له . وثم قال :

– أليس معك عود ثقاب أيضاً ؟

واستجبت لطلبه . فأشعل السيجارة . ومجّ السيجارة حتى أعماقه محاولاً أخذ أقصى ما يمكن أخذه من لذة التدخين . وأقفل عينيه ودمدم .

– انا الآن سعيد جداً مثل الباشا .

– إلى أين ستذهب ؟ .

– إلى جنينة الأرملة . فقد وعدتني بان تقدم لي بعض الطعام ان اخبرت أهل القرية عن ضياع عنزتها .

كنا نسير بعجلة ، عندما أنشقت الغيوم . وبدت الشمس هادئة ، وبدت على ملامح القرية السعادة بعد ان اغتسلت وتنظفت .

وعاد زوربا ليسأل الأبله وقد بدأ اللعاب يسيل من بين شفتيه .

– ميميتو أمعجب انت بالأرملة أيضاً ؟

– ولم لا ؟ ألم أُنجب انا أيضاً من نفس المكان ؟من بالوعة !!

فصحت مندهشاً :

– بالوعة ! ؟ ما الذي تقصده يا ميميتو ؟

– من بين أمعاء المرأة .

وأحسست بارتعاشة تسري في جسدي ، وقلت محدثاً نفسي : شكسبير وحده الذي يتمكن في مثل هذا الموقف وبمثل هذه السهولة ان يجد مثل هذا التعبير الصريح الواقعي . لينعت به سر الولادة الغامض والذي يجعل الابدان تتقزز من القرف .

ورحت أحدق في ميميتو . كانت عيناه واسعتين ، بدون أي معنى ، وبها شيء من الحول .

وسألته :

– كيف تقضي وقتك يا ميميتو ؟

– كيف أقضيه ؟ كباشا تماماً . انهض صباحاً ، واتناول كسرة من الخبز . ثم ابدأ العمل ، فأقوم بالسخريات والألاعيب . لا اهتم كيف وأين ولماذا ؟ أنقل

الرسائل واحمل السهاد ، واجمع سواد الحيوانات ، واجني الاثمار . فأنا اشارك خالتي السكن . تدعى الأم لينيو وهي « نـدابة » أيضاً . لا شك بأنك قـد قابلتها فالكل يعرفها . حتى ان البعض اخذ لها صوراً . وعندما يأتي المساء .. اتناول قدحاً من الخمر وطبقاً من الحساء . ولكن إذا لم أجد خمراً .. فليس باليد حيلة فاجرع قليلاً من الماء . ماء الرب الرحيم ، حتى أقتل ظمأي فينتفخ بطني.. وبعد ذلك تصبحون على خير .

– ألا تنوي الزواج ؟

– أنا اتزوج ! وهل أنا مجنوناً ؟ ما الذي تتحدث عنـه يا صاحبي ؟ أأجلب الهم لنفسي ؟ فالنساء يحتجن لأحـذية وأشياء أخرى . وكما ترى ، فأنا أسير عاري القدمين .

– ألا تملك حذاءً ؟

– وكيف لا ؟ . عندي واحد خلعته خالتي من شخص توفي العام الماضي . ولكني لا أضعه في قدمي إلا في عيـد الفصح . لأذهب إلى الكنيسة . لأتسلى برؤية الكهنة . ومن ثم انزعه من قدمي وأعلقه بعنقي وأعود للمنزل .

– ما أحب شيء لك في الدنيا ؟

– لنقل في المرتبة الأولى الخبز .. كم أنا مغرم به . وخصوصاً عندما يكون ساخناً ، محمصاً وإذا كان خبز حنطه . وبعده يأتي الخمر والنوم .

– والمرأة !

– بف .... تناول طعامك . وأجرع الخمر . وتمدد . افعل كما أقول لك . وليس كل ما تبقى إلا هم وغم .

– وهذه الأرملة ؟

– اتركها للشيطان . فهذا أفضل ما تقوم به . لتبتعد عني العفاريت وبصق مرات ثلاث على الأرض وصلـّب على صدره . وعدت لأسأله من جديد .

– أتقرأ ؟

– ابداً ! فعندما كنت ولداً صغيراً ، كانوا يدفعوني دفعـاً نحو المدرسة . ولكني اصبت فجأة بالتيفوئيد ، واصبحت كما أنا الآن أبلهاً . وبفضل هـذا تخلصت من المدرسة .

يبدو أن زوربا ملّ اسئلتي « السخيفة » . فقد كان كل تفكيره متجهـاً نحو

الأرملة فأمسك ذراعي متململاً .

– أيها الرئيس ...

ثم استدار مخاطباً الأبله وقال :

– ميميتو .. سر بعيداً عنا قليلاً فلدينا حديث شخصي نود ان نناقشه .

وثم اقترب مني وقال هامساً :

– أيها الرئيس ، سأنتظرك هنا . لا تجلب العار للذكور . فالشيطان ، أو الرب ، ارسل لك هذا القوت فلك الخيار أن تتقبله أو تكفر بهذه النعمة . وما دمت تملك اسناناً ، قوية كما يبدو ، فلماذا تكفر وترفض النعمة . مد ذراعك وخذه لماذا خلق الله لنا اليدين ؟ لنأخذ ؟ إذن خذ . لقد مر علي كثيراً من النساء ، إلا ان هذه الأرملة مختلفة تماماً . لها القدرة أن تهدم قبب الأجراس .. تلك الملعونة ! .

إلا انني قطبت جبيني قائلاً :

– لا .. لا . فأنا في غنى عن هذه المضايقات .

شعرت بانفعال وعصبية قاهرة ، فأنا أيضاً ولكن دون ان أبدي ذلك ، اعجبني ذلك الجسد المثير ، الذي شاهدته لبرهة . كأنه حيوان ضارٍ يفتش عن أنثاه .

إلا ان زوربا عاد ليسأل مندهشاً :

– ألا تريد هذه المضايقات ؟ إذن ما الذي تريده ؟ .

لم أجد رغبة في الرد . فتابع زوربا منفعلاً .

– الحقيقة . ان الحياة كلها مضايقات أما الموت فلا . فلتعيش فيجب ان تنزع حزامك وتبحث عن معركة .

لم أرد ولم أقل شيئاً ، كنت أعلم في قرارة نفسي بان ، زوربا على حق ، ولكن كانت تنقصني الشجاعة لأعترف . فمجرى حياتي قد أخذ مكانه . ولم يكن اختلاطي بالناس إلا مجرد عملية داخلية . فقد بدأت بالانحدار حتى أسفل المدارك . فأصبحت ان خيرت بين امرأة بارعة الجمال و كتاب جيد عن الحب ، لأخترت الكتاب دون تردد .

تنبه زوربا لغرقي بالتفكير . فتابع .

– اترك جميع الحسابات ، وابتعد عن كل الأرقام ، وحطم الميزان اللعين

الذي تقيس به تصرفاتك فالفرصة قد سنحت لك لتكسب نفسك أو تفقدها اصغ ايها الرئيس . تناول ليرتين أو ثلاث ليرات ذهبية ، وضعها في منديل حريري ولفّها جيداً وارسلها مع هذا الأبله إلى الأرملة . وعلّمه بضع كلمات ليقولها لها : ان صاحب المنجم يلقي عليك التحية ، ويرسل لك هذا المنديل . وقد اوضح لي ان هذه قيمة قليلة ، الا ّ أن برفقتها حب لا اكثر ولا أكبر . وقد قال لي أيضاً بانه يجب ان لا تشغلي رأسك بسبب العنزة . فاذا ضاعت إلى غير رجعة ، فنحن موجودون ، لا تخشي شيئاً . لقد لمحك تمرّين قرب الحانة . ومن ذلك الوقت انشغل قلبه بك » .

وفي نفس الليلة ، تقرع بابها ، كما تعلم ، يجب طرق الحديد وهو حامياً ، وتحتج بانك قد تهت في الظلام وتطلب قنديلاً . أو تخترع حيلة أخرى ، كأصابة بالألم وانك تحتاج لقدح من الماء . أو الأفضل من ذلك ان تشتري عنزة وتتوجه نحو بيتها وتقول لها « هذه يا حبيبتي العنزة التي تاهت منك فأنا قد وجدتها » . كن على ثقة ايها الرئيس ، بانها ستقدم لك مكافأة حسنة ، وستدخل . آه ليتني استطيع ان اشاركك الركوب على الحصان.. ستدخل النعيم على حصاناً مطهماً . كما اؤكد لك يا صديقي ، بانه ليس أي نعيم غير هذا . لا تنتبه لما يقوله رجال الدين فليس هناك أي فردوس آخر » .

شعرت باننا قد اقتربنا من بيت الأرملة لأن الأبله كان قد بدأ يدمدم بلحنا واغنية : « الكستناء بحاجة إلى خمر والجوز إلى العسل .

والصبية إلى شاب ، والشاب إلى صبية » .

واسرع زوربا بخطى واسعة ، وبدأ عليه الانفعال . وتوقف ، واخذ نفساً عميقاً متنهداً والتفت نحوي وقال :

— والآن ؟

إلا انني اجبت بفظاظة .

— لنتابع .. لنتابع .

وأسرعت مهرولاً .

ولحق بي زوربامستغرباًوهو يمتم بشيءغيرمفهوم.وعندما دخلنا الكوخ جلس على الأرض متربعاً، وتناول السانتوري ووضعه على ركبتيه، وقرب رأسه منه .

ليغرق بالتفكير . بدا كأنه ينصت لأناشيد أطربته وراح يفكر ايها يختــار . أحلاها أم اكثرها يأساً ، وأخــيراً وقع اختياره . وراح ينشد لحناً هادئاً حزيناً ، وكان بـين برهة وأخرى يرمقني بطرف عينه . وشعرت خلالها بانه يقول ما لا يستطيع ان يقوله بلسانه،يقوله بشجاعة ولكن بواسطة السانتوري. وكان هذا السانتوري يحدثني كيف تضيع حيــاتي عبثاً . وبأنني انا والأرملة حشرتان طفيليتان. لا تعيشان إلا لبرهة قليلة تحت اشعة الشمس،ومن ثم تفنيان إلى الأبد . وبعد كل هذا لا شيء على الاطلاق .

وقفز زوربا فجأة من مكانه ، قد ادرك ما كان يتعب رأسه . واشعل لفافة وقال:

– ايها الرئيس ، سأقول لك الآن سراً ، حدثتني عنه عجوز في « سالونيك» سأقوله لك ولو ان هذا ليس له أي منفعة .

« كنت آنذاك اعمل بائعاً متجولاً في « ماسيدونيا » كنت اتجول بين القرى لأبيع الخطيان ، والابر ، والايقونات ، واللبان ، والتوابل ، كنت اتمتع بصوت جميل . كأنه صوت بلبل . ويجب ان اقول لك هنا بان النساء تشغفهن الأصوات الجميلة ، – ولكن ما الذي لا يشغفهن الفاجرات ؟ – فالله وحده يعلم ما الذي يجري في داخلهن . فمن الممكن ان تكون بشعاً أو اكسحاً ، أو احدباً ، وإذا كان صوتك عذباً وتعرف كيف تسرح في الغناء فستسلب ألبابهن .

كما قلت لك كنت بائعاً متجولاً في سالونيك أيضاً . وحتى كنت اتجوّل في الاحياء التركية . وقد اعجبت بصوتي ، كما يبدو ، أحدى النساء الأتراك . إلى حد انها راحت تسهر الليالي دون ان تستطيع النوم ، عندهــا نادت خادمتها العجوز وملأت يدها بالليرات الذهبية وقالت لها « آمان .. اطلبي من البائـع الجوّال الحضور فيجب ان أراه ... فقد نفذ صبري » .

وفعلاً فقد أتتني الخادمــة وقالت لي « ايها الرومي ، رافقني » فأجبتها « ارافقك ! إلى أين ؟ » فقالت بصوت خافت « ابنة الباشا الرائعة الجمــال بانتظارك في غرفتها .. هيا تعال معي » إلا انه كان قد نمى إليّ بان الأتراك يقتلون المسيحيين الذين يتجولون في الأحياء التركية في الليـل . فقلت معترضاً « كلا .. كلا .. لن اذهب » فأجابت مندهشة « ألا تخاف الله ؟ . الا تعلم ايها الرومي بان من تدعوه المرأة لينام معها،ولا يفعل يكون قد ارتكب ذنباً عظيماً ففي يوم الحساب ستتنهد تلك المرأة ، وتلك التنهيدة، مهما كانت الأعمال الصالحة

التي قصت بها ستجرك نحو الجحيم » .

وتنهد زوربا بدوره وتابع :

– وإذا كانت جهنم حقاً موجودة ، فسيكون مصيري هنـاك ، ليس لاني سرقت واحتلت، ونصبت. وليس لاني قتلت وعاشرت نساء الآخرين .. كلا .. كلا .. فالله يسامحني من أجل تلـك الأمور . فسأذهب للجحيم لأن تلك المرأة استدعتني وانتظرتني على فراشها ولم البي طلبها » .

وقام ليضرم النار ويبدأ بتحضير الطعـــام . ومن ثم رمقني بطرف عينه وابتسم بازدرداء وهمس :

– ان اسوأ من الأصم ، هو من لا يريد ان يصغي .

وعاد قرب النار لينفخ بها بقوة ليشعل الاغصان الرطبة .

* * *

- ٩ -

بدأ الليل يلتهم قسماً من النهار ، والشمس تهرب بسرعة بعد هجوم جيوش الليل. وبدأنا نشعر في أعماقنا بقلق غريب عند اقتراب عصر كل يوم. كان يجتاحنا الرعب البدائي الذي كان يعاني منه اجدادنا القدماء . الذين كانوا يقولون ان الشمس خلال أشهر الشتاء يصيبها رذاذ المطر وتنطفىء قبل اوانها . وكانوا يتوقعون انه في اليوم التالي ، ستنطفيء الشمس إلى الأبد . ويمضون لياليهم على الروابي يرتجفون .

بدا لي بأن زوربا كان يشعر بهذا الخوف والقلق أكثر مني ، وكي يتخلص من هذا الكابوس كان يتأخر في العمل داخل الانفاق . ولا يخرج حتى يتأكد بأن النجوم قد ارتفعت من جديد إلى السماء . كان قد توفق بالعثور على عرق من الفحم قليل الشوائب والرطوبة وتملكه الفرح بالكسب الكثير الذي ينتظره . الكسب الذي يتحول بفضل مخيلته الخصبة وطموحه البعيد ، إلى اسفار ونساء ومدن . فقد كان ينتظر ذلك اليوم على أحر من الجمر . فقد كان يقول بان الربح ينبت أجنحة يستطيع ان يطير بواسطتها إلى المكان الذي يرغب . لذلك فقد كان يسهر الليالي الطويلة في اجراء التجارب على مصعده الصغير باحثاً عن الانحناء الصحيح لتنحدر الأغصان بهدوء ، وكما يقول تعبيره المفضل « كأن الملائكة تحملها » .

وفي أحد الأيام تناول قطعة ورق كبيرة ، وبضعة أقلام تلوين ، وراح يرسم الجبل والغابة والمصعد وبعض الجذوع المنحدرة بواسطة المصعد والمثبتة بالحبال . وكل جذع مزوّد بجناحين بلون البحر الازرق ، ورسم داخل الخليج المستدير بعض المراكب وبعض البحارة . وبعض الزوارق محملة بجذوع الأشجار . وفي زوايا الرسم الاربعة يقف اربعة رهبان وقد خرج من فم كل منهم شريط وردي كتب عليه بخط واضح أسود « ما أعظمك ايها السيد وما أعظم ما أنجزت » .

وراح بعد هذا الرسم بعدة أيام ، يضرم النـــار بسرعة ويحضر الطعام ، ونتناول طعامنا بسرعة . وينطلق نحو القرية . ليعود بعد قليل مقطباً فأسأله :

– أين كنت يا زوربا ؟

فيرد :

– لا تهتم لذلك ايها الصديق .

ويحاول تغيير مجرى الحديث . وفي أحدى الليالي سألني بعد ان عـــاد من القرية .

– هل تعتقد بان الرب له وجود ؟ قل لي . نعم أولا ، ما الذي تقول عـــن هذا ايها الرئيس وان كان موجوداً – وهذا معقول جداً – فكيف تتصوره ؟ .

وهززت كتفي دون مبالاة ولم أجب .

– لا تهزأ أيها الرئيس . فأنا أتصور الرب يشبهني ، إنمـــا ، اكبر واقوى واشبع ، وهمومه اكثر من همومي . وهو بدون شك خـالد إلى الأبد . يجلس بهدوء وراحة على جلود خراف لينة . أما كوخه فالسماء كلها . ليس مصنوعاً من بقايا الخشب والصفائح المهترئة . وهو لا يحمل بيده اليمنى لا سيفاً ولا ميزانا ، فهذه اشياء يحتاجها اللحامين والعطارين . بل يحمـل قطعة كبيرة من الاسفنج مليئة بالماء ، وكانها غيمة من المطر . وعلى يمينه يقع ملكوته ، الفردوس والنعيم وعلى يساره جهنم المحرقة . وعندما تحضر لعنده روح من الأرواح عارية تماماً ، تعيسة ، بعد ان تاهت عن جسدها . يحدجهـــا الرب بنظرة ، وهو يكتم ضحكته ،متظاهراً بالغضب ويرفع صوته الجهوري « اقتربي مني ايتها الملعونة » .

« ويبدأ السؤال ويأتي الجواب وترتمي الروح عند اقدام الرب مسترحمة ، ضارعة ، متوسلة . وتبدأ بتعداد خطاياها وضحاياها . تبدأ دون ان تنتهي ، ويتململ الرب ضجراً ، ويتثاءب ويصرخ بها « اسكتي فقد اصاب رأسي صداعاً من كثرة كلامك » . ومن ثم يمسح بأسفنجته كل ذنوبها ويقول لها أمراً « هيـــا أغربي عن وجهي وادخـــلي الجنة .. ! يا بطرس ... دع هذه الفتاة البائسة تدخل » !

« فالله ايها الرئيس ، كما يجب ان تعلم ، سيداً عظيماً ، والاخلاق العاليـة في ان تغفر وتسامح عندما تستطيـع ذلك » .

أنني أذكر تماماً بأنني في تلك الليلة غرقت بالضحك بينما كان زوربا غارقاً في

في أقواله العميقة : لكن « اخلاق الله العالية » هذه شعرت وكأنها تتغلغل في جسدي ، لتملأني بالكرم والقوة الخارقة .

وفي ليلة أخرى ممطرة . كنا منزوين في كوخنا نضع الكستناء بين طيات الجمر في الموقد . التفت زوربا نحوي وحدّق في وجهي كأنه يحاول ان يقرأ أفكاري وأخيراً لم يعد يستطع كتمان ما يعتمل داخله :

– اريدك ان تقول لي ايها الرئيس . ما الذي تنتظره مني ؟ وما تنتظر لتمسك اذني وترمي بي خارجاً ؟ لقد اخبرتك قبلاً بانهم يسمونني « ميليديو » لانني في أي مكان اقيم ، يحلّ الخراب ولا يبقى حجر فوق حجر .... فمشاريعنا ، لا شك ، تسير نحو الهلاك . امسكني وارمي بي خارجاً .

– كلا .. كلا .. فانني معجب بك . وهذا يكفي .

– إذن فانت لم تدرك ما أقصد ، فليس لرأسي أي ثقل أو توزان ، من الممكن ان يكون رأسي كبيراً جداً أو صغيراً جداً . ولكن بكل تأكيد فرأسي غير متوازن . أصغي لما أقول وستدرك : بعد ان مرت الأيام والليالي منذ رأيت تلك الأرملة التي تركتني بعد ان زادت من همومي وقللت من راحتي .. ليس بسببي انا ، واقسم بذلك ، فانا لن اقترب منها ابداً ، فهي ليست من طرازي . ولكني لا أريد ان ينساها الناس . لا أريدها ان تأوي للفراش وحيدة ، فهذا ما يدعو للأسف والخجل . ولا استطيع ان اتحمله ، لذلك فانني اتجول ، كل ليلة ، حول حديقتها ، أتسأل لماذا ؟ لأ تأكد من ان ثمة رجل سيشاركها فراشها . فأتركها مطمئناً .

وغرقت مقهقهاً .

– لا تهزأ مني ايها الرئيس! إذا نامت المرأة وحيدة فهذا ذنبنا نحن الرجال ، ففي يوم الحساب سنحاسب على هذا . فالرب يغفر جميع الذنوب ، فهو يحمل بيده الأسفنجة ، لكن هذا الذنب لن يغفره على الاطلاق . يا لتعاسة الرجل الذي يستطيع ان يعاشر امرأة ويرفض أو لا يفعل . ولتعاسة المرأة التي تستطيع ان تضاجع الرجل ولا تفعل.لا بدوان تتذكر كلام الخادمة التركية .

وصمت لحظة ومن ثم سأل .

– هل تعتقد بان الانسان عندما يموت يعود إلى الأرض بشكل آخر .

– كلا .. كلا لا أظن ذلك .

ـ وانا لا اعتقد ذلك أيضاً ، ولكن لو كان هذا ممكناً ، فـــان النوع من الناس الذين اكلمك عنهم ، والذين لم يقبلوا ان يقوموا بالواجب الانساني وهربوا من طريق ممارسة الحب . لا شك بانهم سيرجعون إلى الأرض بشكل بغال .

وساد الصمت من جديد . ليغرق في التفكير . وفجأة لمعت عيناه وقد جمله اكتشافه يسأل :

ـ من يدري ، فلربما جميع البغال التي نستعملهـــا اليوم ، هي هؤلاء الناس الفليظون ، الذين كانوا خلال حياتهم رجـــال، دون يكونوا كذلك بالواقع . ولهذا تحولوا إلى بغال ولهـذا فهم يرفسون دائماً . ماذا تقول في ذلك أيهـــا الرئيس ؟ .

فاجبت مبتسماً .

ـ الذي أقوله ، ان عقلك ليس بالتأكيد اقل من المعدل . هيـا انهض وأت بالسانتوري .

ـ لا .. لا يوجد سانتوري الليلة ، أرجو ان لا تغضب ، فالليـلة أود ان أتكلم .. وأتكلم . وأقول الترهات . أتعلم لماذا ! لأن رأسي ممتـلىء بالهموم . مضايقات كبيرة . فالنفق الجديد سيسبب لنـا بعض المشاكل . وانت تتكلم عن السانتوري .

وبعد ذلك أخرج من بين الجمر بعض حبات الكستناء وقـدّم لي قسماً منها وملأ الأقداح بالعرق ، وقلت وانا اقرع كأسي بكأسه :

ـ ليساعدنا الله .

فأعاد زوربا ما قلته .

ـ ليساعدنا الله ... إذاً أردت ولكن حتى هـذا الوقت .. لم نجـــن أي فائدة منه .

وعبّ كأسه دفعة واحدة واضطجع فوق فراشه قائلاً :

ـ غداً . سأكون بحاجة إلى قوة خارقة . فعلي ان اجابه الف شيطان ، تصبح على خير .

وفي صباح اليوم التالي ، خرج زوربا إلى المنجم باكراً . حيث كانوا قد شقوا نفقاً طويلاً في اثر عرق الفحم الجديد إلا ان المياه راحت تتسرب من السقف . وتغرق أرجل العمال في الوحل .

كان زوربا ، منذ يومين ، قد أعدّ الخشب . ليدعم سقف النفـق . إلا أنه قلقاً لأن جذوع الاشجار التي احضرها لم تكن قوية . وبحواسه الدقيقـة كان يشعر بان هذه الجذوع لن تكون كافية ، الحقيقة ، لقد كان زوربا يتمتـع بشعور غريب لما سيحدث . فقد كان قد بدأ يسمع لوحده طقطقة الدعامات التي كانت تئن تحت وطأة الوحول والامطار والسيول الـتي كانت تجري فوق سطح الأرض .

إلا ان الذي زاد من قلق زوربا ، في ذلك المساء انـه وبينما كان زوربا يدخل النفق مر كاهن القرية ، الأب اسطفان راكباً على مطيتـه ومسرعاً نحو الدير ليلقن راهبة تنازع وفي الرمق الاخير ، الأسرار الإلهية . وتمكن زوربا بسرعة عجيبة ان يبصق ثلاث مرات على الارض قبل ان يلقي الكاهن عليه تحيـة الصباح ويضطر زوربا ليرد :

– صباح الخير ايها المحترم .

قالها بصوت عالي ، إلا انه اضاف بصوت يشبه الهمس .

– ولتحلّ لعناتك على نفسي !

ومع ذلك فأنه شعر بأن هناك التعويذة ، التي قـام بها لم تكن لتكفي ، واختفى في النفق مسرعاً .

كانت رائحة الفحم والفازات تفوح بشكل غريب من هذا النفق ، وكان العمال يقومون بعملية دعم السقف بالاخشاب الكبيرة « صباح الخـير » قالها زوربا مقطباً جبينه ، والتفت نحو عمله دون ابطاء .

وفجأة توقف زوربا عن العمل وبدأ كانه يصغي لصوت غير موجود . وأمر العمال الباحثين بالتوقف . كان زوربا بالنسبة للمنجم كالفارس والجواد عنـدما يتحدا أو كالقبطان والمركب ، ليشكلا معاً جسماً واحداً . هكذا كانت حالة زوربا . يشعر بالنفق وتشعباته واوردته وشرايينه كما يشعر بأعصابه وقلبـه ضمن جسده .

وأشار إلى العمال ليصمتوا وراح يصغي بإهتمام أكثر ، في هذه اللحظة وصلت انا ، فقد استيقظت وكأن شعوراً غريباً دفعني لانهض من الفراش ، ولأرتدي ثيابي واركض خارجاً . كل هذا وانا لم ادر لماذا ؟ . إلا انني دون وعي وجدت نفسي متوجهاً نحو المنجم . ووصلت في نفس اللحظة الـتي كان زوربا يرهف

السمع . ومن ثم ليقول :

– لا شيء .. لا شي خيل إلي اني .... حسنا إلى العمل . إلى العمـــل أيها الرجال .

ولاحت منه التفاته نحو مكاني فرفع حاجبه متعجباً .

– ما الذي تفعله هنا في هذا الوقت المبكر ايها الرئيس ؟ .

ومن ثم تقدم مني وقال بصوت أشبه بالتمتمة :

– لماذا لا تصعد إلى سطح الارض .. وتملأ رئتيك بالهواء النقي ، ارجع في يوم ثاني من أجل نزهتك القصيرة .

– ولكن الذي يحدث ؟

– لا شي .. لا شيء ... فلقد خيل إلي اشياء .... كل ذلك بسبب الكاهن الذي مر في الصباح .

– هيا اصعد .

– إذا كان الخطر يهددكم فمن العار ان اتركـكم ! .

– أجل .

– أكنت تركت المنجم انت ؟

– لا ..

– لا ... ! ؟ وكيف اصعد انا !

فثارت أعصابه وقال منفعلاً :

– ان الاجراءات التي اقوم بها من اجل زوربا ،ليست هي نفسها التي اقوم بها من اجل الآخرين . ولكن ما دمت قد ادركت بان من العار ان تتركنا . فأبق .

وتناول مطرقته وراح يدقّ بعض المسامير الطويلة ليثبتها في السقف . كان مندفعاً كلياً إلى العمل . وكأن ذهنه خالٍ من كل شيء. او كأنه قد توّحد بكل ما يعمل به ، الارض ، النفق والمسامير . ليقهر الخشب والسقف . كان يـكافح الجبل بكامله ليتمكن من الامساك بالفحم بشتى الطرق والحيـــل . وبعض الاحيان بالعصبية والعنف . فزوربا لديه حاسة شم قوية بالنسبة لمعادن المناجم ولديه الحاسة الغريبة التي يعرف فيها مواطن الضعف ليضرب عليها . كان زوربا قد غطته بقايا الفحم والوحول حتى قمة رأسه ولم يبق به شيئاً نظيفـــاً سوى ثغرتي عينيه. كأنه قد قصد ان يتنكـّر بالفحم ليخدع عدوه ويصل إلى مكانه .

وصمت متشجعاً بزوربا وقد تملكني شعور غريب بقوة زوربا .

— هيا يا زوربا البطل .

إلا أنه لم يحمل نفسه عناء الالتفات نحوي . ولما يلتفت نحوي أنا ؟ قارض الورق الذي يمسك بيده ، بقية قلم صغير تافه ، بدلاً من معول . فقد كان غارقاً بعمله . وليس عنده أي وقت ليضيعه حتى للالتفات نحوي . لقد كلمني مرة عن هذا الموضوع قائلاً :

— لا تكلمني ... عندما أكون غارقاً بالعمل .. فقد أنفجر .

— تنفجر !؟ ولماذا ؟

— ها قد عدنا « لماذا » من جديد . وعـدت أنت لتتكلم كأنك غلاماً صغيراً ، كيف أوضح لك ذلك . عندما أكون غارقاً بالعمل . أكون غـارقاً بكل حواسي ، وتكون أعصابي متوترة في جميع أنحاء جسدي . يكون رأسي كله عند الفحم والصخر . أو عند السانتوري . فاذا مـا لمستني ، أو كلمتني . ورددت عليك فسأنفجر .

حانت مني التفاتة نحو ساعتي التي كانت تشير الى العاشرة فقلت للعمال :

— هيا لقد حان وقت الافطار .. أو بالأحرى ... لقد تأخرتم قليلاً .

وخلال لحظة واحدة رمى العمال جميع أدواتهم في احـدى زوايا النفق . ومسحوا العرق عند جبهـاتهم . وجهزوا أنفسهم للخروق من النفق . إلا أن زوربا بدا كأنه لم يسمع ما قلته . او لم يود السماع . وفجـأة عاد ليصغي كانه يسمع صوتاً بعيداً . وعاد القلق يرتسم على محيـاه . فاشرت للعمال لينتظروا . وناولت كلا منهم سيجارة . ووضعت يدي في جيوبي . وفجأة قفز زوربا ووضع أذنه على حائط النفق ، وعلى ضوء القنديل شاهدت شفتاه مفتوحتـان برعب . فهالني منظره فصرخت به :

— ما الذي يجري يا زوربا ؟

ولكن في تلك البرهة خيل الينا ان الأرض ستتطبق علينـا ، فصاح زوربا بصوت مخيف :

— اهربوا ... اهربوا .

تراكضنا نحو المخرج . الا اننا ما أن اقتربنا من الدعامة الاولى حتى سمعنـا صوت صرصرة أسرع وأقوى في هذا الوقت كان زوربا قد تناول غصن شجرة

ضخم ليسند به الدعامة المتخاذلة . ليته يستطيع ان يقوم بذلك! فهذا سيمنحنا الوقت الكافي للخروج من النفق .

وعلت صرخة زوربا الثانية . الا انها كانت محذرة كأنها خرجت من أعماق الأرض .

– أسرعوا بالهرب .

واستجبنا لطلبه ، يتملكنا الخوف الشديد ، الذي يتملك الرجال في مثل هذه المواقف . ودون ان نلتفت لزوربا . ولكن بعد ان خرجنا . تنبهت فجأة فزوربا لا يزال داخل النفق وصرخت جزعاً .

– زوربا .. زوربا .

بذلت أقصى جهدي ليكون صوتي عالياً ليسمعه ، الا انني علمت بعد ذلك بأن صوتي لم يتعد أوتار حنجرتي فالرعب قد أفطسه .

تملكني الخجل . وقفزت نحوه وذراعي ممدودتين . في هذا الوقت كان زوربا قد انتهى من تثبيت الدعامة الكبيرة وبدأ بالركض عبر النفق الى المخرج وبسبب سرعته في الظلمة واندفاعه خارجاً ، وبدون شعور منا سقط كل منا بين ذراعي الآخر .

وصرخ بي :

– يجب أن نخرج ... اخرج .

وبدأنا الركض حتى وصلنا الى النور . كان الرعب قد جمع العمال الى بعضهم عند المدخل والرعب بادياً عليهم .

وتناهي لمسامعنا صوت الصرير الثالث ، إلا أنه كان أعلى هذه المرة ، كأنه صوت شجرة في العاصفة . وفجأة علا صوت مزمجر كأنه البرق جعل الجبل يهتز من الداخل ، وانهار النفق .

راح العمال يدمدمون ويرسمون إشارة الصليب .

– يا لقوة الله ...

إلا أن زوربا صرخ بهم غاضباً .

– لقد تركتم عدتكم في الداخل ...

إلا أن العمال لم يردوا . فازدادت ثورة زوربا .

– لماذا لم تحضروهم معكم ؟ لقد بللتم سراويلكم ... وأسفاه على العدة .

فتدخلت بينهم قائلاً :

– أوه .. ان هذا ليس الوقت الذي نتحدث فيه عند العدد. دعنا نشكر الله بأن الرجال كلهم بخير . الفضل لك يا زوربا . فنحن جميعاً ندين لك بحياتنا .

– اني أشعر بالجوع ... فهذا جعل معدتي خاوية .

وتناول كيس طعامه الذي كان قد تركه على صخرة وفتحه وتناول بعض الخبز ، زيتون وبصل وبعض البطاطا المسلوقة وقليل من الخمر .

والتفت نحو العمال وقال وفمه منتفخاً .

– هيا أيها الرجال لنأكل .

وراح يلتهم الطعام بسرعة ، كما لو أنه قد أضاع قسماً كبيراً من قوته وراح يعوضها . كان يأكل وظهره محني دون ان ينبث بكلمة . وتناول وعاء الخمر وراح يسكبه في حلقه الجاف .

عندها تشجع العمال وتناولوا زواداتهم وراحوا يأكلون . تربعوا على الأرض حول زوربا ، يأكلون ويحدقون به . كانوا يودون لو يرمون بأنفسهم على أقدامه ويلثمون يديه ، إلا أنهم كانوا يعلمون بأنه غريب الأطوار فلم يجرؤا على ذلك .

وأخيراً ، تقدم فيشليس ، وهو أكبرهم سناً . وكان عنده شارباً أبيضاً ضخماً وقرر ان يقول شيئاً :

– لو لم تكن هناك ايها المعلم الطيب . لكان أطفالنا الآن أيتاماً .

– أسكت .

قالها زوربا بفمه الممتلىء . ولم يجرؤ أحد بعده ان يأت بأي حركة .

- ١٠ -

« من هو إذن الذي خلق هذه المتاهات من التردد . وهذا المعبد من الكبرياء. وكل هذه الخطايا . وهذا البستان المزروع بآلاف الخدع . وهـذا الباب المؤدي الى الجحيم ، تلك السلة الملأى بالألاعيب ، هذا السم الذي طعمه كالعسل ، هذه السلة الأبدية التي تربط الناس بالأرض : المرأة ؟ »

كنت بهدوء وببساطة أنسخ هذه الأنشودة البوذية . جـالساً على الأرض قرب الموقد . كنت أجرب تعويذة تلو التعويـذة لأطرد من مخيلتي جسد المرأة المبللة بالمطر . التي كانت كل ليلة في ذلك الشتاء الذي مضى تمر أمامي جيئـة وذهاباً . منذ سقوط النفق حيث كادت حياتي أنا تتوقف شعرت بأن الأرملـة أصبحت في دمي كانت تدعوني كأنها حيوان مفترس بأصرار واقتراب .

– تعال .. تعال ان الحياة تمر كالبرق .. تعال بسرعـة ، تعال .. تعال .. تعال قبل ان يفوت الأوان .

كنت أعلم تماماً بأنها « مارا » . روح الشرير . في شكـل جسد امرأة مغرٍ ومثير . كافحت ضدها بقوة . كنت أكتب على بوذا . تمامـاً كما كان يفعل المتوحشون ويرسمون بأحجار وألوان أحمر وأسود الحيوانات المفترسة التي كانت تتجول حولهم . وكانوا أيضاً برسمهم هذا يحاولون تثبيب هذه الحيوانات حتى لا تنقض عليهم وتقتلهم .

منذ ذلك اليوم الذي كنت على وشك أن أسحق بـه ، والارملـة كانت تمر في سماء عزلتي الملتهبة ، وترنو إلي هازة بأردافها بإثارة . خلال النهار تكون قوتي مكتملة فأستطيع ان أتغلب عليهـا . كتبت كيف ظهر المجرب لبوذا شخصياً في ثياب امرأة . وكيف أسند ثدييه الى ساقي الكاهن ، وعندمـا شعر بوذا بالخطر ، جمع كل قوته ، عندها اضطر الشر على الهرب .

كنت عند كل جملة أكتبها أشعر بانفراج جديد ، وتزداد شجـاعتي . كنت

أشعر بالشر ينسحب بسرعة . هارباً من قوة التعويذة السحرية . خلال النهار كنت أقاوم بكل قوتي . إلا أنه في الليل تخور قواي وتفتح الأبواب الداخلية وتدخل الأرملة .

وفي الصباح أستيقظ متعباً ، منهكاً . ويبدأ الصراع من جديد . عندما أرفع رأسي من على الورق يكون قد اقترب الغروب ، والنور يكون قد بدأ يتقهقر كأنه مطارداً ويسقط الظلام فوقي . كانت الأيام تقصر ، وعيد الميلاد يقترب . وأرمي نفسي بكل قوتي في الصراع ، وأقول لنفسي : أني لست وحيداً ، هناك قوة كبيرة تساعدني في الصراع . انه ضوء النهار ، لنفشل أحياناً ، ولننتصر مرة أخرى . ولكن دون يأس . أحارب وأتمنى أنا والنور سوية .

بدا لي ، وهذا التفكير أعطاني الشجاعة ، لأنني في صراعي مع الأرملة ، كنت أتبع أنشودة كونية عظيمة . هذه الأشياء قد اختارت هذا الجسد لتهديء من اللهب الحر الذي يشتعل داخلي . فأقول لنفسي : ان القوة الخالدة هي التي تحول هذه الأشياء الى روح دوامة . كل رجل يوجد بداخله شيء من هذه الدوامة ، وهكذا يستطيع ان يحول الخبز والماء واللحم الى أفكار وأعمال . كان زوربا على حق : « قل لي ما الذي تفعله بالذي تأكله أقل لك من أنت » .

وأنا بكل ألم كنت أحاول أن أحول الرغبة الوحشية للجسد الى بوذا . وعشية مساء عيد الميلاد رآني زوربا محاولاً المحاربة ضد ذلك الشيطان .

– بماذ تفكر أيها الرئيس ؟ انك لا تبدو على ما يرام .

تظاهرت بأنني لم أسمع . إلا أن زوربا لم يكن ليكتفي بهذه السهولة .

– لا تزال شاباً أيها الرئيس .

وفجأة بدا صوته مراً غاضباً .

– إنك شاب قوي البنية . تأكل جيداً وتشرب جيداً . وتتنشق هواء البحر النظيف وتختزن القوة . ولكن ما الذي تفعله بكل هذه القوة ؟ انك تنام لوحدك ، هذا رديئاً جداً بالنسبة لهذه القوة . يجب ان تذهب لهناك الليلة أيها الرئيس . لاتضيع الوقت . فكل شيء سهل في هذا العالم كم مرة يجب أن أقول لك ؟ إذن لا تذهب ودع الامور تتعقد !.

كان مخطوط بوذا مفتوحاً أمامي ، وبينما كنت أصغي لزوربا ، رحت أقلب الصفحات ، كنت أعلم بأنها تدلني على الطريق الأمين . انها ومع

مارا من جديد . ذلك المجرب الذي كان يدعوني .

أصغيت لزوربا ، دون ان أقول كلمة متابعاً تصفح صفحات المخطوطة . ورحت أصفّر محاولاً إخفاء عواطفي ، إلا أن زوربا عندما رآني صامتاً انفجر :

— انها ليلة الميلاد ، هيا أسرع . حاول ان تصل لها قبل ان تذهب الى الكنيسة . المسيح سوف يولد الليلة ، هيا اذهب وقم بمعجزتك .

ونهضت متضايقاً .

— هذا يكفي يا زوربا . كلٌ يسير حسب طريقه . الرجل كالشجرة تماماً . هل تشاجرت يوماً مع شجرة تين لأنها لم تثمر كرزاً ؟ حسناً هذا يكفي . انه منتصف الليل تقريباً . دعنا نذهب الى الكنيسة لنشاهد قيام المسيح بأنفسنا .

وضع زوربا قلنسوته الشتوية فوق رأسه قائلاً بانزعاج .

— حسناً إذن . لنذهب ولكني أريدك ان تعلم بأن الله سوف يكون مسروراً أكثر لو تذهب الى الارملة هذه الليلة . كالملاك جبريل . لو ان الله اتبع نفس الطريقة مثلك أيها الرئيس . لما توجه نحو مريم ولما ولد المسيح . وإذا سألتني أي طريق يسلكه الله سوف أقول : الطريق الذي يؤدي الى مريم . ومريم هي الارملة .

وانتظر جوابي بهدوء ولكن دون جدوى ودفع الباب بقوة . واندفع خارجاً . وضرب بطرف عصاه الحصى مكرراً :

— أجل .. أجل .. مريم هي الارملة .

— هيا لنسير .. لا تصيح .

مشينا بسرعة فوق الحصى في تلك الليلة المشتية . كان السماء صافية . وبدت النجوم تبدو كبيرة ومعلقة في السماء كأنها كرات من النور بينما كنا نسير عبر الشاطىء . بدا الليل كأنه وحشاً كبيراً أسوداً منبطحاً حتى حافة البحر . ورحت أقول لنفسي :

— من هذه الليلة ، فان النور الذي كان طائعاً في هذا الشتاء ، قد ينقلب كأنه قد ولد هذه الليلة مع الطفل الإله .

كان كل القرويون قد تجمعوا في باحة الكنيسة الدافئة . وقف الرجال في

الأمام والنساء خلفهم وايديهم مصلبة . وكان الكاهن الطويل اسطفان . وقد اتعبه صومه لمدة أربعين يوماً . يتجول هنا وهنـــاك ملوحاً ببخرته . ينشد بأقوى صوته وأسرع مايمكنه ليولد المسيح بسرعة ليعود الى بيته ويتناول الحساء الدافيء ، والمقانق واللحم المشوي .

لو قيل « اليوم يولد النور » لرجف قلب الإنسان . ولمـــا كانت الفكرة أصبحت اسطورة ولما كانت قد غزت العالم . إذ أنها مـــا كانت لتعبر إلا عن فكرة فيزيائية ولما كانت قد حققت تخيلاتنا . أعني أرواحنـــا . ولكن النور الذي ولد في الشتاء الميت قد تحول الى طفل والطفل الى إله ، ولمدة عشرون قرناً أرضعته أرواحنا .

انتهى الاحتفال الديني عند منتصف الليـــل ، لقد ولد المسيح . وأسرع القرويون الجياع السعداء الى بيوتهم ليحتفلوا بالعيد وليشعروا في أعماقهم . بلغز التجسد . ان المعدة هي الأساس المتين ، الخبز ، الخمر واللحم هم الأسس الأولى . فمع الخبز والخمر واللحم نستطيع أن نخلق الرب .

كانت الكواكب تتـــلألأ في السماء فوق الكنيسة . وكانت الطريق تبدو كأنها نهر يسير من أول السماء إلى آخرها . ولمعت نجمة خضراء كأنهـــا ياقوتة كبيرة ، وتنهدت بقلق .

واستدار زوربا نحوي قائلاً :

– أتعتقد بهذا أيها الرئيس؟. بأن الرب قد أصبح إنساناً وخلق في اسطبل؟ أتعتقد بهذا حقاً ، أم انك تسخر من هؤلاء الناس ؟

– من الصعب جداً أن أعتقد بذلك يا زوربا .. بل من الصعب أن اقول لك باني اعتقد به أولاً . وأنت .

– لا استطيع ان أقول باني اعتقد بهذا أيضاً . عندما كنت صغيراً ، لم أكن أصدق روايات الجنيات التي كانت تقصها جدتي ، ومع هذا فقد كنت أرتعد من الخوف . فأضحك وأبكي . تماماً كأني اصدقها . وعندمـــا نبتت أول شعرة في لحيتي . لم أعد أهتم لمثل هذه الروايات وأحتقرها أيضاً . أمـــا الآن وفي نهاية أيامي أعود لأومن بها ثانية ، يا لهذا الإنسان من لغز .

سرنا في الطريق المؤدي الى مـــنزل السيدة هورتنس . ومن ثم بدأنا نهرول كأننا حصانين اشتما رائحة الاسطبل .

– ان هؤلاء الآباء القديسون خبثاء جداً . يصلون اليك عن طريق معدتك. فكيف تستطيع ان تهرب منهم . فهم يقولون بانه يجب ان لا تأكل لحماً . ولا نشرب خمراً . لمدة أربعين يوماً . انه الصوم ، لماذا ؟ لتشتهي اللحم والخمر ... آه يا لهم من خنازير وقحة . انهم يعرفون كل حيل هذه اللعبة .

وراح يسير أسرع .

– هيا نتحرك ايها الرئيس ... لنسرع فلا بد وان الديك الرمي قد نضج أخيراً .

عندما وصلنا الى غرفة السيدة الطيبة بسريرها الكبير . وجدنا الطاولة مغطاة بشرشف أبيض كبير ، وعليها الديك الرومي ملقى على ظهره تعلو منه الأدخنة ورجلاه مرتفعتان . وكان الموقد يرسل دفئاً محبباً .

كانت السيدة هورتنس قد عقد شعرها خصلاً وارتدت ثوباً طويلاً . ذو لون وردي شاحب بأكمام كبيرة . وحول رقبتها وضعت شريط اصفر ضيق بعرض اصبعين . وقد عطرت نفسها بعطر الليمون الناعم بكثرة .

ورحت أقول في نفسي كم هو كبير هذا الانسجام الذي فوق الأرض . كم ينسجم قلب الرجل مع هذه الأرض . هذه هي المغنية العجوز قد وقعت هنا أخيراً . بعد ان زارت أماكن كثيرة . وقعت فوق هذا الشاطىء المنعزل . لتجمع في هذه الغرفة البائسة العناية المقدسة وحرارة الأنوثة .

الأكل النظيف الذي حضر بعناية ، والموقد المشتعل .. والجسد المزين . وعبير الليمون . كيف تتحول كل هذه المسرات الجسدية ، وبكل بساطة . الى سرور عارم للروح .

وفجأة قفز قلبي داخل صدري . وشعرت في تلك الليلة الهادئة ، بأني لم أكن وحيداً فوق هذا الشاطىء المهجور . هناك مخلوق مليء بالأنوثة واللطف والصبر كان يسير نحوي . انها الام ، الأخت والزوجة . وانا الذي كنت أظن بأني لا احتاج شيئاً ، شعرت بأني بحاجة لكل شيء .

لا بد وان زوربا شعر بمثل هذه الرغبة . لأنه ما كدنا ندخل الغرفة حتى اندفع نحو المغنية العجوز المزينة وضمها الى صدره قائلاً :

– المسيح قد ولد . تمنياتي لك .. أيتها الانثى .

والتفت الي ضاحكاً .

– اتري أيها الرئيس كم المراة مخادعة . حتى انها سـسـسيـ ـ .
بأصبعها الصغيرة .

جلسنا الى الطاولة ، وبسرعة التهمنا الأطباق ، وبدأنا نشرب النبيذ شعرنا بأن أجسادنا قد انتشيت وأرواحنا قد اهتزت بالسعادة . وعادت الحيوية لزوربا من جديد .

– كل واشرب ايها الرئيس . كل واشرب وانتشي . غني أنت أيضاً أيها الرفيق غني كالرعاة « المجد لله في العلى .. والمجد للأبطال ... لقد ولد المسيح المسيح انه شيء مرعب . ارفع صوتك لتجعل الله يسمعك ويشعر بالسعادة .

لقد عادت له روحه المرحة من جديد ولم يكن شي ليوقفه .

– لقد ولد المسيح .. يا سليمان الحكيم . يا ايها الكاتب الردي‌ء . لا تذهب وتحاول ان تأخذ الأشياء بإبرة . أولد ام لم يولد . بالتأكيد لقد ولد . ولا تبدو أحمقاً . لو أخذت عدسة مكبرة ونظرت الى الماء الذي تشربه ، ان مهندساً قال لي هذا ؛ سوف ترى بأن المياه ملأى بالديدان الصغيرة جداً . ولن تعود لشربه ثانية . سوف لن تشربه وتقضي من الظمأ . فتحطم كأسك ايها الرئيس. لتختفي الديدان الصغيرة ، وتستطيع ان تشرب وتنتعش .

والتفت نحو رفيقته ورفع كأسه الطافح وقال :

– يا بوبولينتي العزيزة ، يا رفيقة السلاح . سوف اشرب نخب صحتك . لقد شاهدت كثيراً من مقدمات المراكب . ممسكين بصدورها بأيديهم . وخدودها وشفاهها مصبوغة بلون أحمر قانٍ . لقد أبحروا عبر كل البحور . ودخلوا كل الموانيء . وعندما يبلى المركب توضع فوق الأرض اليابسة . وحتى نهاية أيامها تبقى متكئة على جدار الصيادين حيث يذهب القبطان ليشرب ، بوبولينتي ، الليلة كما اشاهدك على هذا الشاطيء . معدتي ملأى بأشياء كثيرة وعيني مفتوحتين على وسعها يتبين لي كإنك مقدمة سفينة عظيمة وأنا آخر ميناء لك . وأنا الحانة التي يأت اليها القباطنة ليشربوا . تعالي واتكئي علي ، واتركي اشرعتك . أشرب الآن هذا النبيذ الكريتي نخب صحتك يا جنيتي .

لامست كلمات زوربا شغاف قلب السيدة هورتنس فغلبت على أمرها وراحت تبكي . واتكأت على كتف زوربا .

فهمس زوربا في أذني .

– أترى أيها الرئيس ؟ ان كلمتي العظيمة ستسبب لي المشاكل ، فهذه العجوز لن تدعني أذهب الليلة ، ها أنت هنا ، فأنا أشفق على هؤلاء المخلوقات المساكين. أجل أنا أشفق عليهم .

وصاح عالياً ملتفتاً نحو جنيته .

– لقد ولد المسيح ... نخب صحتنا ..

ومرر ذراعه تحت ذراع السيدة وقرعا كأسيهما متعانقين وجرعا النبيذ وهما ينظران كل منهم الى الآخر بنشوة وضياع .

لم يكن الفجر بعيداً عندما تركتها في غرفة النوم الصغيرة الدافئة بسريرها الكبير لأعود إلى البيت ، كان القرويون قد أكلوا وشربوا تماماً . وبدت القرية نائمة بأبوابها ونوافذها المغلقة تحت النجوم الشتوية الكبيرة .

كان الجو بارداً والبحر يزمجر . وكوكب الزهرة كان يتراقص بفرح في الشرق . رحت أسير على حافة الشاطىء أداعب الموج . كان الموج يحاول الوصول إلي ليبللني وأنا أهرب . شعرت بالسعادة وقلت لنفسي . « هذه هي السعادة الحقيقية ، أن لا يكون لي أي مطامع ، وأن أعمل بجد كالحصان كما لو انني أملك كل المطامع . لأعيش بعيداً عن الرجال ، لكني لا أحتاجهم ولكن بالتالي أحبهم . ولأشارك في عيد الميلاد ، وآكل وأشرب جيداً ، وأتجنب الوقوع في أي فخ . ولكن البحر على يميني والأرض والسماء والنجوم معلقة بها إلى شمالي . ولأدرك فجأة داخل قلبي بأن الحياة قد انجزت معجزتها الأخيرة لتصبح اسطورة خيالية .

كانت الأيام تمر ، حاولت أن أظهر بمظهر الشجاع . كنت أصرخ وأمثل دور الأبله ، ولكن في أعمق اعماق قلبي كنت أشعر بالحزن . خلال هذا الاسبوع من الاحتفالات . عادت الذكريات لنفسي لتملأ صدري بموسيقى بعيدة محببة إلي . وشعرت بحقيقة المثل القديم تشدني « ان قلب الانسان ليس إلا حفرة مليئة بالدم ، والأحباء الذين يموتون يرمون بأنفسهم على حافة هذه الحفرة ليشربوا من هذا الدم ليعودوا للحياة من

جديد . والأحب اليك هذا الذي يشرب أكبر كمية من دمك ».

انه مساء ليلة رأس السنة . واقترب بعض أطفال القرية يحملون مركباً مصنوعاً من الورق وبدأوا يغنون بأصواتهم المرحة أغنية رأس السنة .

« القديس « باسيل » العظيم جاء من كايساريا وطنه الأم ... »

كان يقف هنا على هذا الشاطىء الكريتي قرب البحر الأزرق كان يتكىء على عصاه وفجأة غطت أوراق الشجر والزهور العصا . وتابعت الأغنية قائلة :

« سنة طيبة لكم ايها المسيحيون
ليتملىء بيتك بالذرة والزيت والخمر أيها المعلم .
ولتبقى زوجتك عمود بيتك الرخامي
ولتتزوج ابنتك ، ولتنجب تسعة صبيان وبنت
وليحرر ابناءك القسطنطينية ، مدينة ملوكنا » .

كان زوربا يصغي بانتباه . ثم تناول طبل من الأول وراح يقرعه بوحشية . كنت أصغي وأراقب دون أن أتفوه بكلمة . كنت أشعر بان ورقة جديدة تسقط من أعماق قلبي . انها مرور سنة جديدة . كنت أتقدم خطوة جديدة نحو الحفرة السوداء .

وبينما كان زوربا يشارك الأطفال بالغناء بأعلى صوته سألني :

– ما الذي يجري ايها الرئيس ! ماذا دهاك أيها الرجل ؟ انك تبدو كما لو أنك أكبر بسنين عديدة ، ووجهك شاحب . أما أنا ففي مثل هذه ايها الأيام أشعر كما لو انني أولد من جديد ، كإني المسيح . ألا يولد هو كل سنة ؟ وهكذا أنا .

تمددت على سريري ، اغلقت عيني . كنت أشعر بوحشة قاسية تغمر قلبي ولم تكن لدي قابلية للتحدث .

لم أكن أستطيع أن أنام ، شعرت بانه عليّ أن أحصي أفعالي وأعمالي في تلك الليلة . مررت فوق كل حياتي ، التي بدت سريعة ، مضطربة ، ومترددة كانها حلم طويل . كنت أحاول تغييرها بكل قواي . كانها سحابة كبيرة تهاجمها الرياح من الأعالي . كانت تتغير تلقائياً . لقد تحطمت حياتي وتحولت إلى قطع صغيرة ومن ثم عادت تتلاحم ثانية ولكن بشكل جديد . مرة ، بطة ،

كلب ، عفريتا ، عقربا وقرد . وفجأة راحت السحابة تتمزق وتنجلي . كانت قد انقادت بعيداً بالرياح الإلهية التي بددتها إلى الأبد وتركت مكانها قوس القزح .

وطلع النهار ولم تكن لي الرغبة بأن أفتح عيني ، كنت أحاول جهدي أن أركز أفـكاري لأدخل عبر المخ لأصل إلى تلك الفتاة الخطرة ، حيث كل نقطة من الانسان تندمج في ذلك الخصم . كنت أنتظر بفارغ الصبر ليتمزق ذلـــك الحجاب لأرى ما تخبئه لي السنة الجديدة ...

– صباح الخير . ! أيها الرئيس ... سنة طيبة .

ورماني صوت زوربا فوق الأرض الصلبة ثانية ، ونظرت إلى الباب فلمحت زوزبا يلقي برمانة كبيرة إلى عتبة الكوخ. وتطايرت حبات الرمان حتى وصلت إلى فراشي ، فلملمت بعضها والتهمتها لترطب حلقي . وصاح زوربا مبتهجاً :

– اتمنى أن نحصل على ثروة كبيرة وأن تتخاطفنا السيدات الجميلات .

ومن ثم نهض وحلق وتهندم ،ارتدى سروالاً أخضراً وقميصاًمن الصوف ذواللون المسمَّر . وقطعة صداري صنعت من وبر الحيوانات وارتـدى قلنسوة روسية ولمس شاربيه قائلاً :

– أيها الرئيس سأبدو اليوم في الكنيسة وكأنني وكيل لشركة ، فليس من الخير للمنجم أن تدور الهمسات حولنا بإننا ماسونيان . على أنه لن يضيـع مني أي شيء وسأمضي وقتاً طيباً .

ثم طأطأ رأسه ونظر إلي بطرف عينه هامساً .

– وربما سألتقي بالأرملة أيضاً .

الرب ومصلحة الشركة والأرملة كلها أشياء تنضم لبعضها لتشكل مزيجـاً غريباً في رأس زوربا . ونما لمسامعي وقع أقدامه المبتعدة ، وفجأة انتفضت وكأن السحر قد تسرب مني وعادت روحي إلى سجن جسدي من جديد .

وضعت علي ثيـــابي وتوجهت نحو الشاطىء . كنت أسير بسرعة مسروراً كاني أحاول أن أتخلص من خطر داهم أو خطيئة . وظهرت لي فجـــأة رغبتي الصاحية في أن أتعرف إلى المستقبل ومحـــاولة معرفته قبل أن يأتي . وكأنها انتهاكاً لأشياء مقدسة .

تذكرت بانني ذات يوم عثرت على شرنقة على قشرة احـــدى الأشجار في الوقت التي كانت الفراشة تنقـــر القشرة الرقيقة وتتهيأ لرؤية النور . ورحت

أنتظر ، وانتظرت وقتاً طويلاً ، إلا ان انتظاري طال . كنت أنتظر بيـــأس وبفارغ الصبر ، وبعصبية ظاهرة اقتربت ورحت أنفخ عليها محاولاً تدفئتها . ورحت أشاهد بـــأم عيني المعجزة تتحقق ، ولكن بوقت أسرع وانكسرت القشرة ، وبدت الفراشة تسحب نفسها سحباً . ولن انسى ما حييت القبـاحة التي أحسست بها في ذلك الوقت . فأعضائها لم تكن قد اكتملت ، فجناحاها لم تكونا قادرتين على حملها تماماً . فشعرت بانها بحاجة للمساعدة فعدت لأساعدها بأنفاسي من جديد ، ولكن دون جدوى ، فقد كان لا بد أن تنمو نمواً طبيعياً وبطيئاً . إلا انه كان قد سبق السيف العزل فأنفاسي كانت قد دفعت الفراشة للظهور ولو قبل الأوان ، وبعد لحظات ارتعشت وماتت .

فهذه الجثة الصغيرة كانت كثيراً ما تقلق ضميري وتثقله ، لأن انتهاك حرمة القوانين الطبيعية المقدسة هي خطيئة قاتلة . وأنا أفهم هذا جيداً ، لذلك فيجب ان لا نفقد صبرنا وأن نكون صبورين وخصوصاً في مثل هذه الأمور الأبدية .

جلست على احدى الصخور لتنعكس في مخيلتي فكرة رأس السنة كم أتمنى أن تعود هذه الفراشة إلى الحياة لتطير أمامي لترشدني إلى الطريق القويم .

- ١١ -

استيقظت مرحاً وكأني قد استلمت هدايا عيد رأس السنة ، كانت الريـاح منعشة باردة والسماء صافية والبحر يتلألأ .

وتوجهت نحو ممر القرية ، لا بد وان التراتيل قد انتهت في هذا الوقت .

وبينما أنا أسير ، كنت أتساءل بيني وبين نفسي بشؤم وخوف ليس له أي مبرر عن الوجه الذي سيقع نظري عليه أول مرة . هل سيكون شؤماً أم فألاً حسناً ، هل سيكون طفلاً صغيراً يحمل هـــدايا رأس السنة . أو عجوزاً قوياً يلبس قميصاً ذو أكمـــاً واسعة مسروراً وفخوراً لأنه قد انجز واجبه كاملاً وبشجاعة . وكلما ازدادت قرباً من القرية كنت أزداد قلقاً وخوفـــاً لا مبرر له بالمرة .

وفجأة شعرت بان ضعفـــاً شديداً قد أصاب ساقي . فعلى نفس الطريق وتحت ظلال أشجار الزيتون ، بدت الأرملة تتهادى بخطى متزنة ، عاقـــدة شالها الأسود فوق رأسها وقد احمرت بشرتها، شامخة متوقدة .

كانت خطواتها المتزنة تشبه بحق خطوات نمرة سوداء ، وشعرت بان رائحه عابقة تملأ الجو . ليتني أقدر على الهروب . كانت هـــذه الفكرة تسيطر علي . فالوقوف في وجه هذا الحيوان غير مجـــدي وليس من الممكن الانتصار عليه والحل الوحيد هو الهرب . ولكن كيف الهرب والأرملة تقترب كل لحظة . وخيل إلي إلى الحصى تصر وكأن جيوشاً تدوسها . والتفتت نحوي ورنت إلي برأسها وانزلق شالها وبدا شعرها متلألئاً بلون الفحم . حدجتني بنظرة مبتسمة . كان في عينيها جمال وحشي ، وبمثل لمح البصر أصلحت من حال شالها . وكأنها خجلت من ظهور سرها الغريب : شعرها .

كم أحببت أن أكلمها وأن أتمنى لها « سنة طيبة » إلا ان حلقي بدا جافاً . كما كان تماماً يوم انهار النفق حيث تعرضت حياتي للخطر . وعلا صوت قصب

حديقتها، ووقعت أشعــة شمس الشتاء على زهر الليمون الذهبي والبرتقال وعلى الأوراق الداكنة اللون ولمعت الحديقة وكأنها جنة ذهبية .

وقفت الأرملة عند الباب ومدت ذراعها لتدفع الباب بشدة ، وفي هـــذه اللحظة مررت بقربها.ورنت إلي وراحت نظراتها تنساب فوق ملاعبة حاجبيها .

تركت الباب مفتوحاً وشاهدتها تتهادى مبتعدة، تتمايل بين أشجار الليمون .

كل ما كان علي هو أن أعبر الباب وأغلقه بالقفل وأجري وراءها وأتناولها من خصرها وأشدها نحو الفراش . فهذا يسمى تصرف الرجل الـكامل . وهذا ما كان يفعله جدي وأتمنى أن يتمثل حفيدي بجدي . أما أنا فظللت واقفاً أوازن الأمر وأنتظر ...

وهمست بيني وبين نفسي مبتسماً بألم « في حياة ثانية ... في حياة ثانية... سوف أتصرف على نحو أحسن من هذا » .

وعدت لأسير مبتعداً في الوادي المشجر ، شاعراً بثقل قلبي وخطواتي . كما لو انني قد انتهكت حرمة قدس الأقداس . ورحت أتجول هنا وهناك . كان الجو بارداً وكنت أرتعش . حـــاولت أن أبعـد من مخيلتي اهتزاز ردفي الأرملة ، وابتسامتها ونظرتها ونهودها . الا انها لم تفـــارق مخيلتي وشعرت بضيق شديد .

لم تكن أوراق الأشجار قد نمت بعد . إلا ان البراعم كانت قد ظهرت ، وبدت مليئة بالصمغ . كان كل برعم يظهر يعد بأزهار وثمـــار لا تزال مختفية تتجمع لتستعد للإنطلاق نحو الضوء . كانت هذه المعجزة الربيعية في سبيـــل الظهور تحت قشرة يابسة بصمت وسكون في الشتاء القارس .

وفجأة ارتفع صوتي بفرح وسرور . فأمامي وفي حفرة لا تصل لها الرياح ، شاهدت شجرة لوز قوية صامدة أزهرت في صميم الشتاء . لتفتح الطريق أمـــام باقي الأشجار مبشرة بقدوم الربيـــع .

أحسست براحة غريبة ، وأخذت نفساً عميقـــاً من تلك الرائحة القوية . وخرجت عن الطريق لأرتمي على العشب تحت الأغصان المزهرة .

بقيت هناك وقتاً ، من غير أن أشغل فكري بأي شيء . مسروراً ، كأنني كنت مستلقياً في جنون الأبدية ، وتحت احدى أشجار الجنة .

وفجأة أيقظني من غفوتي صوت غليظ :

– ما الذي تفعله في هذه الحفرة أيها الرئيس ؟ منذ مدة طويلة أفتش عنك ، لقد قارب الوقت الظهر ... تعال .

– إلى أين ؟

– إلى أين ؟ وتسأل أيضاً ، إلى بيت صاحبة الخنزير الجديد . ألا تشعر بالجوع . ان الخنزير قد خرج من الموقد ويا لرائحته اللذيذة أيها الصديق .. حتى ان لعابك يسيل ... هيا .

وانتصبت ولمست غصن شجرة اللوز الصلب ، الذي يحوي السر الغريب الذي انجب هذه الأزهار . تقدمني زوربا بخطى ثابتة يمني نفسه بالطعام الجيد . فبنظره ان ضروريات الانسان هي : الطعام ، الشراب ، المرأة والرقص . هذا بالنسبة لزوربا وهو لا يزال قادراً على القيام بها جميعاً . وكان يحمل بيده لفة ربطت بخيط وردي وذهبي فسألته مازحاً :

– ما هذا ؟ هدية ؟ .

فانفجر زوربا ضاحكاً ، وقال محاولاً اخفاء عصبيته ودون ان ينظر إلي :

– أجل ... لتشعر بالسعادة.. المسكينة فهذه ستعيد لذاكرتها الايام الغابرة الجميلة . انها سيدة ، لذلك فهي دائمة الشكوى كما سبق وقلت هذا مراراً .

– هل هي لوحة ؟

– ستعرف .. ولكن كن صبوراً . لقد قمت بها شخصياً .. هيا لنعجل .

كانت أشعة الشمس الدافئة تدخل البهجة الى القلب ، والبحر الساكن يركن تحت هذه الاشعة هادئاً سعيداً . وفي البعيد انزوت الجزيرة الفاصلة محاطة بسحاب خفيف ، حيث بدت كأنها تعوم في البحر .

وعندما اقتربنا من القرية همس زوربا قائلا :

– أتعلم ايها الرئيس ؟ الأرملة التي تكلمنا عنها كانت هناك في الكنيسة . كنت منتصباً في الصفوف الامامية . الى جانب المنشد ، عندما بدت لي جميع الأيقونات المقدسة تلمع بوهج غريب وكذلك الرسل الإثني عشر . فهمست في نفسي « أهي الشمس ؟ » ونظرت حوالي فوجدت الأرملة .

فاجبت وانا أوسع الخطى :

– لقد تحدثنا بما فيه الكفاية يا زوربا .. هيا .

– لقد شاهدتها عن قرب ، فعلى خدها يرتاح خال جميل . إنها لتأخذ

عقلك . يا له من لغز هذا الخال ، وخصوصاً على وجنات السيدات .
ولمع بريق عينيه متابعاً :
– هل جربته أيها الرئيس ؟ تشعر بالبشرة ناعمة عذبة ، وفجأة ترى بقعة صغيرة سوداء ، أليس هذا يكفي ليسلب عقلك ؟ أتعرف هذا ايها الرئيس ؟ اخبرني ما الذي قرأته في كتبك .
– فلتذهب كتبي إلى الجحيم .
وقهقة زوربا ضاحكاً وقال :
– حسناً ، لقد بدأت تدرك !
وتخطينا المقهى دون ان نقول كلمة .

كانت السيدة الطيبة قد أعدت لنا خنزيراً صغيراً مشوياً ، ووقفت على المدخل تنتظرنا . وكان يحيط بعنقها ذلك الشريط الأصفر الباهت ، وعلى وجنيتها ذلك المسحوق الداكن . أما شفتاها فكانت قد غطتها بطبقة حمراء كثيفة وكانت تبدو فارغة الصبر ، وما ان وقع نظرها علينا حتى بدأ جسدها كله يرتعش بسرور وبهجة ولمعت عيناها وتعلقتا بشارب زوربا المتعالي .
أغلق زوربا باب الحديقة وأحاط خصرها بذراعيه وطبع على صدرها السمين قبلة ناعمة قائلاً :
– سنة طيبة يا دجاجتي ... لنرى ما الذي جلبته لك .
وشعرت العجوز برعشة لذيذه . لأن عيناها كانتا معلقتين بلفة زوربا . فأمسكت بها وفكت الخيط والقت نظرة وصرخت مسرورة . وانحنيت بدوري لأنظر .

كان زوربا اللعين قد رسم بنفسه بالألوان ، الداكنة ، الشقراء ، الرمادية والحمراء ، اربعة بوارج بحرية مزخرشة راسية في بحر ازرق ، وقرب هذه المدمرات تسبح فتاة ناصعة ، عارية ، شعرها فوق صفحة الماء ، ذات صدر عارم ولها ذيل سمكة دائري الشكل ويتدلى من عنقها شريط أصفر جميل . وهذه الفتاة تمثل السيدة هورتنس . وكانت الفتاة ممسكة باربعة حبال كل منها مشدود إلى بارجة ، والبوارج الأربعة كان يرفرف عليها علم انكلترا ، روسيا ، فرنسا وإيطاليا . وفي زاوية رسم لحى ، داكنة ، شقراء ، رمادية وحمراء .
وادركت المغنية المتقاعدة ما الذي عناه زوربا ، فأشارت إلى الفتاة قائلة

بفخر واعتزاز :

– هذه أنا !

وتابعت متنهدة .

– آوه .. لقد كنت انا أيضاً دولة قوية .

وتناولت مرآة صغيرة من فوق فراشها ، حيث كان الببغاء . وعلقت مكانها لوحة زوربا . كنت أكيداً بان خداها قد شحبا تحت ذلك المسحوق السميك .

كان زوربا في هذا الوقت قد تسلل إلى داخل الغرفة ، فقد كان جائعاً . وعاد مسرعاً يحمل طبق الخنزير ، وأمسك بزجاجة الخمر وملأ الكوؤس الثلاثة .

وصفق بيديه صائحاً :

– تعالوا إلى المائدة ، ولنبدأ بما هو أهم ، المعدة ، ومن ثم سننحدر إلى أسفل.

إلا ان الجو كان مكهرباً بسبب تنهدات العجوز المتلاحقة . فهي أيضاً عند بداية كل سنة ، يوم حسابها ، فتلقي نظرة على حياتها فتجدها تائهة . فخلف شعرها الخفيف كانت تقوم من قبور ذكرياتها ، المدن الكبيرة ، الرجال ، الأثواب الحريرية ، زجاجات الشمبانيا واللحى المعطرة .

وتمتمت بدلال :

– ليس عندي أي شهية للطعام بالمرة ... بالمرة .

وركعت قرب المدفأة وحركت الجمر ، وعكست وجنتاها لهيب النار وانسدلت بضع شعرات فوق جبينها ولامست اللهب ، فعبقت الغرفة برائحة الشعر المحروق . وعادت لتهمس ثانية بعد ان شعرت باننا لم نهتم كثيراً بها .

– لن آكل ... لن آكل ...

وشد زوربا على قبضته بصلابة وبدا متردداً . فهو يستطيع تركها تتشاكى ويتابع طعامه دون أن يلتفت اليها . وهو قادر أيضاً على أن يركع بقربها وبكلمتين ناعمتين يعيد لنفسها البهجة ونظرت نحوه فلاحظت في قسمات وجهه صدى تلك الانفعالات التي تتراكم داخله .

وبدون سابق انذار تصلب وجهه وكأنه عزم على شيء . وركع وقال بصوت كله ألم وأمسك بركبتي السيدة :

– ان لم تشاركينا الطعام يا بوبولينتي ، فستكون نهاية كل شيء ، فاشفقي

علينا يا عزيزتي وكلي فخذ الخنزير الصغير هذه .

ووضع في فمها قطعة اللحم التي كانت تسيل منها الزبدة.وأخذها بين ذراعيه وحملها وأجلسها برفق على كرسيها بيننا نحن الأثنين .

– كلي ... كلي ... يا كنزي .. كلي ليأتي القديس باسيل لقريتنا ، فإن لم تفعلي فلن يأت هنا بالمرة . وانت تعرفين هذا . ويرجع إلى بيته في القسطنطينية ليسترجع . القلم والدواة ، كعكات الرسل وهدايا العيد ولعب الأطفال وحتى سيأخذ هذا الخنزير أيضاً . هيا افتحي فمك وكلي .

ومد يده ودغدغها ، هدأت العجوز قليلاً وراحت تأكل الفخذ الصغير ببطء ودلال . وفي تلك اللحظة علا مواء قطين عاشقين من على السطح فوق رؤوسنا . كانا يموءان بحقد غريب ، ويرتفع صوتهما وينخفض يكتنفهما التهديد والوعيد . وفجأة سمعناهما يتدحرجان فوق السطح ليمزقا بعضهما شر تمزيق ...

التفت زوربا نحو العجوز وغمزها بعينه وصاح ..

– مياو ... مياو ...

فانفرجت أساريرها وضغطت على يديه تحت الطارلة وارتاح فمها قليلاً ، ومن ثم عادت لتأكل بشهية .

كانت الشمس تدور ودخلت علينا من النافذة وارتاحت عند قدمي السيدة المتصابية في هذا الوقت كانت زجاجة الخمر قد فرغت . اقترب زوربا من السيدة ممسكاً بشاربيه ، اللذين كانا كشاربي قط بري . شعرت هي بذلك فتقوقعت على نفسها مرتعشة وقد غاص رأسها بين كتفيها . والتهبت أنفاسها ، فقال زوربا :

– يا لهذا اللغز أيها الرئيس ! كل شيء يعاكسني . عندما كنت صغيراً ، كنت أشعر بأنني عجوز هرم . لاني عندها كنت سمجاً قليل الكلام وكان صوتي أجشاً كصوت رجل ناهز السبعين . وكان يقال بأني أشبه جدي . إلا أنني كلما كنت أكبر كان يزداد طيشي وعندما وصلت العشرين قمت بحماقات كثيرة ، كما يفعل كل من بهذا العمر . أما في الأربعين فقد بدأت أشعر بأني قد وصلت إلى مرحلة الشباب الكامل ، عندها رحت أرتكب الحماقات الضخمة . أما الآن وفي الستين .. بل الخامسة والستين ، وهذا بيننا أيها الرئيس . والآن وفي الستين أشعر وأقسم لك على هذا ، بأن العالم قد بدأ يصغر في نظري . كيف تفسر هذا أيها الرئيس ؟

ورفع كأسه ونظر نحو السيدة قائلاً بصوت وقور :

– في صحتك يا بوبولينتي . أتمنى لك في هذه السنة أن تظهر لك أسنان جديدة وحاجبان ناعمان . وأن ترجع لك بشرتك غضة كقشرة ثمرة الدراق . عندها سترمي هذه الشرائط الصغيرة . كما أتمنى لك ثورة ثانية في كريت، لتعود الدول الكبرى الأربع ، بجيوشها وبوارجها ، وأن يكون لكل بارجة أميرالها ولكل أميرال لحية مجعدة معطرة ، وأن تظهري أنت من بين الأمواج لتنشدي أغنيتك الناعمة العذبة .

وأسرع وأرخى يديه فوق صدر السيدة المتهدل . عندها اختفى صوت زوربا وملأته الرغبة . وغلبني الضحك . لقد شاهدت مرة فيلماً يصور أحد بشوات تركيا جالساً في حانة في باريس تجلس على ركبتيه فتاة شقراء . وعندما حرقته نار الشهوة أخذت شرابة طربوشه بالانتصاب رويداً رويداً حتى استوت أفقياً ثم وبمثل لمح البصر انتصبت عامودياً في الهواء .

غرقت في الضحك ، الا أن زوربا سألني :

– ما الذي يضحكك أيها الرئيس . ؟

خلال هذا ، كانت السيدة العجوز لا تزال مأخوذة بكلمات زوربا ، فقالت :

– أوه .. هل هذا ممكن يا زوربا ، ان الشباب ينطوي الى غير رجعة .

واقترب زوربا أكثر حتى لامس مقعده كرسيها . وقال محاولاً أن يفك الزر الثالث والأخير في سترة السيدة هورتنس :

– اصغي إلي يا دجاجتي . اصغي إلى هذه الهدية الثمينة التي سأقدمها لك . يوجد الآن دكتور يحقق المعجزات . فهو يزود من يريد بعلاج سائلاً أو مسحوقاً، لا أذكر ، يجعل الإنسان يعود إلى شبابه، إلى العشرين مثلاً أو الخامسة والعشرين. لا تنتحبي ، يا حبيبتي سأحضر لك منه من أوروبا .

وتحركت المغنية المتصابية ، وتلألأ لون بشرة رأسها الأحمر الظاهر بين خصلات شعرها الباقية ، وطوقت عنق زوربا بذراعيها الثقيلتين وهمست وهي تمسح ارنبة أنفها بجسد زوربا كأنها قطة :

– اسمع يا عزيزي ... إذا كان سائلاً فاجلب لي منه زجاجة كبيرة ، وإذا مسحوقاً ... كيساً كبيراً ..

عندها عاد القطان إلى المواء من جديد ، كان أحدهما يئن متوسلاً والآخر هائجاً متوعداً ...

وتثاءبت السيدة وأسبلت جفنيها وجلست على ركبتي زوربا قائلة :

– أتسمع هذه القطط القذرة ؟ انها لا تخجل .

وتركت لجسدها العنان ليتمدد فوق زوربا . كانت قد شربت أكثر من طاقتها .

وأغمضت عينيها . فتناول زوربا صدرها بين يديه قائلا :

– بم تفكرين يا قطتي ؟

فهمست العجوز وكأنها تئن .

– الأسكندرية ... بيروت ... القسطنطينية ... أتراك وعرب ... خمر وملابس فاخرة وطرابيش حمراء قانية ...

وتنهدت ثانية .

– عندما كان علي بك ينام عندي ... يا له من شارب وحاجبين وذراعين . كان يطلب عازفي الطبل والزمر ويرمي لهم النقود من النافذة ، فيبدأون العزف قرب منزلي حتى ينبلج الصباح . وجاراتي يمتن من الحسد ويعلنّ « ان علي بك يبيت الليلة عند هذه السيدة أيضاً » . وبعد هذا في القسطنطينية . لم يكن سليمان باشا يسمح لي بالتنزه يوم الجمعة . كان يخاف أن يقع نظر السلطان علي وهو في طريقه إلى المسجد ، فأسلب لبه ويأمر بخطفي . وعندما يخرج صباحاً من منزلي يأمر ثلاثة عبيد أن يقفوا ببابي وأن لا يسمحوا لأي شخص أن يقترب ... اوه يا لصغيري سليمان .

وتناولت من تحت سترتها منديلا كبيراً محلى بالمربعات الواسعة ووضعته بين أسنانها وراحت تتنهد بقسوة كأنها سلحفاة بحرية .

انفلت زوربا منها ، بعد أن أجلسها على كرسيها ، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بقلق باد . وفجأة شعر بأن الغرفة قد أصبحت ضيقة جداً . فتناول عصاه وأسرع نحو الحديقة . وضع السلم الى الحائط وتسلقه درجتين درجتين إلى السطح . فصرخت به :

– من الذي ستضربه ؟ سليمان باشا ؟ !

فصاح حانقاً :

– هذان القطان القذران ، فهما لا يريدان أن يدعانا بسلام .

وبمثل لمح البصر أصبح فوق السطح . كانت السيدة زوربا مغمضة العينين ، ثملة ، شعثاء الشعر . لقد طار بها النوم إلى المدن الشرقية الكبيرة ، الى الحدائق المسيّجة ، وغرف الحريم المعتمة في دور الباشوات المغرمين . ووجدت نفسها فوق البحر لترمي شباكها لتصيد أربعة بوارج .

وعلت شفتي العجوز ابتسامة خطرة بعد أن غسلتها مياه البحر الدافئة .

ودخل زوربا يهز عصاه . فعندما شاهدها نائمة قال :

– تففو .. تففو ، يا لها من فاسقة .

– أجل لقد أخذها الدواء الذي يعيد الصبا للعجز يا زوربا باشا . أجل انها نائمة . انها في العشرين الآن تتجول في الاسكندرية وبيروت .

فتمتم حانقاً وباحثاً على الأرض :

– لتذهب إلى الجحيم .. هذه العجوز القذرة .. انظر كيف تبتسم .. هيا لنذهب أيها الرئيس .

وتناول قلنسوته وفتح الباب فقلت :

– نأكل كالخنازير ، وثم نذهب وندعها وحيدة ، هذا غير معقول .

فصرخ زوربا :

– انها ليست وحيدة .. انها ترافق سليمان باشا .. ألا ترى انها تحلق في السماء السابعة ، هذه المرأة الفاسقة . هيا دعنا نمشي .

وتوجهنا الى الخارج . كان القمر يتمايل بهدوء في صدر السماء . فقال زوربا بقرف :

– يا للنساء .. أف لهن . إلا انها ليست غلطتهن ، بل غلطتنا نحن الأغبياء، المجانين . كل الذين مثلنا ، أنا وسليمان باشا .

وصمت برهة ثم أضاف :

– بل انها ليست غلطتنا .. بل غلطة شخص واحد ، غلطة الغبي الكبير ، سليمان باشا الكبير .. انت تعرف من أعني .

– هذا اذا كان له أي وجود ... ولكن إذا لم يكن موجوداً ؟

– عندها نكون قد هلكنا .

مشينا بخطوات واسعة لمدة غير قصيرة دون أن نتفوه بكلمة . كنت متأكداً

بأن زوربا كان يجول في عقله أفكاراً وحشية . فقد كان يضرب الحصى بعصاه ويبصق . وفجأة نظر إلي :

– لقد كان جدي ، رحمه الله ، عليماً بالنساء ، كان يعشقهن كثيراً . فقد خبر منهن الناضجة والفجة . وكان دائماً يقول : « اسمع يا زوربا اني أمنحك مع بركتي نصيحة : « لا تضع ثقتك في امرأة ، فعندما قرر الإله أن يخلق حواء من ضلع آدم انقلب الشيطان إلى ثعبان وخطف الضلع ، فأسرع الرب ، إلا ان الشيطان الخبيث تملص من بين يديه ولم يترك إلا قرونه . فقال الرب في نفسه : « ان ربة المنزل الحقة إن لم تجد مغزلا غزلت خيوطها على ملعقة » . وهذا ما سأفعله أنا ، فسأخلق المرأة من قرون الشيطان .. وهكذا خلقها ، ليشقينا يا ألكسيس . اذن فعندما نلمس جسد المرأة من أي مكان ، نكون نلمس الشيطان ذاته . خذ حذرك منهن ، فحواء أيضاً التي سرقت تفاح الجنة وأخفته في صدرها . وهكذا فهي تزهو فيه الآن . انها الطاعون بنفسه ، فلو أكلت يا بني من تلك الثمرات فستموت . وإن لم تأكل ستموت أيضاً . فماذا تريدني أن انصحك به « اعمل ما تريد » .

هذا ما قاله لي جدي ، إلا انني لم أعقل ، بل سرت على دربه الذي سار فيه ووصلت إلى هذه الحالة ».

مررنا بالقرية بمثل لمح البصر . كان ضوء القمر شاحباً . تصور بعد أن شربت قد ثملت وخرجت لاستنشاق الهواء المنعش ، تجد بأن الدنيا قد تبدلت تماماً. الطرق أصبحت أنهاراً من اللبن، والأخاديد مملوءة بالكلس.والتلال تغطيها الثلوج . وتشاهد وجهك ويديك تلمع كالفوسفور الموجود في الأصداف . أما القمر فهو كوسام دائري الشكل معلق فوق صدرك .

كنا نمشي بخطى موزونة بسكون وهدوء. ولم نكن نشعر بأننا نلمس الأرض بأقدامنا ، بعد أن شربنا تلك الكمية من الخمر وشعرنا بالنشوة الكبيرة . كانت الكلاب قد اعتلت فوق سطوح بيوت القرية ، وراحت تعوي بألم ويأس كأن عيونها قد شدت إلى القمر المتلألىء . وبدون أي شعور أحسسنا برغبة جامحة بالعواء نحن أيضاً .

اجتزنا حديقة الأرملة ، وتوقف زوربا ، بعد أن لعبت الخمرة برأسه ، ومد عنقه ، وبصوت جاف كأنه صوت حمار ، نهق بيتين من الشعر جادت بها

قريحته . ومن ثم قال :

– انها من مخلوقات قرون الشيطان . لنمش أيها الرئيس .

كان الفجر على وشك الانبلاج عندما وصلنا إلى الكوخ . فارتميت على فراشي بينما راح زوربا يغتسل ، ومن ثم أضرم النار في الموقد وراح يعد القهوة .وجلس على باب الكوخ يدخن سيجارته بهدوء وسكون . كان يبدو مستقيماً صلبـــاً . كان مثبتاً نظره إلى البحر . كان وجهه يشبه إلى حد بعيد لوحة يابانية لناسك يجلس متصالب الساقين ووجهه يتلألأ كأنه منحوت من المرمر بمهارة لا تحـــد ، وهو ينظر باستقامة دون خوف أو وجل ، إلى البحر الداكن العجيب ...

كنت أراقب زوربا تحت ضوء القمر الخافت ، كنت أعجب بهذا الكون ، وكيف كان باستطاعـــة زوربا ان يجمع فيه كبريائه الذي لا يحد وبساطتـــه اللامتناهية ، وكيف يشكلان في داخله مركباً منسجماً مع كل الأشياء الضرورية ، المرأة ، الطعام والشراب ، اللحم والنوم ، وكيف كل هذه الأشياء تمتزج لتشكل زوربا . لم أعاين في حياتي مثل هذا الاتفاق بين البشرية والطبيعة .

كان القمر قد بدأ يغيب ، بعـــد أن تحول لونه إلى الأخضر البـاهت . وعلت البحر عـذوبة فائقة .

ورمى زوربا سيجارته ، ومد يديه وراح يبحث في السلة ، فتنـاول بعض الخيوط والبكرات وبعض القطع الصغيرة من الخشب ، وأشعل مصباح الزيت ، وراح يقوم من جديد ، بتجاربه من أجل المصعد . وغاص في حساباتـه الصعبـة القاسية ، لأنه كان بين الفينة والفينة يتوقف ليسب ويحك رأسه بتفكير عميق .

وفجأة شعر بانه قد قام بما يكفي من مجهود ، فوجه إلى المصعد الصغير رفسة قوية جعلته يتحطم ويتناثر فوق الأرض .

- ١٢ -

غلبني النعاس ، وعندما استيقظت في الصباح كان زوربا قد خرج ، كان الجو بارداً ولم تكن لدي أي رغبة لمغادرة الفراش . ومددت يدي إلى رف صغير فوقي وتناولت كتاباً قد احضرته معي وكنت مغرماً به ، كان كتاب لأشعار « باللارمية » وبدأت اقرأ ببطء دون تركيز ، واغلقت الكتاب ثم فتحته من جديد ثم رميت به بملل . لقد بدا لي هذا الكتاب ، وللمرة الأولى ، فارغاً دون معنى ، ينقصه الكثير من المادة والمعنى . كأنها تتارجع بالهواء ، كلمات زرقاء فوق صفحات باهته ، لا تتخللها أي نغمة من نغمات الروح والحياة .

في الأديان التي ينقصها الكثير من المادة الخلاقة ، تكون الآلهة مغلوبة على أمرها ، ولا تبدو أكثر من كلمات شعرية أو أدوات لا تصلح لغير زخرفة الجدران ، ان مجرد النظر إلى باطن الإنسان الملىء بالقدور قد اصبح مجرد لعبة عقلية لا تقع في اي غلط إلا انها معقدة جداً .

وفتحت الكتاب وبدأت القراءة من جديد. لماذا هذه اشعار كانت تعجبني، هذه الاشعار الناعمة . الحياة تحولت إلى لعبة عقلية . خفيفة لا تبدو ثقلية حتى ولا بنقطة دم . إن الإنسان قرب بالرغبة ، الكره ، الدنس ، الحب ، الجسد والصياح . فكيف إذن يستطيع أن يتجرد من فكرة الصعود ؟ وكيف يستطيع ان يتخلى عن ماديته في متاهات الأفكار المتصاعدة ، وثم يختفي ؟

ان كل هذه الأشياء التي جعلتني سجينها لمدة طويلة ، تبدو الآن مجرد ألاعيب وأحاجي . هكذا دائماً ينتهي خوف الإنسان عند نهاية كل جيل وحضارة. ينتهي إلى ألاعيب وأحاجي . ان الشعر المركز والموسيقى المركزة ، والفكر المركز والإنسان الأخير الذي استطاع ان يتجنب ويتخلص من كل اخلاص وخوف . فهو يرى الطين الذي خلق منه قد تحوّل إلى فكر ، إلا ان الفكر لا يجد المكان المناسب الذي يمد فيه جذوره ليستطيع ان يعيش طويلاً .

ان الإنسان الأخير قد أصبح فارغاً لم يعد يحوي لازرعاً ولا جذوراً ولا دم حتى ولا قاذورات . ان كل هذه الأشياء قد تحولت إلى كلمات فارغة وهذه الكلمات ليست إلا احاجي موسيقية . ان هذا الإنسان الأخير سيحاول ان يسير أبعد من هذا ، فهو سيقف عند نهاية وحدته ، ويبدأ تحليل الموسيقى ويحاول تحويل النوته الموسيقية إلى معادلات ونظريات رياضية ساكنة .

وبدأت . « ان بوذا هو الانسان الأخير » هذا هو سره المرعب والمخيف، ان بوذا هو تلك الروح الصافية التي جوفت نفسها ولا يوجد بداخلها غير العدم فهو يصرخ « فرغوا اجسادكم ، وارواحكم وقلوبكم » . واينما تقع قدمه ، لا تعد المياه تنساب ، والعشب لا ينمو والأطفال لا تولد .

رحت أفكر ، « يجب ان احضر كلمات قوية ، وحتى استنجد بنوته سحرية لأحاصره ولأرميه بقوى قادرة. فألقي به خارج احشائي . ارميه بقوى سحرية لأمسك به واحرر نفسي .

ان كتابة بوذا لم تعد مجرد تمارين أدبية . لقد اصبحت كفاحاً بين الموت والحياة ضد قوة جبارة تضج في صدري. « مبارزة ضد الـ « لا » التي كانت تتأكل قلبي . وعلى نتيجة هذه المبارزة تتوقف حل مشكلة روحي » .

وبسرور وصلابة تناولت المخطوطة ، لقد وجدت هدفي وأعرف الآن تماماً لمن يجب ان اوجه قوتي وضرباتي . بوذا كان الإنسان الأخير . نحن الآن عند البداية فقط . فنحن لم نأكل ، أو نشرب أو نحب بما فيه الكفاية . إذن فنحن لم نعش ، فهذا الرجل العجوز التعب قد جاءنا قبل الأوان ، فيجب علينا ان نطرده بأسرع وقت ممكن .

كلمت نفسي ورحت اكتب ، ولكن لا ، لم تكن هذه مجرد كتابة ، كانت حرباً ضروساً ، مطاردة دون رحمة ، حصار لا خراج الوحش من مخبأه . ان الفن نفسه في الواقع ليس نغمة سحرية . ان في داخلنا قوى قاتلة تدفع إلى القتل والهدم والحقد والضغينة . عندها يبدو الفن بشبابه الصلب ليساعدنا .

كتبت وطاردت وقاتلت طوال النهار ، وعند المساء كان التعب قد انهكني. إلا انني شعرت بتقدم ، واستطعت ان اسيطر على مراكز أمامية للعدو ، كم اتمنى ان يسرع زوربا لأستطيع ان أتناول طعامي لأنام ولأتزود بقوى جديدة ، لأتابع المعركة في اليوم التالي .

كان الظلام قد بدأ يرخي سدوله عندما رجع زوربا كان وجهه يتلألأ : فقلت في نفسي « لا بد وانه قد وجد جواباً للشيء الذي يريده ، وانتظرت .

لقد بدأت أشعر باني لم أعد صبوراً معه ، فمنذ بضعة أيام قلت له :

– زوربا . ان المال الذي معي قد بدأ ينضب ، فكل ما تريد ان تفعله يجب ان تفعله بسرعة . دعنا نسرع بالبدء بهذا المصعد،إذا كنا لن ننجح بالفحم، لنعمل بالخشب وإلا سنفلس .

وضع زوربا يده على رأسه قائلاً :

– المال يتناقص أيها الرئيس ! هذا شيء خطر .

– لقد كان ما كان ، فقد صرفنا كل ما نملك تقريباً . على كل ، ما الذي حل بتجارب المصعد ، ألم تصل إلى نتيجة .

طأطأ زوربا رأسه دون ان يتفوه بكلمة ، لقد شعر بالحرج في ذلك المساء فراح يدمدم « سأجدك ايها الخبيث ... ايها المصعد القذر » . وهذا المساء عاد مسروراً ، ليقول :

– لقد توصلت إلى الإنحدار اللازم أيها الرئيس . لقد كان بين يدي ، دون أن استطيع ان اقبض عليه هذا اللعين ، إلا انني اخيراً تغلبت عليه .

– إذن لنسرع بالعمل بعجلة . اطلق النار ، ما الذي تحتاجه أيضاً .

– يجب ن اتوجه غداً باكراً إلى المدينة لأحصل على بعض المواد اللازمة ، حبالا فولاذية ، اكرات ، عدة ، مسامير وكاشات . وسأعود بسرعة غريبة .

أضرم النار بسرعة ومن ثم أعد الطعام وتناولنا الطعام وشربنا بشهية ، فقد عملنا كلانا بجهد ونشاط هذا اليوم .

وفي اليوم الثاني سرت بسرعة مع زوربا حتى القرية وبينما كنا نهبط منحدراً، اطمت قدم زوربا حجراً صغيراً ، الذي راح يتدحرج . توقف زوربا وراح يراقبه بذهول وكأنه ، وللمرة الأولى ، يراقب مثل هذا المنظر . ونظر إليّ ولمحت في نظرته التعجب والخوف ، وبعد لحظة قال :

– هل راقبت هذا أيها الرئيس . ان هذه الحجارة تصبح وكأنها حية عبر المنحدر .

لم أرد ، إلا ان سروري كان كبيراً ورحت احدث نفسي « هكذا كان الباحثين الناجحين ، والشعراء الأفذاذ يراقبون هذه الأشياء ، وكأنهم يرونها

للمرة الأولى ، كأنهم يشاهدون عالماً جديداً كل لحظة .

لقد كان هذا العالم ، بالنسبة لزوربا ، كما كان يراه البشر الأقدمون ، كثيفاً وسمجاً ، فالنجوم تسبح فيه ، والبحر يتحطم على شواطئه . فهو يحيا مع الأرض ، الماء ، الحيوانات والله ، دون ان يتدخل ذلك العقل في حياته .

كانت السيدة هورتنس قد علمت بسفر زوربا . فوقفت تنتظرنا عند مدخل منزلها تعلو وجهها المراهم والمساحيق . كانت قد تبرجت كما لو انها قد حضرت نفسها لحفلة شعبية. وكانت المطية عند الباب ، فأمتطاها بسرعة وتناول اللجام .

اقتربت السيدة العجوز بحياء واتكأت بيدها الثقيلة على البغلة . كأنها تود أن تمنع عشيقها من الرحيل . ونادت وهي ترتفع فوق أصابعها :

— زوربا . زوربا

لم يلتفت زوربا اليها ، فقد كان لا يحب المزاح الغزلي في الطريق العام .

لاحظت السيدة عدم اهتمام زوربا بها فارتعشت ، إلا انها ظلت متكئة بيدها ، كانها تتضرع . فقال زوربا بانزعاج .

— ما الذي تريدينه ؟

فهمست كأنها تصلّي :

— كن طيباً ... لا تنسني ... كن طيباً .

ودون ان يقول كلمة ، لوى زوربا العنان وبدأت المطية تسير فصرخت :

— وفقك الله يا زوربا ، لا تغب أكثر من ثلاثة أيام .. أتسمع ؟

ونظر زوربا إلينا ولوّح بيده الكبيرة . وفي هذا الوقت كانت الدموع التي تنهمر من عيني السيدة العجوز تحفر خطوط في المساحيق التي تعلو وجهها ورد زوربا بصوت مرتفع :

— إعطيك كلمتي ايها الرئيس ، هذا كفاية ... إلى اللقاء .

وراح يتلاشى تحت أغصان الزيتون ، بينما كانت السيدة هورتنس تبكي وتنظر إلى الغطاء القماشي الأحمر الذي وضعته فوق البغلة ليرتاح فوقها زوربا . كان يختفي ومن ثم يبدو من بعيد ، وبعد قليل تلاشى تماماً . وتلفتت السيدة هورتنس حولها وشعرت كأن العالم تراجع فارغاً .

* * *

لم أعد إلى الشاطيء ، لقد شعرت بالكآبة وتوجهت نحو الجبال . وعندما وصلت إلى منحدر الجبل تناهى لسمعي صوت بوق ساعي البريـد ، فهو يعلن عند قدومه بواسطته ، فناداني ملوحاً بيده .

– ايها الرئيس ! . .

واسرع نحوي وناولني لفة جرائد ومجلات أدبية ورسالتين وبسرعة وضعت احداها في جيبي لأقرأها عند المساء حيث اتفرغ لها . لقد كنت أعلم من كتب إليّ وأريد ان أؤجل سروري وأطيله كي أشعر به اطول مدة ممكنة .

أما الرسالة الثانية فقد عرفتها من خطها الغليظ وطوابعها الغريبة الشكل . فهي وصلتني من افريقيا من مرتفع مقفر على مقربة من تانجانيقا . بعث بهـا لي احد رفاق الدراسة ويدعى كارايانيس ، انه شاب غريب الأطوار قاس ، اسمر البشرة مع اسنان حادة وناصعة البياض . وانيابه بارزة كحيوان بري . كان كل حديثه صراخاً . ومناقشته خصاماً . وكان قد ترك جزيرة كريت بعد ان كان يدّرس الكهنوت وهو لا يزال شاباً . فقد فاجأه بعضهم يداعب احدى تلميذاته في الحقل متعانقين فراحوا يسخرون منه . فأضطر لـترك ثوبه الكهنوتي وسافر إلى افريقيا حيث اقام عند عمه واشتغل هناك واسس معملاً لصنع حبال البواخر وكسب ثروة طائلة . ومن وقت لأخر كان يكتب إليّ ويدعوني لقضاء مـدة ست أشهر عنده . كنت أشعر عندما أفض رسالته ، بل وقبـل ان اقرأها باني ارتفع عبر الصفحات المحشوّة والسطور المتصـلة بالحبال ، واشعر بشعري يتطاير . كنت دائماً أعقـد العزم على السفر إلى افريقيا ، إلا انـني لم اسافر مطلقاً .

تنحيت عن الطريق وجلست على صخرة قريبة وبدأت اقرأ هذه الرسالة

« متى ستقرر وتأتي لعندي ، انت ايها الصدفة الملصقة بصخور اليونان ؟ انت ايضاً أيها اليوناني قد تحولت إلى أحد هولاء اليونانيين من رواد المقاهي انك لا تريد ان تفكر اكثر من ان المقاهي هي مقاهي ، والكتب ، والعادات وافكارك المعروفة أيضاً . اليوم أحـد وليس عندي شيء لأعمله . انني الآن في عقاري وافكر بك . الشمس هنـا كأنها أتون ، ولا يوجـد حتى ولا نقطة مطر . هنا عنـدما ينهمر المطر خـلال نيسان ، أيار وحزيران يتحـول إلى طوفان » .

« أنني وحيد ، وأنا أحب ذلك ، يوجد هنا عدد غير قليل من اليونانيين (الا يوجد مكان لا يذهبون اليه ؟) ولكني لا أريد ان اعاشرهم ، انهم يحملوني اشعر بالغثيان . لانكم ايها المواطنون الصالحون ، (لتذهبوا إلى الجحيم) قد ارسلتم لنا ، حتى إلى هنا مشاكلكم ، وأراءكم السياسية . وهذا الذي يدمر اليونان .. السياسة . ويوجد هنا لعب ورق ايضاً ، والجهل وخطايا الجسد .

« اني احتقر الأوروبين ، لهذا فأنا اتجول عبر جبال « او زومبارا » . إني اكره الأوروبين ، والذين اكرههم أكثرهم اليونانيين وكل شيء يمت إلى اليونان . سوف لن اضع قدمي في اليونان من جديد ، هنا سوف أموت . لقد اعددت قبري من الآن قرب كوخي ، هنا في الجبال الوعرة . حتى انني قد اعددت اللوحة التي ستوضع على قبري وقد كتب عليها بأحرف كبيرة ظاهرة .

« هنا يرقد اليوناني الذي يكره اليونانيين » .

« انني أكاد اقهقه وأتف وأسب وثم تنهمر دموعي عندما أفكر باليونان . لقد تركت وطني كي لا أشاهد اليونانيين وكل ما يمت لليونان بصلة لقد اتيت إلى هنا ، قدري جاء بي ، كلا ليس قدري الذي أتى بي ، فالانسان يفعل ما يريد . جئت بقدري ، وعملت كأني عبد . لقد سال مني ، ولا يزال ينسال مني عرقاً كثيراً . إني اكافح ضد الأرض ، الهواء والمطر ، والعمال السود والهنود .

« لا أشعر بأي متعة ، أجل بل هناك متعة واحد هي متعة العمل ، أعمل بكل حواسي واعضائي وبجسدي على الأخص ، كم احب أن اشتغل وان ينصب مني العرق وان يتناهى لسمعي صوت عظامي . أحاول قصارى جهدي ان اصرف مالي واضيعه كما أريد. فأنا لست ممن يستعبدهم المال ، بل أنا استعبده الا ان العمل استعبدني ، وأنا فخور بذلك ، فأنا استثمر الاشجار وقد حصلت على عقد مع الانجليز . واصنع الحبال وازرع القطن أيضاً .

« امس مساء ، وقع اشتباك بين قبيلتين من عمالي السود ، الوايا والونفوني وكل ذلك من أجل امرأة . تماماً كما في اليونان شتائم ، ومشاكل وبعدها الاشتباك شجوا رؤوس بعضهم من أجلها . واسرعت النساء لإحضاري في نصف الليل وايقظوني بصراخهم لأذهب واحكم بينهم . غضبت وصحت

« ليذهبوا للشيطان » وثم إلى البوليس الانكليزي . إلا انهم بقوا طوال الليل يصيحون أمام الباب . وفي الصباح ذهبت معهم وحكمت بينهم .

« غداً صباحاً ، سأذهب لأتسلق جبال « اوزومبارا » بغاباتها الكثيفة وبمياهها العذبة وعشبها الدائم ، والآن إيها الطفل اليوناني ، متى ستغادر اوروبا الحديثة ، تلك الساقطة التي تسكن فوق الشلالات الكثيرة ، والتي ارتكب فيها ملوك الأرض الفواحش ؟ متى ستأتي ، حيث تستطيع ان نتسلق هذه الجبال الصافية والوحشية معاً ؟ .

« لي ابنة من سيدة زنجية . لقد ارسلت والدتها بعيداً . فقد كانت تخونني جهراً ، وفي وسط النهار وتحت كل شجرة ، عندها مللت منها ورميت بها على الباب . إلا انني ابقيت الإبنة لدي ، وعمرها سنتان الآن ، لقد بدأت تمشي وتتكلم وانا اعلمها اللغة اليونانية وأول جملة لقنتها لها هي «انني أتف عليك ايتها اليونان الوسخة » .

« ان اللعينة تشبهني . ولا تشبه والدتها إلا بأنفها العريض . وأنا مغرم بها كما يغرم الإنسان بكلبه أو قطته ، لماذا لا تأتي انت أيضاً وتقترن من احدى فتيات اوزومبارا وتنجب ولداً وتزوجها بعد ذلك لنمتعهم ونمتع انفسنا أيضاً .

وداعاً ، وليكن الشيطان معك ومعي ايها الصديق .

— كارايانيس —

تركت الرسالة فوق ركبتي . وتملكتني رغبة هائلة بان اجيب طلبه ، ليس لأني أود الذهاب ، لقد كنت أعيش على ما يرام على الشاطىء الكريتي ، واشعر بالحرية والسعادة ولم اكن بحاجة لشيء ، بل لأنه كان لدي رغبة قوية بمشاهدة أكبر مساحة ممكنة من الأرض قبل ان أموت .

وقفت وغيرت رأيي ، وبدلاً من ان اصعد الأكمة اسرعت متجهاً نحو الشاطىء . تحسست الرسالة الثانية في جيبي ، ولم اعد استطع ان انتظر أكثر . فالشعور المذب والذي لا يحتمل طال أكثر من اللازم .

وصلت للكوخ ، أشعلت النار واعددت قليلاً من الشاي ، وتناولت بعض الخبز والعسل والبرتقال : خلعت ثيابي وتمددت فوق فراشي وفتحت الرسالة :

معلمي وتلميذي ، تحياتي .

عندي هنا عمل ضخم وصعب . (الله) اضع هذه الخطرة بين هلالين والتي كأنها وحش خطر وراء القضبان. حتى لا تشعر بالثورة حين تفض هذه الرسالة. حسنا انه عمل صعب ، ليتبارك « الله » نصف مليون من اليونانيين في خطر في جنوب روسيا والقوزاق . كثير منهم يتكلمون التركية أو الروسية ، إلا إن قلوبهم لا تزال تتكلم اليونانية بكل تعصب ، انهم من جنسنا ، يكفي جداً ان تشاهدهم: كيف تتلألأ عيونهم بشراهه، وكيف يتبسمون بشطارة وتمتع.وكيف نجحوا في ان يصبحوا سادة هنا ، على هذه الأرض الروسية الواسعة . وكيف استطاعوا ان يستخدموا الفلاحين والعمال الروسيين . يكفي ان تشاهد هذا لتعلم بانهم من سليلة من نخب « اوديسيوس » . فتتعلق بهم ولا تتركهم يتلاشون .

« لانهم في خطر التلاشي ، لقد فقدو كل شيء ، وهم جياع وعراة . ومن جهة هم مطاردون من قبل البلشفيك ، ومن جهة من قبل الأكراد ، فقد أتى اللاجئون من جميع الجهات ليحتشدوا في المدن ، جاءوا من ارمينيا وجورجيا ، بلا طعام ولا شراب ولا ثياب حتى ولا أدوية ، ينظرون إلى المستقبل برعب منتظرين البواخر اليونانية التي يعتقدون بانها ستأتي لأخذهم إلى وطنهم . ان قسماً كبيراً من جنسنا من دمنا وروحنا يعيش يطارده الخوف والرعب .

« ان تركناهم لقدرهم سوف يتلاشون ، نحن نحتاج لكثير من المحبة والفهم ، والحماسة والمثل العليا هذه المؤهلات التي تحب ان تتحدث عنها كثيراً. لنستطيع ان ننقذهم ونعيدهم إلى ارضنا الحرة . هذا على حدود ماسيدونيا وابعد من هذا على حدود تراسيا . هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ الآلاف منهم ، ولإنقاذ انفسنا كذلك . فأنا عند وصولي لهنا رسمت دائرة وقلت لنفسي « ان واجبي ، ان أنا انقذت هذه الدائرة أكون قد انقذت نفسي وان لم استطع انقاذها فسوف اضيع » وداخل هذه الدائرة يوجد خمساية ألف يوناني .

« انا اذهب إلى المدن والقرى لأجمع اليونانيين ، واكتب التقارير وارسل البرقيات لأجعل المسؤولين في اثينا يسرعوا بارسال المراكب ، الطعام ، الثياب والأدوية ، ولينقلوا هذه المخلوقات إلى اليونان . ان السعادة الحقيقية تكمن في العمل الشاق المضني . ولذلك فأنا سعيد جداً . ولأستعمل جملتك المفضلة ، اقول بأني قد « فصّلت » سعادتي على قياسي ، فأنا افضل ان أبقى مدة اطول لأوسع حدود اليونان والتي هي نفس الوقت حدود سعادتي . إلا ان هذا نظرياً

يكفي . فأنت تتمـــدد على شاطئـــك الكريتي . لتصغي إلى أمواج البحر والسانتوري . فأنت لديك الوقت الكافي . أما أنا فلا . فأنا غارق في العمل وأنا سعيد بـــذلك . الحركة ، أيهـا العزيز الكسول ، الحركة ولا يوجـــد أي حل آخر .

« ان موضوع تخيلاتي بسيط جداً ودفعة واحدة ، فأنا أقول لنفسي : ان سكان « بونتوس » والقوقاز وفلاحي « كارس » ، وبائعي « تفليس » و «باتوم» ونوفوروسيسك » و « روستوف » و « اووسا » و « كريميا » الكبار والصغـار هم منا ، من دمنا . ومن أجلهم ، كما من أجلنا ، عاصمة اليونان هي القسطنطينية. نحن جميعـــاً لنا نفس الرئيس . انتم تسمونه « اوديسيوس » وهم يسمونـــه « كوستنتينوس بالايولوغس » ليس الذي قتل عند أسوار بيزنطـة ، بل الآخر بطل الاسطورة الذي تحول إلى رخـــام والذي لا يزال منتصباً ينتظر « ملاك الحرية » . بعد اذنك ، أما أنا فأسميه « اكريتاس » فأنا أحب هذا الاسم أكثر. فهو صلب ويميل نحو الحرب . فعنـــدما تسمعه ، يرتسم في مخيلتك « هيلين » الأبدي ، المدجج بالسلاح ، والذي يحـــارب دون كلل أو ملل في الوديان وعلى الحدود ، على كل حـــدود الوطنية ، الفكرية والروحية . وإن زدت عليـــه « دايجنيس » تصف تماماً جنسنا العظيم المكون من الشرقيين والغربيين .

« اني الآن في « كارس » أتيت لأجمع بعض اليونانيـــين . وأول يوم وصولي قبض الأكراد على قس ومعلم يونانيين . ووضعوا في أرجلهم حـدوات البغـال . فخاف الأعيان والتجأوا لمنزلي لأحميهم . نستطيع أن نسمع أصوات مدافـــع الأكراد تقترب كل لحظة . كل هؤلاء اليونانيين معلقـــين آمالهم عليّ ، كما لو اني الشخص الوحيد الذي عنده القوة لإنقاذهم .

« كنت مصمماً على أن أتوجه غداً إلى « تفليس » إلا أنه الآن ، وبعـــد مواجهة هـــذا الخطر ، فأنا خجل أن أغادر ، لذلك فأنا باق . لا أقول باني لست خائفـــاً ، بـــل على العكس . إلا انني خجلا . ألم يكن يحـــارب « رمبراندت » مثلي الأعلى ، قد يفعل نفس الشيء ، ويبقى ، لذلك أيضاً فأنـا باق . إذا دخل الأكراد المدينة ، من الطبيعي والمؤكد أن أكون أول من تسمّر بأقدامه الحدوات. أنا أكيد يا معلمي العزيز بأنك لم تكن تعلم بأن تلميذك سيصل إلى مثل هذه النهاية .

« بعد مناقشات يونانية حادة قررنا أن نجتمع هذا المساء ، بغالنا ، جيادنا ، ماشيتنا ، والأطفال والنساء ، وفي الفجر نتوجه شمالاً سوية . وسوف أسير في المقدمة لأكون الضحية الأولى .

« انها هجرة شعب ضخمة ، عبر سلسلة الجبال والحقول بأسماء اسطورية . وأنا سأكون أشبه بموسى ، الذي يقود الجنس المختار إلى الأرض الموعودة . كما يدعو هؤلاء الأغبياء أرض اليونان . ولا بد لي ، لأستطيع أن أقوم بهذه المهمة الموسوية وأن أكون مستحقاً لها ، أن أربط إلى قدمي جلد المواشي، بعد أن أخلع حذائي الجلدي النظيف . وان أترك لحية طويلة كثيفة ، وفوق كل هذا قرنين ضخمين . إلا انني آسف جداً فلن أدعك تضحك مني . فمن الأسهل أن تغير روحي على أن تجعلني أغير ثيابي وشكلي . فأنا انتعل جزمة ، لا أزال ناعم جداً كلب الملفوف ، ولا أزال عازب .

معلمي ، آمل أن تستلم رسالتي هذه ، التي قد تكون الأخيرة ، لا أحد يعلم. فأنا لا أثق بالقوى السرية التي يقال بأنها تحمي الرجال . فأنا أؤمن بالقوى العمياء التي تضرب يميناً وشمالاً دون هدف ودون رحمة ، لتقتل كل من يكون في طريقها. ان كنت سأغادر هذه الأرض (أقول « أغادر » حتى لا أخيفك أو أخيف نفسي باستعمال الكلمة الصحيحة) .

ان كنت سأغادر هذه الأرض ، آمل ان تكون بخير وسعيد ، أيها المعلم العزيز . أنا آسف لانني مضطر أن أقول هذا ، الا انني مجبر فاعذرني . فأنا أحببتك كثيراً أيضاً » .

وتحت كتب بالقلم هذه الملاحظة :

« لم أنس الاتفاقية التي عقدناها على السفينة يوم سفري، إذا كنت « سأغادر » هذه الأرض أحذرك ، تذكر اينما كنت ، لا تدعها تخيفك » .

- ١٣ -

مضت ثلاثـة أيام ، أربعـــة ، خمسة ولم يظهر زوربا . وفي اليوم السادس استلمت من كانديا رسالة بعدة صفحات وعلى نسق واحد . وكانت قـد كتبت على ورق وردي معطر وعلى زاوية الصفحة رسم قلب يخترقه سهم .

احتفظت بهذه الرسالة بكل انتبـاه ، وسوف أنقلها هنـــا بكل أمانة ، مستعملاً نفس المصطلحات العامية التي سوف تقرأوها هنـــا وهناك . بالكيد صححت بعض الأخطاء الإملائية . فزوربا يمسك القلم كما يمسك بمعول . ويهـاجم الورق بقسوة ، لهذا السبب كانت الصفحات مغطاة بالثقوب والبقع .

« سيدي العزيز ، أيها السيد الرأسمالي .

أمسك بالقـــلم لأسأل اذا كانت صحتك جيدة ؟ نحن والحمد لله بصحـــة جيدة أيضاً .

« لقد بدأت أدرك من وقت قريب باني لم آت الى هذا العالم لأعيش كحصان ، او كثور ، الحيوانات فقط تعيش لتأكل . ولأتجنب مثل هذه الاتهامـــات لذلك فاني أخلق العمل لنفسي ليلاً نهاراً . لذلك فأنا اغامر بخبز يومي من أجل فكرة . وأقلب المثل لأقول : « ان دجاجـــة تعوم في حوض أفضل من عصفور دوري في قفص » .

« كثير من النـــاس هم وطنيون ، دون أن يكلفهم ذلك أي شيء . أنا لست بوطني . ولن اكون مهما كلفني هذا ، كثير من الناس يؤمنون بالجنـة ويحتفظون بدوابهم لترعى هناك . وأنا ليس عندي دابة . فأنا حر ، ولست خائفـــاً من الجحـــيم ومن موت دابتي . ولا اتوق للجنـة أيضاً ، أنا جاهـــل وذو رأس جلف ، ولا اعرف كيف أرتب الأشياء ، ولكنك تفهمني أليس كذلك أيهـــا الرئيس ؟

« كثير من الناس يخافون من الأشياء الباطلة . لقد تغلبت عليه . كثير منهم

يفكرون ¯ يرأ . ولا أحتاج للتفكير . فأنا لا أتمتع كثيراً بالخير . ولا أيأس من الشر . سمعت بأن اليونانيين احتلوا القسطنطينية ، هذا بالنسبة لي تماماً ، كما لو أن الأتراك احتلوا أثينا .

« ان كنت تظن بعد قراءتك هذا ، بأن عقلي يخف ، اكتب لي . عندما اكون ازور الحوانيت هنا في كانديا لأشتري الحبال الحديدية اغرق في الضحك .

« فيسألوني عن الذي يضحكني . ويصرون على السؤال ، ولكني كيف أجيبهم . أأقول لهم ، اني أضحك لأني بينما انا أمد يدي لألمس الفولاذ لأراه اذا كان من النوع الجيد ، افكر ايضاً بماهية الانسان ، ولماذا جاء الى هذه الأرض ولأي سبب ؟. اذا سألتني سوف أجيب بانه ليس منه فائدة بالمرة . بالنسبة لي لا أهتم بالمرة ان كان عندي زوجة أم لا . ان كنت شريفاً أم لا . ان كنت باشا أو حمّال . فالشيء الوحيد الذي يهمني هو هل انا ميت ام على قيد الحياة . ان كان الشيطان او الرب هو الذي سيدعوني (أتعلم أيها الرئيس ؟ انا أظن بأن الرب والشيطان واحد) . فسوف أموت ، وأتحول إلى جثة عفنة ، تبعد الناس وتفسد عليهم الهواء . لذلك فسيكون عليهم ان يحفروا حفرة بعمق أربعة اقدام على الأقل ، كي لا يفطسوا .

« في هذه المناسبة أود ان أوجه اليك سؤالاً طالما أخافني . الشيء الوحيد الذي يخيفني أيها الرئيس هو الشيخوخة . لتحفظنا السماء منها ، الموت لا شيء بالمرة ، نفخة واحدة وتنطفىء الشمعة ، انما الشيخوخة فهي عار .

« اني أظن بأن من العار الشديد أن اعترف بأني اسير نحو الشيخوخة . واعمل ما بوسعي حتى لا يراني الناس بأنني أصبحت مسناً . فأنا اقفز ، أرقص ويؤلمني ظهري إلا اني اتابع الرقص . اشرب ، وأثمل ويدور كل شيء حولي ، إلا اني لا أجلس . وأتظاهر كما لو أن كل شيء على ما يرام . أتصبب عرقاً فاندفع نحو البحر ، وأصاب بالبرد وأشعر بالسعال ، أوه .. أوه .. لأريح نفسي ، الا اني أشعر بالخجل وأعيد السعال الى داخلي . هل سمعتني اسعل ؟ ابداً ! لا تظن بأني لا أسعل فقط عندما يكون حولي بعض الناس ، كلا ، فعندما أكون بيني وبين نفسي أشعر بالخجل أيضاً . أشعر بالخجل من زوربا . ما الذي تظنه حول هذا ؟ أنا أخجل منه أيضاً .

« ذات يوم فوق جبل « آتوس » لأني ذهبت لهنـاك ، وكان أحسن لدي لو قطعت يدي اليمنى ولم أذهب . قابلت راهب ، الأب « لافرنتيو » من مواطني « شيوس » وكان هذا المسكين يعتقد بأنه يوجد داخله شيطان ، حتى إنه أعطاه اسماً . وكان يدعوه « هودجا » ، « هودجا يريـد ان يأكل اللحم يوم الجمعـة العظيمة » . اعتاد الراهب المسكين ان يقول ، ضارباً رأساً بحـائط الكنيسة . « ان هودجا يريد أن ينام مع امرأة، يريد ان يقتل رئيس الدير.. انه هودجا.. هودجا وليس أنا » . ويضرب رأسه بالحجارة .

« وأنا يوجد في داخلي نوع من هـذا الشيطان ، وأسميـه زوربا . فزوربا الداخلي لا يريد أن يشيخ أبداً . بل ولم يكبر أبداً . ولن يكبر أبداً .

« انه وحش ذو شعر أسود كالغراب وله اثنتان وثلاثون سناً ويضع قرنفـلة حمراء خلف أذنه . إلا ان زوربا الخارجي قـد أصبح عجوزاً . وأصبح شعره أبيض وتجعد جلده وتساقطت اسنانه وامتلأ رأسه بالشعر الأبيض وعلا جسده شعر طويل كشعر الدواب .

« ما الذي أفعله ايها الرئيس ؟ إلى متى سيبقى هـذين الزوربايين هكـذا متناقضين ؟ ومن الذي سيبقى للنهاية ، فان فارقت الحياة سريعاً فهذا افضل . ولن أخاف . لكن ان كبرت أكثر فهنا المصيبة ... المصيبة أيها الرئيس هو ان يأتي اليوم الذي أحتقر فيه . فأصبح عبداً ، تلقي عليّ حمـاتي وابنتي الأوامر لأراقب الأطفال واعتني بهم . أراقب طفلاً رضيعـاً ، بل وحشاً كاسراً لكي لا يحرق نفسه ولا يسقط وتتسخ ثيابه . وإذا ما وسخ نفسه ، فسوف يجبراني على تنظيفه ... أف يا للعار .

« انت ايضاً ايها الرئيس ستصل لنفس النهاية ، مع انك لا زلت شاباً . فأنا احذرك ، اسمع ما أقوله لك ، وانهج نفس الاسلوب الذي تبعته أنا . فليس ثمـة مخرج آخر . فلنقتحم الجبال ، ولنستخرج الفحم والنحاس والحديد والتوتياء ، ولنكسب الأموال ليحترمنـا الأقرباء ويلحس الأصدقاء نعالنا ، وليرفـع الرأسماليون قبعاتهم تقديراً لنا . وان لم ننجح أيها الرئيس فالموت أسهل لنـا . ولتأكلنا الذئاب والدببة . أو وحش كاسر يحظى بنا . فلهذا السبب خلق الله الحيوانات على هذه الأرض . لكي تقتات ببعض أبناء جنسنا حتى لا يحتقروا » .

وهنا كان زوربا قد رسم بالألوان ، رجلاً طويـلاً ، دقيق العود ، يركض

تحت أشجار مخضرة وخلفه سبعة ذئاب . وتحت هذا الرسم كتب باحرف كبيرة « زوربا والخطايا السبع » وتابع رسالته .

« بعد أن تنتهي من قراءة رسالتي ، ستدرك كم أنا تعيس . فأنا ارى بكل وضوح بأن ذكائي ليس إلا حماقة كبرى . مع هذا تمر عليّ أيام افكر فيها كما لو اني انسان عالم .

« وبما انه ليس بيني وبين حياتي أي وقت محدد فاني عندما أصل إلى أخطر الجبال ارخي العنان . فحياة الإنسان مليئة بالمرتفعات والوديان . والمفكرين يقتربون وأيديهم على العنان ، اما أنا ايها الرئيس ، وهذا ما يجعلني ذو قيمة ، فقد رميت بالعنان منذ مدة طويلة ، لأن الصدمات لا ترعبني ، نحن العمال نعتبر أن الخروج عن الخط الحديدي اصطداماً ، اما أنا ، فلتعلق مشنقتي ان كنت اعتبر الاصدامات التي أقوم بها وحق وأنا بكل انتباهي . فبكل مكان لي ذكرى . وافعل ما اريد ولا يهمني ان مت . فما الذي أخشى ان يضيع ؟ لا شيء ! وعلى كل ، فلو عشت سنيناً طويلة ففي النهاية سوف أموت ، وهذا ثابت ، إذن فلتذهب الأيام إلى الجحيم .

« اني متأكد بانك تضحك الآن بسبب ما أقوله . إلا انني اكتب لك عن كسلي ، او إن كنت تفضل ذلك ، رأيي وضعفي ، إلا انه لا يوجد فرق بين الثلاثة . فأنا ، واقسم لك ، لا أرى أي فرق أو تباعد . فأنا اكتب ، واضحك أنت ما شئت . انا ايضاً اضحك لأني أكيد بانك تضحك ، وبهذا فان الضحك سيبقى على الأرض ولن ينتهي . ان لكل انسان سخافاته ، إلا ان السخافة الكبرى ان لا يكون للإنسان سخافات .

« انا هنا في كاندي ، اراجع اهوائي الجنونية ، واشرح لك كل شيء بالتفصيل ، لانني اود ، كما ترى ، ان اطلب بعض النصح . فأنت لا تزال فتياً أيها الرئيس ، هذا صحيح إلا انك قد قرأت للحكماء السالفين واصبحت ، بعد ذلك عجوزاً نوعاً ما . وانا أحتاج نصحيتك .

« انا اؤمن بأن لكل إنسان رائحة خاصة ، إلا انها تختلط ولا نستطيع ان نعرف أيها لك وأيها لي . اننا نعلم فقط بأنها الرائحة النتنة ، وهذا ما ندعوه بالانسانية ، أي الانسانية النتنة ، إلا انه هناك من يستسيغها كأنها رائحة حلوة ، أما أنا فتدفعني للغثيان . ولكن دعنا من هذا فهذه قصة أخرى .

« كنت أود ان أقول ، وهنـــا أرخي العنان قليلا ، ان هؤلاء النساء الساقطات ، لهن أنوف رطبة ، كالكلاب ، فهن يعرفن بسرعة رائحة الرجـل الذي يرغبن والذي لا يرغبنه ، لهذا فقد كنت دائماً ، وفي كل مدينة ألقي فيهـا رحالي ، أجدامرأتان أو ثلاثه يتتبعن أثري، على الرغم من انني شخت ولا اعتني بثيابي ، يا لهولاء الساقطات ... ليبار كهن الله ...

« في اليوم الذي وصلت فيه الى كاندي، كان الوقت مساء والنهار كان آخذاً بالهروب توجهت مسرعاً نحو الحوانيت ، إلا انها كانت كلها مغلقـة . فتوجهت نحو الفندق وعلفت البغلة . وأكلت أنا أيضاً واغتسلت . وتناولت سيجـارة وخرجت لأتجول . لم اكن أعرف أي شخص في المدينة ولا أحـد يعرفني . شعرت بالحرية المطلقـة . كنت استطيع ان أصفر واضحك في الشارع ملء صوتي . اشتريت قليلا من بزر اللقطين المحمص، ورحت اقزقزه وابصق القشور. كانت مصابيح الشوارع مضاءة . وقد ذهب الرجـال لاحتساء بعض الخمر ورجعت النسوة إلى منازلهن . وكانت رائحـة المساحيق والورق والصابون واللحم تهيمن على المكان . وبدأت أكلم نفسي « قل لي أيهـا العجوز زوربا ، حتى متى ستبقى على قيـد الحياة يختلـج منخراك ! ليس لديك الوقت الكافي لاستنشاق الهواء ، هيا أيها الشيخ المسكين استنشق ملء رئتيك .

« هكذا كنت أقول لنفسي وأنا اتجول في الساحة التي تعرفها .. وفجـأة تناهى لسمعي صراخاً ، تصفيقاً ، رقصاً وغناء . ورحت أصغي وجريت صوب المكان الذي تأتي منه الأصوات . كان المكان عبارة عن كباريـه . وما الذي كنت أريده غير هذا . دخلت وجلست إلى طاولة صغيرة قرب المسرح . لم يكن ثمة ما أخشاه ، فكما قلت لك ، لم يكن أحد يعرفني. فلدي الحرية التامة .

« كانت امرأة ممشوقة القامة ترقص وتتلوى فوق المسرح. تبرز بعض اجزاء جسدها وتخفيه ، إلا اني لم أهتم لها . طلبت كوب بيرة واقتربت مني فتاة صغيرة وجلست إلى جانبي . فتاة ناعمة ، سمراء ، تغطي وجهها كميـة لا بأس بها من المساحيق .

قالت وهي تقهقه « بعد اذنك ايها الجد » ؟ وغلى الدم في عروقي وتسرب لرأسي وسيطرت علي رغبة جامحة لأكسر رقبتها . يا لها من غبيـة . إلا اني سيطرت على أعصابي مشفقاً عليها وصحت بالنادل ليأتي بالشمبانيا . (عذراً ايها

الرئيس فقد بددت كل نقودك ، فقد كان لا بـد في الحفاظ على كرامتنا ، كرامتك وكرامتي ، فقد واجهت الموقف . كان علي ان اجبرها على ان تحترمنا، يا لها من غبية ! اني اعرف جيداً بأنك لم تكن لتعارض وقوفي بوجهها.. في تلك اللحظة الخطرة . إذن لقد طلبت الشمبانيا) ...

« احضرت الشمبانيا وطلبت بعض الحلوى أيضاً ، وشمبانيـا مرة ثانية . مر بقربنا رجلاً يبيع الياسمين ، فأبتعت السلة بما فيها ، وقلبت كل ما بها فوق ركبتي الساقطة التي تجرأت على ان تهيننا .

« وبدأنا بالشرب ، شربنا كثيراً ، إلا اني اقسم ايها الرئيس باني لم اضـع يدي عليها ، إلا اني أعرف ما الذي يجب ان افعـله تماماً ، فعندما كنت شابا كنت أول شيء أقوم به هو المداعبة ، اما الآن وبعـد ان شخت فيجب ان أبذخ واتظاهر باللطف . فالنساء يعشقن مثل هذه الأعمال . انهن يمشقنهـا الساقطات . لا يهمهن ان كنت أحدب أو ان تكون مجموعة من العظام المركبة بعضها فوق بعض . شنيعاً كحشرة ، فهن يغضضن النظر عـن كل شيء ، العاهرات، كل ما يجب ان تفعله هو ان تصرف فلوسك يميناً وشمالاً . قلت باني قد بددت كثيراً من المال ، بل واكثر مما يجب . ليباركك الله ويعوض عليك مئة مرة . لم تتركني الفتاة بل راحت تلتصق بي اكثر واكثر وتشد بركبتها الصغيرة على ساقيّ الضخمتين .

« رحت اتظاهر بالبرودة، إلا أن اعماقي كانت تحترق . فهذا ما يجعل النساء يمتن غيظاً . يجب ان تعرف هذا عند أول فرصة : لا تضع يدك عليهن مع انك تكاد تحترق في الداخل .

« باختصار ، أصبحنا بعد منتصف الليل ، وخفتت الأنوار رويداً رويداً ، وبدأت الكباريه تقفل أبوابها ، فتناولت رزمـة من أوراق النقـد الكبيرة ودفعت وتركت للساقي مبلغاً محترماً . هذا ما جعل الفتاة تتعلق بي . وسألت بصوت متردد : « ما اسمك ؟ » . فرددت بصوت فظ « الجد » لكزتني الفتـاة وهمست « الحقني » . أمسكتها بيدها وشددت عليها دليلا على موافقتي وأجبت بصوت خافت « هيا يا صغيرتي » .

« النهاية انت تعرفها .. ثم غلبنـا النوم . وعندما نهضت من النـوم كان الوقت قد أصبح ظهراً . والتفت حوالي ، كانت غرفة صغيرة لطيفة ، أرائك

مغسلة ، صابوناً ، وبعض الزجاجـــات منها الكبير ومنها الصغير ، وبعض الفساتين المزركشة المعلقة على الحائط مع بعض الصور الكثيرة : نوتية ، ضباط ، سفلة ، عساكر ، راقصـــات وفتيات لا يضعن عليهن سوى نعلين صغيرين ، وكان بجانبي على الفراش ، جسد الفتاة بشعر غير منتظم ، تندلـع الحرارة من جسدها والروائح العطرية تفوح منها .

« ورحت أخاطب نفسي مغمضاً عيني ثانية « زوربا لقـد دخلت الجنة على قيد الحياة ، المكان مريح ... فأبق هنا » .

« لقد اخبرتك هذا سابقاً : ان لكل انسان جنته الخاصة ، ان جنتـك ستكون مكدسة بالكتب وزجاجات الحـبر الكبيرة ، وبالنسبة لانسان آخر ستكون ملأى ببراميـــل النبيذ والخمر . وبالنسبة لآخر مـــلأى بالجينهات المكدسة . أما جنتي أنا فهي هذا : غرفة صغيرة تفوح منها الروائح العطرية ، تغطي جدرانها الفساتـــين المزركشة ، والصابون وسرير كبـــير ، وبجانبي فتاة دافئة .

« ان الغلطة التي تعترف بها يغتفر لك نصفها . بقيت في الغرفة طوال اليوم ، فإلى أين اذهب ؟ ما الذي افعله ؟ تخيل ... لقد كنت سعيداً جداً . وارسلت وجلبت الطعام من أفضل فنادق المدينة ، فأحضروا لنا طبقاً كبيراً ، لا يحوى إلا كل نوع مغذٍ ومنشط : كافيـــار ، لحم ، سمك ، عصير ليمون وحلوى ، وغرقنا في احضان الحب ، ومن ثم عدنا للنوم ثانية ، نهضنا في المساء ووضعنـــا علينا ملابسنا ، وخرجنا باتجاه الكبارية ويدي بيدها .

« ولأ كون واضحاً معك ولكي لا أسبب لك الصداع ، أقول لك بأن هذا لا يزال مستمراً . كلا .. لا تزعل : فأنا لا زلت أهتم باعمالنا أيضاً . فمن وقت لآخر ازور المحلات التجارية لأشتري الحبال وكل ما يلزمنـــا . كن على ثقة ولا تخف . قبل يوم ، بعد اسبوع أو حتى شهر ، ما الذي يعنيه هذا ؟ فهناك مثـل شعبي يقول . « القطة تلد أولادها سراً في عجلتها » لذلـــك يجب ان لا تكون لجوجاً واصبر . من أجل صالحك يجب ان انتظر حتى يتفتـــح ذهني ، حتى لا يخدعني أحد . فالحبال يجب ان تكون من أحسن الأنواع حتى لا نضيع كل ما لدينا . يجب ان تتذرع بالصبر ايها الرئيس . وان تطمئن .

« يجب ان لا تقلق على صحتي ، فهذه المغامرات والمداعبات تقوي صحتي .

ففي بضعة أيام يعود لي شبابي .. فأنا اشعر بقـــوة ، حتى إنني اشعر كما لو انه ستنبت لي اسناناً جديدة . لقد آلمني ظهري قليلاً . إلا اني اشعر بقـوة كبيرة اليوم ، كل صباح انظر إلى نفسي في المرآة فأتعجب لأن شعري لا يزال ابيضاً ولم ينقلب اسوداً فاحماً .

« ربما تتساءل لماذا اخبرك بكل هـــذا ؟ اعتبرك كمعّرف بالنسبة لي ، ولا اشعر بالحياء من اعترافي بخطاياي لك . اتعلم لماذا ؟ لأني اشعر بأنك تبـدي اهتماماً لكل ما أقوم به ، خيراً كان أم شراً . تماماً كما يراقب المقامر اللعب . فانت أيضاً تحمل بيدك اسفنجـة كالرب : فلوب .. فلوب .. لتمحو كل شيء مهما كان ، وهذا ما يدفعني لأن اعترف لك بكل هذا . لهذا إسمع !

« لقد بدأت هذه الأشياء تربكني. وأ كاد أجـن . فأرجوك حال استلامك رسالتي هذه ان تبادر وتكتب إليّ . سأنتظر بفارغ الصبر ردك عـــلي ، فأنا أظن باني منذ سنوات كثيرة لم أعد أحسب من رجـــال الرب ، ولا حتى من رجال الشيطان . فأنا لست إلا رجلك أنت . لذلك فليس أمامي إلا ان اتوجه إليك . لهذا اصغ جيداً لما سأخبرك به . فهذا ما يجري :

« أمس كان يوم عيد في قرية قريبة من كاندي ، ولأذهب للجحيم ان كنت أعرف عيـــد أي قديس . وجاءت لولا — نسيت ان اخـبرك أسمها — انه لولا ، لتطلب مني اصحبها إلى العيد : فقلت لها :

— اذهبي لوحدك .

— إلا اني اريد ان أكون معك .

— كلا لن اذهب ، كوني بمفردك ، عندي بعض الأعمال .

— كلا .. لن اذهب لوحدي .

اندهشت وجحظت عيناي .

— لن تذهبي ، ما السبب ؟

— ان رافقتني سأذهب ، وإلا لن اذهب بمفردي .

— لماذا ؟ ألست حرة بما تفعلينه ؟

— كلا .. لست حرة .

— ألا تريدني ان تكوني كذلك ؟

— كلا ...

والله ... لقد بدأت اشعر باني اصبحت مجنونا وصمت .
– إلا تودين ان تكوني حرة ؟ ...
– كلا .. كلا لا أريد !

ايها الرئيس ، اكتب لك الآن من غرفة لولا ، وعلى ورقة لولا ، كن حذراً اتوسل اليك . فأنا اؤمن بان من يريد ان يكون حراً هو الانسان فقط ، المرأة لا تود ان تكون حرة ... أخبرني هل المرأة إنسانة ؟ .

النجدة .. اكتب حالاً .. قبلاتي من كل أعماقي ايها الرئيس اللطيف !

« أنا الكسي زوربا »

عندما انتهيت من خطاب زوربا، صمت لحظة مرتبكاً . لم أكن أعلم ما الذي يجب علي ان اشعر به هل أغضب ؟ أم اقهقه لهذا الانسان الساذج الذي يصل إلى اعماق الجوهر عن طريق تهديم المنطق والاخلاق والاخلاص والتي تمثل مظهر الحياة . فهو يعيش تنقصه أغلب هذه الفضائل الصغيرة . فهو لم يبق له الا فضيلة واحدة ، صعبة ، خطرة تشد به إلى الهاوية دون أن يقوى على المقاومة .

ان هذا الأمي ، في ثورته الحادة ، يكاد يحطم القلم عند كتابته . فهو أشبه بالبدائيين الذين خلعوا جلود الحيوانات من على أجسادهم ، أو كأعلام الفلاسفة ، تهيمن عليه المشاكل الضرورية . فهو يشعر بها وكأنها ضرورات يجب تنفيذها فوراً . فهو أشبه بالطفل ، يرى كل الأشياء كما لو أنه يراها لأول وهلة . فهو يتعجب دائماً ويتساءل . كل شيء يراه يبدو له كمعجزة . وكل صباح عندما ينهض ويفتح عينيه ويقع نظره على الأشجار والبحر والصخور والطيور ، يقف مندهشاً فاغراً فاه . ويصيح « يا لهذه المعجزة . ما كل هذه الألغاز التي تسمى، شجرة ، بحر ، صخرة وطير » .

استطيع ان اتذكر ، ذات يوم ، كنا نتجه نحو القرية ، التقينا برجل عجوز فوق بغلة ، وجحظت عيني زوربا واستدار ناظراً إلى المطية . لا بد وان تحديقه كان قوياً ، مما جعل العجوز ينتبه وجعله يصيح :
– بالله ... لا تصبه بالعين .
ورسم اشارة الصليب . نظرت نحو زوربا وقلت :
– ما الذي فعلته للعجوز حتى صاح هكذا ؟

– أنا لم أعمل أي شيء ، لقـــد حدقت بالبغل قليلاً . ولكن ألا يحملك تتعجب أنت أيضاً ؟

– اتعجب ؟ لماذا ؟

– ان يكون هناك بغالاً فوق الأرض .

ويوم آخر ، كنت أطـــالع على الشاطيء . اقـترب زوربا مني ، ووضع السانتوري فوق ركبتيه وراح يلعب أصابعـــه فوق أوتاره . رفعت رأسي وحدقت به . تغيرت سحنته قليلاً قليلا ، وسيطر عليه سرور وحشي وحرّك عنقه الطويل . وراح يغني ، ألحان ماسيدونيه ، أناشيد كلفتيـة وصيحات وحشية . ان الحنجرة الانسانية ترجع إلى أجيال ماضية في التـــاريخ ، كانت الصيحات ، تركيبـاً عجيباً من الموسيقى والشعر والفكر ، وعلا صوت زوربا من أعمق أعماقه « آخ .. آخ » . انسابت تلك القشرة التي ندعوها المدنية لتفتح الطريق لذلك الوقت الخالد ، للإله الكبير ، الوحش المخيف .

وتلاشى كل شيء ، الفحم ، الخسائر ، الأرباح ، السيدة هورتنس ومشاريـع المستقبل، لقد طارت الصيحة وحملت معها كل شيء ، فلم نعد بحاجة لأي شيء. كنا نحمل ، ونحن واقفين دون حركة فوق أرض جزيرة كريت المنعزلة ؛ جميع الأحزان والسعادة ، بل أن الأحزان والسعادة لم تعد موجودة . بدأت الشمس بالمغيب وهجم الليل ، بينما راح الوحش الكبير يرقص ويدور حول محور السماء . وارتفع القمر إلى كبد السماء . وراح يراقب الحيوانين الصغيرين تعلو أصواتهما منشدين دون أن يخيفهما أي شيء .

وكان زوربا قد انتشى من الغناء وقال فجأة :

– حسناً أيها العجوز ، ان الانسان وحش كاسر ، اترك كتبك ، ألا تشعر بالحياء ؟ ان الانسان وحش كاسر ، والوحوش الكاسرة لا وجود لهـــا في الكتب .

وخيم عليه السكون لبرهة ثم عاد يقهقه ويقول :

– أتعلم كيف خلق الله الإنسان . أتعلم ما هي الكلمات التي قالها هـــذا الانسان الوحش الى الله ؟

– لا .. وكيف لي أن أعرف ؟ فلم أكن موجوداً وقتها .

فصاح زوربا وقد قدحت عيناه بالشرر .

– أما أنا فقد كنت موجوداً .

– هيا اخبرني ..

وبدأ زوربا يختلق ، شاعراً بالانتعاش ، ساخراً ، كيف خلق الانسان .

– إذن استمع لي ، أيها الرئيس . في صباح أحد الأيام . نهض الرب حزيناً يقول لنفسه : « كيف أكون أنا رباً وليس لدي أي عبيد يصلون لي ويضيئون الشموع ويحرقون البخور ، ويحلفون بي . وأحاول ان اقضي وقتي بهم !. لقد مللت العيش وحيداً كأنني بومة مسنة » . ونفخ في كفيه وشمّر عن ساعديه ، ولبس نظارتيه ، وتناول كمية من تراب ونفخ بها فحولها إلى صلصال ودعكها جيداً وصنع شكل انسان صغير ووضعه في أشعة الشمس .

« وبعد مضي اسبوع ، تناوله كأنه قد نضج ، والقى نظرة عليه وغرق بالضحك ، قائلاً :

– لتأخذني العفاريت ، فشكله أشبه بخنزير يقف على قدميه الخلفيتين ، فهذا بعيد جداً عن الشكل الذي أحببته ان يكون . وأمسكه من عنقه وضربه برجله .

– اغرب عن وجهي ، يجب أن تقوم بصنع خنازير صغيرة ، ان الأرض كلها لك ، هيا ابتعد عني . واحد ، اثنان .. هيا سر .

« إلا انه ايها الرئيس لم يكن خنزيراً بالمرة . فقد كان يضع على رأسه قلنسوة متدلية ، وصداري وضعها على كتفيه بلا اهتمام ، وبنطلوناً بكسرتين ، وحذاء مزركشاً بورود حمراء . وكان يتمنطق بخنجر – ولا شك كان الشيطان قد قدمه له – قد كتب عليه : « سأفتك بك » ..

« هذا كان الانسان ، مد الرب يده ليقوم ذلك الانسان بتقبيلها ، إلا ان الانسان اللعين فتل شاربيه بسخرية و كبرياء قائلاً :

– هيا أيها الشيخ ، ابتعد عن طريقي كي أمر !. »

وخيم الصمت على زوربا عندما رآني أكاد أنقلب على قفاي من الضحك .

فقطب جبينه وأردف :

– لا تقهقه هكذا .. ان هذا قد جرى حتماً .

– وكيف عرفت ذلك .

– اني أشعر به . وهكذا ما كنت سأفعله أنا . لو كنت مكان آدم . اني

أراهنك على أن آدم فعل هذا . يجب ان لا تصدق كل ما تقوله لك الكتب بل يجب أن تصدقني أنا .

ودون ان يتفوه بأي كلمة ثانية راح يعزف على السانتوري من جديد .

كنت لا ازال ممسكاً برسالة زوربا التي تفوح منها الروائح العطرية ،والمرسوم على طرفها قلب وقد اخترقه سهم . وعشت ثانية كل تلك الأيام المذبة ، الممتلئة بالمثل العليا والانسانية البحتة التي عشتها معه . ان الحياة بقربه قد أصبح لهـــا مذاق آخر . لم تعد الحياة مجرد روتين عادي . ولم تعد بالنسبة لي مشكـلة يجب أن تحل ، بل كانت عبارة عن حبوب رمل دافئة منتقاة بدقة واشعر بانسيابها بين اصابعي برفق وعذوبة .

وهمست في داخلي « ليبارك الله زوربا . لقد أعطاني تفسيراً دافئـــاً وعذباً للأفكار المتعبة التي كانت تحتشد في داخلي . وأنني لأعود لارتعش من جديـــد وقت غيابه » .

تناولت ورقة وناديت أحد العمال وأرسلت له برقية مستعجلة : « ارجع فوراً » .

* * *

- ١٤ -

انه الأول من آذار ، يوم سبت ، بعد الظهر . كنت متكئـــاً إلى صخرة كبيرة واكتب . في ذلك اليوم شاهدت طيور الربيـــع . كنت أشعر بسعادة غريبة ، فعمليـــة اقصاء بوذا كانت تمشي على الورق بسرعة وبدون أي مشاكل . لقد غيرت طريقة مجابهتي له فأنا لم أعد مستعجلاً واصبحت واثقاً من خلاصي منه .

وفجأة تناهى لسمعي صوت وقع اقدام على الحصى . والتفتت ، فاذا بهـا السيدة هورتنس العجوز ، تجري على مقربة من الشاطيء . وقـد غطت وجهها المساحيق كانها مركب بحري . تركض لاهثه ، وبسرعة .

وصاحت بي بإرتباك .

— هل استلمت رسالة ؟

فاجبتها مبتسماً وانا أقوم لاستقبلها .

— أجل وهو يوجه كلمات كثيرة ، وهو يتخيل طيفك ليلاً نهاراً .

وكما يقول بانه لا يتمكن من النوم ولا يقوى على فراقك .

فسألت العجوز لاهثة :

— هل صحيح ان هذا ما يقوله ؟ ! .

شعرت بالشفقة عليها ، وتناولت الرسالة من جيبي وتظاهرت بقراءتهـا ، راحت العجوز تحدق بالرسالة ، وفغرت فاها وبـــدأ جبينها يتصبب بالعرق منتظرة ما سأقرأه .

وبدأت اقرأ من مخيلتي ، وعندما اسرح بعيداً ، اتظـاهر باني لم افهم بعض الكلمات :

« امس توجهت ، ايها الرئيس ، لأتناول الغداء في احد المطاعم ، فوقـع نظري على فتاة رائعة الجمال ، يا الله كم تشبه بوبولينتي ، وفجأة انهمرت الدموع من

عيني كانها نبع ماء . واشتد بلعومي ولم أعد اقـــدر على البلع ، وتوقفت وسددت الحساب وخرجت وقــد سيطر علي شوق شديد ، وركضت انا الذي لا يفكر بالقديسين أو الكنيسة إلا مرة واحدة كل سنة ، اسرعت نحو كنيسة القديس ميناس ، واشعلت له شمعة وصليت له قائلاً : « طمئني ايهـا القديس ميناس ، واجعلني استلم منها رسالة ، اطمئن بها عـــن الملاك الذي اعشقه .. ولتجعل اجنحتنا تنضم لبعضها سريعاً » .

وعلا صوت السيدة العجوز فرحة وصاحت :

– هي .. هي .. وماذا أيضاً .

فتوقفت لحظة لأتيح لنفسي اختلاق اكاذيب جديدة وسألتها :

– ما الذي يضحكك ؟ ... ما الذي يضحكك يا سيدتي ؟ ان هذا الكلام يدفعني أنا للبكاء .

فناحت كانها تنفجر .

– آه لو تعلم .. ! لو تعلم ! ...

– أعلم ! أعلم ماذا ؟ ! ...

– الأجنحة .. ان اللعين يسمي الأرجل بالأجنحة عندما نكون لوحدنا .. انه يأمل ان تنضم اجنحتنا ...

– اصغي للباقي يا سيدتي ...

وثنيت الصفحة متظاهراً بالقراءة ثانية .

– « اليوم مررت بدكان حلاق . وفي اللحظة التي كنت أمر فيها كان الحلاق يرمي قرب الدكان بوعاء مليء بماء الصابون . وامتلأ الطريق كـله بالرائحة . وخطرت بوبولينتي على بالي من جديد وانهمرت الدموع من عيني . فأنا لا أطيق البعاد عنها . سأفقد عقلي. تصوّر لقد أصبحت أقول الشعر كذلك. منذ يومين لم يطرق جفني النوم ، فنظمت بيتين من الشعر. ارجو أن تلقيها عليها لتعلم كم أتألم:

« آه . كم أتمنى أن نجتمع انت وأنا في طريق ما .

« في طريق واسعة لتضم ألمنا .

« فأنا لو قطعت إرباً وحطم جسدي بالفؤوس

« فان بقاياي ستبقى تعبدك ! » .

في هذا الوقت كانت السيدة هورتس تصغي بكل احساسها . تغمرها سعادة

فائقة ، بعينين مغمضتين . حتى انها خلعت من عنقها الشريط الذي كاد أن يزهق انفاسها ، وتركت لرقبتها المكتنزة الحرية . كانت صامتة سعيدة وكانت روحها التائهة تسرح بعيداً جداً دون حدود .

آذار ، العشب الناعم ، الورود الحمراء ، الصفر ، والزرقاء ، المياه الناعمة .. حيث كانت طيور عديدة تحتشد لتنشد اغانيها، طيور، اناثها بيضاء ، وذكورها أسود ، ومناقيرها حمراء قانية . بينما كانت الأسماك الزرقاء تبدو فوق سطح الماء بغبطة ، عادت الأحلام بالسيدة هورتنس الى ربيع الصبا، وراحت تتمايل راقصة فوق سجاد شرقي ، في الاسكندرية ، بيروت ، ازمير والقسطنطينية . ومن ثم في كريت على متن السفن الحربية . فهي لم تعد تذكر تماماً ، فكل شيء قد أصبح مرتبكاً بالنسبة لها . وارتفعت نهودها وعلا صوت الشطآن .

وبينما كانت ترقص ، ودون أي انذار، غطت سطح البحر سفن كثيرة مطلية مقدماتها بالذهب . وبيارقها من الحرير . مراكب يخرج من على متنها بكوات بطرابيش تتدلى منها طرر مذهبة . وبكوات آخرون أثرياء أتوا للحج ، ممتلئين بالهدايا النفيسة . وابناءهم يعلو وجوههم الحزن . مراكب يخرج منها القواد بقبعاتهم المتلألئة . ونوتية بياقات ناصعة البياض وسراويل واسعة يتلاعب بها الهواء . مراكب يخرج منها شبان كريتيون مرتدين الثياب الزرقاء القاتمة ، وأحذيتهم الصفراء ، وقد ربطوا مناديل سوداء حول رؤوسهم . مراكب يخرج منها أيضاً ، زوربا نحيلاً ، أضعفه الغرام وفي اصبعه دبلة الخطوبة ، ويكلل شعره الرمادي اكليل من زهر الليمون .

لم تنس أي من الرجال الذين عرفتهم . حتى ذلك النوتي العجوز الذي اصطحبها ذات مساء ليتجول معها على الشاطىء في القسطنطينية . حيث كان الليل قد خيم ولم يعد احد يراهم . حتى ان الأسماك الزرقاء والثعابين التي كانت تتحد خلفهم .

اتحدوا تماماً كالأسماك والثعابين ، عشاقاً ، لتتلاحق أجسادهم ، كالثعابين كوماً ، كوماً ، بشكل طويل بينما يعلو صفيرها . وبين تلك الأكوام كانت السيدة هورتنس ذات الأربعة عشرة ربيعاً ، عشرون ، اربعون ، ستون ، تصفر أيضاً بجسدها العاري الناصع البياض ، يتصبب منها العرق ، وتنفرج شفتاها عن اسنان ناصعة ، حادة ساكنة دون ان تطفىء ظمأها .

لم تنس أي شيء ، ولم يختف اي مغرم . فهم يحيون من جديد ، في صدرها المنثني ، مسلحين . فكأنها مدمرة بحرية ، بثلاثة اشرعة ، وكأن على احبائها ، وهي لا تزال في الخدمة منذ خمسة وأربعون عاماً ، يتسلقونها ، يسيطرون على سطحها ومخازنها وحبالها . في حين انها ما زالت تتابع طريقها ، بعد ان اصابتها الفتحات اكثر منه الف مرة ، تتابع طريقها الى مينائها الأخير ، الذي كانت تأمل ان تصله من وقت ليس بالقريب : الزواج ، ويعلو وجه زوربا الف شكل : اتراك ، غربيون ، ارمن ، عرب ، يونانيون ، وعندما تعانقه السيدة هورتنس تعانق معه كل ذلك الركب الطويل .

وفجأة ادركت السيدة المتصابية بأني قد توقفت عن القراءة . واختفت الأحلام من مخيلتها .. وفتحت عينيها وهمست بصوت موبخ وهي تحاول ان تبلل شفتيها :

— الا يوجد شيء آخر ؟

— ما الذي تريدينه اكثر من هذا ، الا تشاهدين ؟ ان الرسالة كلها تتحدث عنك . أربع صفحات . وهناك ايضاً على الزاوية قد رسم قلباً . وزوربا يقول بأنه هو قد رسمه . اقتربي .. يوجد سهم ايضاً يخترق القلب . وتحته ايضاً حمامتان متحدتين . وعلى جوانحها كتب بحبر أحمر لا يرى : هورتنس — زوربا .

الحقيقة لم يكن هناك لا حمامتان ولا كتابة ، إلا ان عيني العجوز كانتا قد اغرورقتا بالدموع . واصبحت ترى كل مـــا تحب ان تراه . وبدأت السؤال من جديد :

— بالله .. ألا يقول شيئاً آخراً ؟

الأجنحة ، ومياه الحلاق الملأى بالصابون ، والحمام لم يكن ، بالنسبة لها ، إلا كلمات تافهة . إلا ان عقلها كامرأة كان ينشد شيئاً عملياً اكثر. شيئاً مطمئناً. هذه الكلمات الرقيقة قد سمعتها كثيراً ، ولم تفدها شيئاً . أما الآن ، وبعد هذه السنين من الخدمة الطويلة ، لا تزال وحيدة منزوية دون ان تملك أي شيء .

وهمست ثانية :

— لا شيء ... لا شيء آخر ؟.

وركزت عينيها فوق عيني كأنها غزالة ملاحقة ، فحن قلبي ، وقلت :

– هو يقول ايضاً شيئاً هاماً يا سيدتي . وقد احتفظت به للنهاية .

– هيا قل .. !

– قال بأنه ، عندما يعود ، سيرمي بنفسه على قدميك ، ويتوسل اليك ان تقبليه زوجاً لك ، فهو لم يعد يحتمل ، فهو يريدك ان تكوني زوجته اللعوب ، السيدة هورتنس زووبا ، لكي تبقيا معاً إلى الأبد .

عندما وصلت لهذا ، بدأت السيدة تبكي بحق. فهذه كانت سعادتها الكبرى ، الميناء التي طالما تاقت أن تصله . كان هذا هو الاسف على حياتها بأكملها . انها ستجد الحنان ، وتضطجع على فراش نظيف ، بريء . فهي لا تتمنى شيء اكثر من هذا .

وأخفت عينيها وقالت بصوت متنازل كأنها سيدة كبيرة :

– حسنا ... اني أقبل ، ولكن يجب ان تكتب له ، ارجوك ، ان يحضر معه بعض اكاليل زهر الليمون والشمع ابيض ، فهذا ليس موجود هنا ، ليحضره من كاندي . ويحضر أيضاً حلوى من اللوز الجيـــد . وأهم شيء ثوب الزفاف الأبيض ، وجوارب حريرية وحذاءين من الأطلس . وقل له ان لا يحضر اغطية للأسرة فعندي منها . ويوجد أيضاً سرير كبير .

أنهت لائحة طلباتها ، فهي منذ الآن قد اصبحت تظن بان زوجها ليس إلا خادماً ليلبي طلباتها ، ووقفت واتخذت فجـــأة منظر امرأة محترمة وقالت بصوت متزن :

– عندي شيء هام .. أحب ان اقوله لك ..

وصمتت مرتبكة .

– هيا قولي يا سيدتي ، فأنا تحت تصرفك :

– اننا نحبك ، زوربا وأنا ، ولا نشعر بالحياء تجاهك وانت كريم ، ارجو ان تكون شاهدنا .

ارتعشت . كان لدى عائلتي في الماضي خادمـــة مسنة تدعى ديمندولا ، يناهز عمرها الستين ، اصابها قليل من الجنون لانها بقيت عانس لمثل هذا العمر . عصبية ، جلدها فظيع ، بلا صدر ، حتى كاد ينبت لها شاربان . احبت عامـــل العطار الموجود في الحي ، يدعى ميتسو ، فلاح سمين اسمر .

وكانت كل يوم أحد تكرر عليه السؤال :

– متى يأت الوقت الذي ستتزوجني فيه ؟ كيف تقدر على الإحتمال انت ؟ فأنا لا أقدر .

فيرد عليها العطار ، الذي كان يسايرها خوفاً على عملائه .

– ولا انا يا عزيزتي دعندولا ، ولكن يجب ان تصبري قليلاً . لكي ينبت شاربي أنا أيضاً .

ومرت السنوات والعجوز تصبر ، فقد ارتاحت اعصابها ، وخفت آلام رأسها وبدأت شفتاها المرة التي لم تذق طعم القبل ، تعرف طريق الابتسام . وبدأت تنتبه لغسيل الملابس ، وتكسر أقل عدد من الصحون ، وتعتني بالطعام لكي لا يحترق .

قالت لي يوماً سراً :

– اتقبل ان تكون شاهدنا ؟

فأجبتها وقد جف حلقي من المرارة :

– اتمنى هذا من قلبي .

فهذه الحادثة قد تركت لي ذكرى أليمة ؛ لهذا فعندما سمعت السيدة هورتنس تكرر نفس العبارة ارتعشت وقلت :

– اتمنى هذا من كل قلبي .. فهذا شرف عظيم لي يا سيدتي .

وقفت ، وأصلحت شعرها الذي كان ينسدل تحت قبعتها وبللت شفتيها :

– ليلة سعيدة ايها الصديق ، ليلة سعيدة ... ولنأمل ليعود لنا بسرعة .

رحت اراقبها وهي تبتعد متمايلة ، كما تمشي الفتيات الصغيرات . فالفرح قد زودها باجنحة خفيفة ، كان نعلاها يتركان حفراً صغيرة خلفها .

وما كادت تغيب عن ناظري حتى سمعت صيحات عالية وبكاء وعويل ، وقفزت مسرعاً ورحت اركض ، ففي الجهة المقابلة للشاطيء ، كانت بعض النسوة يصرخن ويبكين وكأنهن يرسلن نشيداً حزيناً . تسلقت صخرة ونظرت . كان بعض رجال ونساء من القرية يقتربن ، وبعض الكلاب تعوي خلفهم ، وكان هناك أيضاً فارسان أو ثلاثة يسيرون أمامهم ويتركون خلفهم غبار كثيف . فهمست بنفسي : « لا بد وان هناك كارثة » ، واسرعت نحو الشاطيء .

كانت الأصوات تزداد ارتفاعاً . وكانت غيمتان صغيرتان من غيوم الربيع

تكن في المساء بهدوء عند الغروب ، وكانت شجرة الآنسة قد غطتها اوراق خضراء نضرة .

رجعت السيدة هورتنس ، وقد تهدل شعرها ، تلتقط انفاسها بصعوبة . وقد خلعت أحد نعليها ، وممسكة به بيدها وهي تبكي راكضة . وصاحت بي ؟

– يا إلهي .. يا إلهي ..

وكادت تقع لشدة سرعتها فاوقفتها :

– ما الذي يبكيك ؟ ماذا حدث ؟

ساعدتها على وضع حذائها في رجلها :

– اني خائفة جداً ... خائفة كثيراً .

– خائفة ؟ من أي شيء ؟

– من الموت !

لقد شمت من الهواء رائحة الموت، وغلبها الخوف. أمسكت ذراعها لأهدئها إلا ان الجسد المسن بقي على مقاومته ، مرتعشاً وصاحت :

– لا ... لا أريد .

كانت العجوز تخشى من مجرد الاقتراب أي مكان زاره الموت ، خوفاً من ان يراها عزرائيل فيتذكرها ... فهي ككل المسنين ، تحاول قدر الامكان الإختفاء بين اعشاب الأرض لأكتساب لونه الاخضر ، حتى لا يستطيع عزرائيل رؤيتها . كانت ترتعش من قمة رأسها لأقصى قدميها ، وقد غار رأسها بين كتفيها المكتنزين .

وسحبت نفسها إلى جانب شجرة زيتون وناولتني معطفها قائلة .

– ضعه علي ليدفئني .. دفئني واذهب لترى ما الذي حدث .

– هل تشعرين بالبرد ؟

– أجل ... دفئني ...

وضعت عليها المعطف ، كأحسن ما يكون . بحيث انها كادت تتحد بالأرض ، وتركتها وذهبت ، عندما اصبحت قريباً من الشاطيء ، بدأت اسمع بوضوح الأناشيد الجنائزية . مرّ « ميميتو » بقربي راكضاً . فصرخت به :

– ما الذي حدث ما ميميتو ؟

فرد علي دون ان يتوقف :
– لقد انتحر ... لقد اغرق نفسه !
– اغرق نفسه ؟ من ؟ ! .
– انه بافلي ، ابن ما فراندوني .
– لماذا ؟
– الأرملة ...

وتصلبت الكلمة ، وتوقفت في الهواء ، وبدا جسد الأرملة المدمر اللين عبر العتمة . عند ذلك كنت وقد وصلت المكان الذي تجمعت فيه القرية بأكملها . الرجال عراة الرؤوس صامتين ، والنسوة يندبن ويرسلن ضيحاتهن الممزقة ، تاركين مناديلهن تنسدل فوق اكتافهن . وعلى الحصى كان جسد الشاب مجثى منتفخاً بلا حراك ، ومافراندوني ، الأب منتصباً فوقه ، يحدق به بصمت دفين . وكان يتكىء على عصاه بيده اليمنى . وممسكاً لحيته البيضاء بيده اليسرى . وفجأة ارتفع صوت حاد :
– لعنة الله عليك ، ايتها الفاسقة ، ستنالين القصاص من الله على هذا ..
وقفزت امرأة بين الرجال والتفتت بهم صائحة :
– أليس منكم رجلاً شجاعاً ليذبحها على ركبته كالنعجة ؟ يا لكم من جبناء ! .

وبصقت باتجاه الرجال ، الذين كانوا يحدقون بها دون ان يتفوهوا بكلمة واحدة فأجابها كوندو مانوليو ، صاحب الحانة صارخاً :
– يجب ان لا تهيننا ، يا ديلكاتيرنا ، فيوجد شجعان واقوياء في القرية ، وسيثبتوا هذا .
لم أعد احتمل اكثر من هذا فصحت بهم :
– ان هذا مخذي ايها الاصدقاء ، ما ذنب تلك المرأة ؟ لقد كان هذا قدره . ألا تخافون أمر الله ؟

إلا ان احداً لم يرد . تقدم مانولاكس ابن عم المنتحر ، بجسده الضخم القوي ، وحمل الجثمان على ذراعيه وشق طريقه ، ليسير أمام الحشد في طريقه إلى القرية .

كانت النسوة يندبن ، ويشددن شعورهن ، ويلطمن خدودهن ، وعندما بدأ الجثمان يتحرك ، ركضن ليلمسنه ، إلا ان ما فراندوني الأب ، رفع عصاه

وجعلهن يبتعدن ، وسار في مقدمة الحشد ، عندها مشين وراءه ، وهن يرسلن الأناشيد الجنائزية ، وسار الرجال في المؤخرة بسكون .

وبدوا يتلاشون تحت شمس الغسق. وعاد البحر ثانية لهدوئه الدفين ، التفت حولي ، لم يكن هناك غيري . فقلت مخاطباً نفسي « يجب ان ارجع ، فهذا يوم آخر قد أخذ حصته من الحزن والمرارة » ؟ .

سرت في الطريق متأملاً . انني مندهش بهؤلاء الناس ، المتحدين تماماً مع الأحزان الإنسانية ، السيدة هورتنس ، زوربا ، الأرملة وبافلي المسكين الذي رمى نفسه بين الأمواج ليطفىء النار التي كانت تتأرجج داخله . وديلكاتيرنا التي كانت تطالب بقتل الأرملة ، ومافراندوني الذي كان يقاوم دموعه وصيحاته أمام الآخرين . أنا الوحيد الذي كنت واقعياً . لم أشعر بحرارة الدماء تغلي في عروقي ، ولم اعشق أو اكره بشدة . فأنا أود الآن أن القي بكامل المسؤولية على القدر ، لأجبن واهرب من المسؤولية .

وعبر العتمة الخفيفة ، شاهدت العم انانيوستي ، الذي كان لا يزال منتصباً هناك . كان يتكىء بذقنه إلى عصاه ، ويحدق بالبحر ، ناديته إلا انه لم يسمعني ، اقتربت منه . عندها شاهدني فحرك رأسه وهمس :

– يا للبشرية الحزينة ، يا للشباب الغض ، فالمسكين لم يقدر ان يقاوم ألمه ، فرمى بنفسه في البحر وغرق ، وهكذا خلص روحه من العذاب .

– خلص نفسه ؟

– أجل لقد خلص نفسه ، يا ولدي ، ما الذي يقدر ان يفعل في حياته ؟ فلو أخذ الأرملة كزوجة له ، لأختصم معها ولحقته الفضيحة بسرعة . فهي كفرس تماماً ، الفاسقة ، فعندما تشم رائحة رجل تبدأ بالصهيل ، وان لم يتزوجها لأمضى حياته في ألم وعذاب وتخيل بانه قد أضاع سعادته العظيمة ، الموت من أمامه ، والهلاك من ورائه .

– كلا .. لا تقل هذا ، فان من يصغي اليك يشعر بوهن في ركبتيه .

– لا تخف فليس من يسمعني ، ولو سمعوني لما اخذوا كلامي على محمل الجد . ترى ، هل يوجد انسان له حظ كبير مثلي ؟ ! كنت أملك ، كروم ، وحقول شاسعة للزيتون وبيت بطابقين ، لقد كنت ثرياً . عشقت امرأة فاضلة ولينة لم تنجب لي إلا الصبيان ، لا أذكر مرة واحدة انهـا رفعت عينيها لتحدق في

وجهي . وكل أولادي من اصحاب الأسر الصالحة ، وحتى ان لي احفاد أيضاً . فما الذي أطلبه غير هذا . لقد تركت أسس عميقة . ومع هذا ، فلو كان علي ان اعود لأبدأ ثانية ، لربطت صخرة كبيرة إلى عنقي ، مثل بافلي ، ورميت بنفسي في البحر ، فالحياة صعبة جداً ، حتى لأصحاب الحظوظ ، انها صعبة ، الفاجرة.

– ما الذي تعوزه ، ايها العم اتانيوستي ، لماذا تشكو ؟ وممَ ؟

– لقد اخبرتك بانه لا يعوزني شيء . إلا انك يجب ان تسأل فليس الانسان ...

وصمت فجأة وشعرت بانه أسف لكل الكلمات التي تفوه بها ، كأنه قد افشى سراً دفيناً ، راح يحاول ان يخفيه من جديد .

– انك لا زلت شاباً يافعاً ، فلا تصغي لكلام العجز ، فلو استمعت الدنيا للعجز لمشت نحو الخراب بسرعة . فان صادفت ارملة في طريقك ، تمسّك بها وتزوجها ، ولتنجب لك اطفالاً ، دون تردد . فهذه المشاكل والمضايقات قد وجدت خصيصاً للشباب .

* * *

اخيراً وصلت إلى الكوخ ، اضرمت النار وحضرّت الشاي ، لقد كنت منهوك القوى ، أشعر بجوع فظيع ، فتناولت طعامي بجشع ، تاركاً لسعادتي الحيوانية العنان .

وفجأة ظهر رأس ميميتو عبر النافذة الصغيرة ، وراح يحدق فيّ وأنا آكل قرب النار وعلت وجهه ابتسامة خبيثة .

– لماذا جئت لها يا ميميتو ، ما وراءك ؟

– لقد جئتك بشيء من عند الأرملة ، سلة ليمون ، لقد قالت انه آخر محصول حقلها .

فقلت مرتبكاً :

– من عند الأرملة . ؟ ولماذا ترسلها لي ؟

– لقد قالت بانها من أجل ما قلته عنها هذا اليوم لأهالي القرية .

– ما الذي قلته ؟

– لا أعلم ، هذا ما قلته هي .

وصب محتويات السلة من الليمون فوق السرير . وامتلأ الكوخ برائحته .

– ستخبرها اني جد شاكر لهديتها ، ويجب ان تكون حذره ، حتى يجب ان لا تذهب إلى القرية . سمعت ؟ يجب ان تبقى في البيت ،حتى تنسى الكارثة . هل فهمت يا ميميتو؟ .

– هل هذا كل شيء ايها الرئيس ؟

– أجل كل شيء ؟

ونظر إليّ بطرف عينه قائلاً :

– كل شيء ؟ !

– إذهب ! .

واختفى . تناولت تفاحة كبيرة ناضجة ، حلاوتها كالعسل . واضطجعت ونمت . خلال الليل كنت اتجول بين بساتين الليمون . كانت الريح الدافئة تصفر بين الأشجار . وارتفع صدري إلى أقصى حد . وأمسكت بغصن ريحانه صغير ووضعته فوق اذني . كنت فلاحاً شاباً في حوالي العشرين اتجول بين اشجار الليمون ، منتظراً وأنا اصفر ، ما الذي كنت انتظره ، لا أعلم ، إلا ان صدري كان على وشك الفرقعة من السعادة . داعبت شاربي ، ورحت استمع طوال الليل ، إلى البحر يتنفس بهدوء كأنه امرأة خلف اشجار الليمون .

- ١٥ -

كان يوماً مجنوناً الرياح الحارة كانت شديدة تهب من خلف البحر من على رمال افريقيا المحرقة ، كانت الرياح الرملية تغطي الجو ، وتدخل الحنجرة والرئتين . الأسنان تتسخ والعيون تمزق . فقد كان لا بد من اقفال الأبواب والشبابيك . لأتمكن من ان اتناول الخبز دون أن تغطيه الرمال .

كان الجو مثقلاً ، فأنا اليوم اصبحت عرضة لمضايقات الربيع ، في ذلك المثقل بالغبار المحرقة ، انحطاط ، سعلة في الصدر ، وقشعريرة في الجسد بأكمله ، وأخيراً الشعور بالرغبة — الرغبة أو العودة ، إلى سعادة كبيرة وناعمة .

رحت امشي عبر الطريق الجبلية الوعرة ، فقد سيطرت علي رغبة قاتلة في ان اتوجه نحو المدينة الميتوسيه الصغيرة التي ظهرت بعد الآف السنين ، لتشعر بالحرارة من جديد تحت اشعة شمس كريت الحبيبة همست في نفسي « لعل كل هذا التعب سيختفي بعد مسير ثلاث أو اربع ساعات » ؟

صخور رمادية عارية ، وتلال وعرة المسالك كما اهواها . وتحت الأنوار اللماعة ، وقفت بومة مغمضة العينين ، تكتنفها الألغاز ، وتسيطر عليها الاسرار تبرز عينيها المستديرتين بشكل غريب فوق هذه الصخور ، خففت من خطاي ، إلا انها انتبهت لوقع اقدامي وطارت هاربة .

كانت رائحة الزعتر تهب على الجو ، وكانت بعض الأعشاب الصفراء قد بدأت تنتفخ بين الأشواك .

عند وصولي لتلك المدينة الصغيرة الهرمة ، وقفت مشدوهاً ، كان الوقت حوالي الظهر واشعة الشمس تسقط مباشرة فوق الانقاض ، يا لها من ساعة خطرة في مثل هذا الوقت بالنسبة للمدن المدمرة . إذ ان الصيحات والأرواح تسيطر على الجو ، ما ان تشعر بتحطيم غصن ، او مرور طير ، وظل سحابه مارّة حتى يسيطر عليك فزع شديد ، فكل خطوة تضعها على الأرض ، ما هي

إلا خطوة فوق قبر ، ويتناهى لسمعك أصوات غريبة ، كأن الأموات يتنفسون .

ورويداً رويداً تعتاد العين على النور الساطع ، فبين هـذه الصخور العارمة استطعت ان أرى شيئاً من عمل الانسان : دربان عريضان يغطيها البـلاط اللمّاع . وعلى جانبيها ازقة وزواريب ضيقة متباعدة . أما في الوسط فيوجد ساحة واسعة دائرية الشكل ، وبجانبها ينتصب بتواضع واضح ، قصر الملك . اعمدته متطاولة ، ودرجات سلالمه صخرية واسعة ، مع توابعه التي لا تعد .

أما في داخل المدينة ، حيث كان الناس قد وطئوها أكثر من غيرهـا ، يبدو المعبد ، والآلهة الكبيرة تقف بصدرها العـارم ، وساعديها تلتف حولها الأفاعي .

وعبر المكان بأكمله كانت تنتشر ، الحوانيت ، المخازن ، معامل زيت ، حدادة ، نجارة ومعامل صغيرة لصنع الأواني الفخارية ، فهي عبارة عن خلية نحل . أوجدت بحذاقة في مكان ، كما اديرت اعمالها بحذاقة . وبعد الآف السنين هجرها النحل . وفي احد الحوانيت كان يوجد آنية خزفية لم تتم ، حيث ان صانعها لم يتح له الوقت لاتمامها . فقد وقعت عدته منه ، ثم وجد بعـد آلاف السنين بجانب الاناء الذي لم يتم .

تلك الأسئلة الخالدة ، والتي لا تنفع ، الغبية ، لما ؟ لماذا ! ؟ تعود من جديد لتسمم القلب . فهذا الإناء الخزفي الغير متمم ، الذي دمرت بجانبه حماسة الصانع في ذروة انطلاقها السعيد المطمئن اعـادت لنفسي الثقـة وابعدت عنهـا الحزن والأسى .

وفجأة بدا أمامي بين الصخور ، راع قصـير القـامة ، اسمر اللون ، الركبتين ، ذو شعر مشعث يحيط به منديل وسخ وصاح .

— أوه . ايها الصديق !

كم تمنيت ان ابقى وحيـداً ، تظاهرت باني لم أسمعه . إلا ان الراعي غرق بالضحك هازئاً .

— آه انك تتظاهر بعدم السمع إيها الصديق ، هل معك سيجارة ؟ فأنا هنا في هذه الصحراء وحيداً منزعجاً .

شدد على الكلمة الأخيرة من عبارته ، مما جعلني اشعر بالشفقة نحـوه . لم أكن احمل سجائر فحاولت ان اقدم له بعض النقود ، إلا انه غضب صائحاً :

— فلتذهب النقود إلى الشيطان ، قلت لك باني منزعج : ناولني سيجارة !
— لا احمل سجائر .
— لا تحمل ... لا تحمل ، ولكن ما الذي يملىء جيوبك هكذا ؟
وسحبت الأشياء من جيوبي الواحدة تلوى الأخري قائلاً :
— كتاب ، منديل ، بعض الورق ، قلم وسكين . هل تريد السكين .
— كلا ... فعندي واحدة . بل عندي كل شيء . خبز ، جبن ، زيتون ، سكين مخرز ، جلود لأحذيتي وماء ، قلت عندي كل شيء ولكن بدون سجائر ، إذن فأنا لا املك شيئاً . ولكن ما الذي تفتش عنه هنا في هذه الخرابة ؟

— اتفرج على هذه الأنقاض القديمة .
— اتفهم شيء منها ؟ .
— لا شيء البتة .
— لا شيء كذلك أنا ، فهي صامتة ميتة ، ونحن على قيد الحياة ... هيا ابتعد ! .

شعرت وكأن روح المدينة هي التي تطردني ، فأجبت طائعاً :
— سأبتعد .

من وقت لآخر كانت ، الروائح المطرية القادمة من البساتين المحيطة ، تمر فوقي . كانت الأرض تعبق ، والبحر يقهقه والسماء صافية زرقاء تتلألأ كأنها فولاذ .

ان فصل الشتاء يجعل الصدر ينقبض ، إلا ان الدفء قد بدأ يقترب وهذا يجعل النفس تنفرج . وبينما كنت اتابع سيري ، تناهى لسمعي صوتاً مبحوحاً من السماء ، نظرت ، انه المنظر الجميل الذي كان يسلب لبي منذ حداثتي ، كانت طيور الكراكي تنتصب ، بصفوف كأنها جيش يستعد للحرب . كانت قد عادت من البلاد الحارة وكما تقول الاسطورة ، تحمل على أجنحتها . طيور السنونو وفي ثنايا جسدها الكبير .

انها سنّة الدنيا التي لا تتغير ، وعجلة العالم الدائرة ابداً ، وفصول السنة الأربع ، التي تضيئها الشمس الواحد تلو الآخر . والحياة السائرة ، كل هذا جعل قلبي ينقبض . بدأ صدى ذلك الصوت المرعب يتردد من جديد

ليس للانسان غير هذه الحياة الوحيدة . ولن تكون أي حياة ثانية فكل فكل متعتنا يجب ان نفتنمها هنا على الأرض . أما في الآخرة ، فلن تتح لنا الفرصة لأي متعة ثانية .

فالروح التي تسمع ذلك النداء المرعب ، والتي تكتنفه في نفس الوقت الشفقة ، لا يسعنا إلا ان تعزم على قهر ضعفها ووهنها . ان تنقلب على الكسل والمثل العليا الباطلة لتتمسك بكل قوتها بكل لحظة من اللحظات التي تمر إلى غير رجعة .

وتنتاب الذاكرة امثال عديدة ، ونرى بوضوح باننا لسنا إلا بشر تائهين . والحياة تمر مع المتع القليلة ، ومع الأحزان القليلة ، وفي برهات ليست لها أي قيمة ، وفجأة نبدأ الصراخ «يا للعار » . وندمي شفاهنا بأسناننا .

مرت الطيور فوقي وعبرت السماء نحو الشمال لتتلاشى في البعيد البعيد . إلا ان صوتها ظل يطن في اذني .

اخيراً وصلت الشاطيء ، مشيت بجانب المياه بخطى واسعة . يا له من حزن وأسى الذي تشعر به ، عندما تسير وحيداً على الشاطيء . فكل لطمة موج ، وكل طائر يذكرك بواجبك الذي عليك ان تقوم به ، عندما يرافق الانسان أي شخص يضحك ويصيح ويتناقش . وكل هذه الأصوات تجعله لا يسمع ما تقوله الأمواج والطيور ، ربما هي لا تقول شيئاً بالأساس . فهي تنظر اليك ماراً ، تثرثر ، فتصمت. ارتميت وتمددت على الحصى واغلقت عيني ، وهمست في نفسي : « ما هي الروح ؟ وما هي العلاقة التي تربطها بالبحر ، بالسحاب بالروائح العطرية ؟ كأن الروح نفسها ، بحر ، عطر وسحاب » .

وقفت وتابعت سيري من جديد ، وكأني قد قررت شيئاً ، ولكن أي شيء قررته ؟ لا أعلم . وفجأة سمعت صوتاً خلفي :

— إلى أين تتجه أيها الرئيس ؟ إلى الكنيسة ؟ .

التفت . فاذا هو عجوز قوي البنية ، قصير لا يحمل عصاً يربط رأسه بمنديل ابيض . كان يلوح بيده نحوي ويبتسم . تتبعه سيدة عجوز وخلفها ابنتها ، صبية سمراء ، ذات عينين وحشيتين تغطي شعرها بمنديل ابيض . وكرر العجوز سؤاله :

— إلى الكنيسة ؟

وفجأة ادركت بأني قد قررت ان اتوجه الى الكنيسة . منذ عدة شهور وأنا أود الذهاب الى دير الراهبات المنتصب قرب البحر . ولم استطع ان اقرر . لقد قرر جسدي هذا دون ادراكي هذا المساء ، فأجبته .

ـ اجل اني ذاهب الى الكنيسة لأصغي الى اناشيد السيدة العذراء .

ـ لتكون بعونك .

واسرع بخطاه حتى قاربني وقال :

ـ هل صحيح انك انت شركة الفحم ، كما يقال ؟ .

ـ أجل .

ـ فلتضفي عليك العذراء نعمتها ، ولتربح كثيراً . فانك خير كبير للقرية ، فانك تقدم لأرباب الأسر القوت ليطعمونه لأولادهم . باركك الله .

وصمت لحظة ثم اردف ، فقد كان لا بد وانه يعلم كيف تجري الامور :

ـ حتى وان لم تنتج شيئاً يا ولدي ، فانك انت الرابح ، فستذهب روحك الى الجنة مباشرة .

ـ هذا ما اتمناه ايضاً .

ـ انني لست متعلماً كثيراً ، الا انني سمعت مرة في احدى الكنائس شيئاً قاله المسيح ، وقد حفظته في ذاكرتي ولن انساه ابداً لقد قال : بع .. بع جميع ما عندك ، لتشتري اللؤلؤة الساطعة » وهذه اللؤلؤة ما هي الا سلام النفس وطمأنينتها . وأنت ايضاً ايها الرئيس ، تمشي في نفس الدرب الذي يوصلك إلى اللؤلؤة الساطعة .

اللؤلؤة الساطعة ! لقد لمعت داخلي دائماً ، وسط العتمة وكأنها دمعة كبيرة . وتابعنا طريقنا ، الشيخ وأنا في الأمام ، والسيدة المسنة وابنتها في المؤخرة ، وايديهما متشابكة . ومن وقت لأخر كنا نلقى على بعضنا قليلاً من الاسئلة « هل ستحتمل ازهار الزيتون وتبقى ؟ هل سينهمر المطر لينضج القمح ؟ لا يبدو اننا كنا جائعين كلانا . لأن الحديث كله دار حول الطعام ولم نشأ تغييره .

ـ ما هي اكلتك المفضلة ايها الجد ؟

ـ جميع انواع الطعام يا ولدي ، فانها غلطة كبرى ان تقول : هذا طيب وهذا رديء .

– لماذا ؟ اليس بيدنا ان نختار ؟
– كلا .. بالطبع .
– لمـــاذا ؟
– لان هناك دائماً من هم جياع .

ولذت بالصمت حياء ، فان قلبي لم يشعر مطلقاً بمثل هذا الاحساس بالمشاركة والنبل ، وسمعت جرس الكنيسة يقرع ، فرح وسعادة كأنه صوت قهقهة امرأة ورسم الشيخ علامة الصليب وهمس :

– ليكن القربان المقدس في عوننا . فمنقها مصابة بطعنة خنجر ، والدمـاء تسيل منها ، كانت ايام القراصنة ..

وراح العجوز يتكلم عن الام السيدة العذراء كأنها سيدة حقيقية . عن فتاة ملاحقة ، كاد الكفار أن يمزقوا جسدهـا بطعناتهم . فأتت الى الشرق ، وهي تنوح . وأردف العجوز :

– وفي كل سنة مرة واحدة ، ينزف الدم الحار من جرحها. فأنا أذكر ، مرة ، كان يوم عيدها . في تلك الايام كنت شاباً لم ينبت شاربي بعد . انحدرنا جميعـاً من القرية لنركع أمام عظمتها . كان ذلك يوم ١٥ آب . وتمددنا نحن الرجال في الساحة لنغفو . وتمددت النسوة في الداخل . وخلال النوم ، تناهى لسمعي صوت العذراء تصرخ ، فنهضت وأسرعت الى إيقونتها ، ولمست بيدي عنقها ، ما الذي شاهدته ؟ كانت يدي كلها مغطاة بالدماء .

ورسم الشيخ إشارة الصليب ثانية . ونظر إليّ والى المرأتين وصرخ :

– هيا اسرعوا لقد وصلنا .

وهمس بصوت خافت :

– بيومها لم أكن قد تزوجت بعد .. ألقيت بنفسي على الأرض ، وركعت أمام عظمتها ، ووعدتها بأن أترك دنيا الكذب ، وقررت أن أصبح كاهناً .

وغرق بالضحك .

– لم تضحك ايها الجد ؟

– لأن فعلاً هناك ما يثير الضحك . ففي نفس اليوم ، خلال مراسيم العيد ، شاهدت الشيطان متنكراً بصورة امرأة .. وكانت هي .

ودون أن ينظر خلفه ، أشار الى العجوز التي كانت تسير خلفنا بسكون .

ثم قال :

– لا تلتفت اليها ، لقد اصبحت مقرفة الآن . ففي ذلك الوقت كانت صبية تتبختر وتتمايل كالسمك ، فقد كانوا يسمونها « الحسناء ذات الجفون الطويلة » ، والحقيقة انها كانت تستأهل لقبهـــا هذا . أما الآن ... واحسرتاه ... فقد تساقطت جفونها ..

وفي هذه اللحظة أرسلت العجوز همهمة مكبوتة كأنها وحش كاسر تقيده السلاسل . إلا أنها لم تقل أي كلمة . وقال الشيخ ماداً ذراعه :

– هناك .. هذه هي الكنيسة .

كان الدير يتـلألأ ببيـــاضه الناصع ، قرب شاطىء البحر .. وهو يقع بين صخرتين كبيرتين. وفي ساحته كانت الكنيسة التي أجريت عليها بعض الترميمات منذ مدة قريبة فتظهر صغيرة دائرية كأنها صدر امرأة . ويحيط بالكنيسة خمس أو ست غرف بأبواب زرقاء . وفي باحتهـــا ثلاث اشجار من السرو . وحول السياج بأكمله توجد أشجار التين البري المتفتحة .

أسرعنا خطانا . وتناهى لسمعنا عبر نافذة الدير المفتوحة أنغــام التراتيل الدينية ، وهيمنت على الهواء رائحة اللبان . كان الباب الخارجي الكبير مقوّساً ومفتوحاً على مصراعيه نحو باب الباحـة النظيفة ، التي يغطيها الحصى الأبيض والأسود . وعلى جوانبها فوق الجدران ، صفوف من أوعيـــة زهور الحبق .

كان المكان هادئاً ، عذباً .. وكانت الشمس تميـل نحو الغروب ، والجدران المغطاة باللون الأبيض قد انقلبت وردية .

كان الهواء يحمل رائحة الشموع المحترقة داخل الكنيسة الصغيرة ، الحارة ، ذات الأضواء الخافتة ، والبعض ، النساء والرجال يظهرون عبر دخان البخور ، وخمس او ست من الراهبات ترتلن مرتدين ملابسهم السوداء ، بأصوات ناعمة ، هادئة نشيد « إله جميع القرى » وكل مـا كن يتحركن كانت أصوات حفيف ملابسهن ترتفع لتصل الينا كأنها أصوات أجنحة .

فأنا منذ سنين عديدة ، لم اسمع ترانيم السيدة العذراء . فعندما كنت لا زلت شاباً طائشاً ، كنت كلماأمر أمام الكنائس يسيطر علي الانزعاج والاستهزاء . إلا انني مع الزمن هدأت ، بل اصبحت أذهب الى الكنيسة في الاعياد الرسمية ، الميلاد ، البيرموت ، الفصح ، كانت تغمرني سعادة كبيرة عندما أشعر بأن الطفل الذي

في داخلي يحيا من جديد . ان رعشة البارحة قد انقلبت الى متعة جماليــة . ان البدائيين يظنون بأنه عندما لا يعودوا يستعملوا إحدى الآلات الموسيقية ، في التراتيل الدينية تذهب منها قدرتها الالهية ، وعندها ترسل الأصوات الايقاعية. هكذا انحدر الايمان في داخلي وتحوّل الى فن .

انزويت في أحد أركان الكنيسة واتكأت على مقعد لمّعته أيدي المؤمنين حتى بدا كالعاج. ورحت استمع مأخوذاً الى للتراتيل البيزنطية وهي ترتفع من أعماق الزمن ! السلام عليك ايها المجد الذي لا تصله الأفكار البشرية . السلام عليك ايها العمق الذي لا تنظره حتى أعين الملائكة .. السلام عليك أيتها المرأة التي لم يتزوجها أحد قط..! وتسجد الراهبات من جديد. رؤوسهن الى الأمام، وترتفع اصوات حفيف ملابسهن .

كانت الدقائق تمر ، كأنها ملائكة بأجنحة ، لتمسك بزنابق لم تتفتح بعد . لتترنم بجمال مريم العذراء. واختفت الشمس وهيمن غسق وردي أزرق . لم أعد اذكر كيف وجدت نفسي فجأة في الساحة ، حيث كنت وحيـــداً مع رئيسة الدير وراهبتين صبيتين ، نقف تحت شجرة السرو الكبيرة.وقدمت لي إحدى الراهبات الجدد قليلاً من المربى ، والمـــاء البارد والقهوة . وثم بدأت المحادثة الرصينة .

دار حديثنا عن ما قامت به العذراء من معجزات ، الغنم ، والدجاجات التي قـــد بدأ موسم بيضها بابتداء الربيع . وعن الراهبة ، اودكسي التي ابتلت بالشر الكبير ، وكيف وقعت على بلاط الدير وراحت ترتجف كسمكة ، وتزبد وتشتم ، وتمزق ملابسها . وأردفت الرئيسة متنهدة :

– لقد كانت في الخامسة والثلاثين ، عمر لعـــين ، وأيام قاسية ، فلتكن قداستها بعونها . لقد قيل بانه يلزمها عشرة أو خمسة عشرة عاماً لتشفى .

فهمست برعب :

– عشرة أو خمسة عشر عاماً ..

– ما هي قيمة هذه الاعوام ؟. فكر بالخلود !

لم أتفوه بكلمة ، فقد كنت أعلم بأن الخلود هو كل لحظة من اللحظات التي تمضي . لثمت يد الرئيسة ، البيضاء الثمينة ، والتي تفوح منها رائحة البخور وذهبت ..

كان الظلام قد بدأ يخيم على المكان ، وبعض الغربان كانت تعود مسرعة الي بيوتها . وغادرت البوم أعشاشها لتقتات ، وخرجت الحلازين ، الدود، الفئران وبقية الحشرات لتقدم نفسها لقمة سائغة للبوم .

حاصرتني الأفعى اللغز التي تعض ذنبها : فالأرض تنجب اطفالها لتلتهمهم. ومن ثم تحمل ثانية لتأكلهم بدورهم .

التفت حولي . العتمة تهيمن على كل شيء . وغادر آخر الفلاحين المكان . وخيم صمت تام ، ولم اعد ارى او يراني احد . خلعت حذائي ، ووضعت قدمي في الماء، وتمددت على الرمل،فقد تملكتني رغبة جامحة بأن ألمس بجسدي الحصى ، المياه ، والهواء . لقد أزعجتني كلمة الرئيسة « الخالدة » وشعرت وكأنها ترتمي فوقي كأنها حبل الفارس الذي يلتف حول اعناق الخيل البرية . وقفزت محاولاً الافلات . لقد أحسست بالرغبة الأكيدة بأن ألمس لمساً مادياً ، الارض والبحر، ولأشعر تماماً بأن كل هذه الأشياء المؤقتة لا تزال موجودة .

وعلا الصياح في داخلي ! انت فقط موجودة ايهـــا الارض ، فأنا لست إلا طفلك الاخير . فأنا ارضع صدرك ولا اتخلى عنه ، فأنت لا تدعيني أحيا سوى لحظة واحدة ، وكل لحظة تتحول الى ثدي لأرضعه وأبقى !

وارتعشت وكأنني قد قبلت المجازفة لأرتمي في أحضان تلك الكلمة«الخالدة» التي تتغذى بلحم البشر . فأنا لم اكد انسي ، كم كنت في الماضي ، في العـــالم الماضي فقط، احاول جهدي، وبكل قوتي ان ارتمي فيها طائعاً مستسلماً مغمض العينين .

عندما كنت صغيراً ، في الصف الاول في مدرسة القرية ، كان في كتاب الابجدية ، القسم الثاني منه قصة من القصص الخرافية :

وقع طفل صغير في بئر ، حيث وجد مدينة جميلة مزدانة بالزهور والورود ونهر من العسل وتلال من « الرز بالحليب » وألعاب ذات اشكال كثيرة . وكنت كلما استطعت تهجية قسم تمتلكني الرغبة في ان اغرق اكثر وأكثر في القصة . وفي احد الايام ، عدت ظهراً من المدرسة فأسرعت الى باحة المنزل ، ووقفت على حافة البئر في ظلال شجرة الكرمة . ورحت احدق ، مأخوذاً بصفحة المياه الصافية .وسرعان ما تصورت بأني اشاهد فيتلك المدينة المسحورة. منازل ، طرق، اطفال وكروم تغمرها الثمار. فلم اعد احتمل الانتظار، فأحنيت

رأسي ضارباً الارض بقدمي محاولاً رمي نفسي في البئر . إلا ان امي وصلت في الوقت المناسب ، فشاهدتني وصرخت ، وأسرعت لتمسكني من حزامي.

فعندما كنت صغيراً كدت اقع في البئر . اما اليوم ، وبعد ان كبرت فقد كدت اقع في كلمة « الخلود » وايضاً في بعض الكلمات الاخرى مثل حب ، أمل ، وطن ، الله . وكنت كلما اتخلص من كلمة اشعر بأني اتقدم خطوات نحو الخلاص . وأنا الآن مسجون داخل كلمة « بوذا » .

إلا ان بوذا ، وانا اشعر ذلك تماماً ، وبفضل زوربا ، سيكون البئر الاخيرة ، الكلمة ، الوادي الاخير ، وسأتخلص نهائياً ؟ هذا ما كنت اكرره دائماً ..

وقفت بوثبة واحدة كنت أشعر بالفرح يغمرني منذ قمة رأسي الى أخمص قدمي . وخلعت ملابسي والقيت نفسي في البحر . وبعد مدة ، عندما خرجت من الماء منهوك القوى ، جففت نفسي بنسيم الليـــل . ثم بدأت طريق العودة بخطى واسعة وسريعة ، وأنا أشعر بأني قد تخلصت من خطر داهم ، وانني قـد تعلقت بقوة ، أكثر من أي مرة سابقة ، ، بثديي الأرض .

- ١٦ -

وما ان وصلت الى شاطىء الفحم ، حتى جمدت فجأة . فقد كان النور يغمر الكوخ . فهتفت في نفسي مسروراً « كم أتمنى أن يكون زوربا هناك ! » .

كدت اركض ، إلا أنـني سيطرت على أعصابي . فكرت « يجب ان أخفي سروري ، كما يجب ان أبدو متضايقاً ، وابدأ بالصياح . فقـد بعثت به لأشياء مهمة ، إلا أنه بـــدد النقود والقى بنفسه في أحضان الساقطات . كما تأخر اسبوعين . يجب أن اظهر بأني غاضباً .. يجب ذلك .

ورحت أمشي بخطى بطيئة لكي أترك لنفسي المجـال لأتظاهر . بالغضب . حاولت جاهداً ان أبدو غاضباً . فعبست وتوترت اصابعي . ورحت أمثـــل جميع الحركات التي يفعلها رجل غاضب . إلا أنني لم أشعر حقيقة بالغضب . بل على العكس فقد كان سروري يزداد كلما اقتربت من الكوخ .

رحت اقترب على رؤوس أصابعي ، ونظرت من خلال الشباك . أجل لقـد كان زوربا ... زوربا راكعاً على الأرض ، بعد ان اضرم النـار وبدأ بتحضير القهوة . غاص قلبي من الفرح وصرخت :

– زوربا ... !

فتح الباب على مصراعيه بضربة واحدة من زوربا ، الذي اسرع خـارجاً ، حافي القدمين عاري الصدر ، وقرب رأسه في العتمة ، فشاهـــدني ، فبسط ساعديه ، إلا انه تمالك نفسه وأرخى يديه ، وقال بصوت مرتبـك ، منتصباً دون حراك إلا ان وجهه كان متألقاً :

– مسرور جداً برؤيتك ثانية أيها الرئيس .

حاولت قدر الإمكان ان يكون صوتي فظاً :

– وانا مسرور لانك حملت نفسك عناء العودة ! . لا تقترب فعبير الصابون

يفوح منك .

فهمس بصوت خافت :

– اوه ... لو تعلم كم اغتسلت ايها الرئيس . لقد حككت جسدي ... واي حك . . لقد بقيت اغتسل حوالي الساعة ، قبل ان آتي لأراك . إلا ان هذه الرائحة اللعينة بقيت، ولكن ما الذي نستطيع ان نفعله..على كل فسوف تختفي ، فهذه ليست المرة الاولى .

اجبته وانا اكاد ان انفجر مقهقهاً :

– دعنا ندخل !

دخلنا الكوخ ، الذي كانت تفوح منه الروائح العطرية والمساحيق ، والجوارب ، والنساء .

– اخبرني ما كل هذه الأشياء ؟

صرخت ، بعد ان شاهدت بعض الحقائب وقطع الصابون والجوارب ومظلة صغيرة حمراء . وزجاجة من العطر . كانت كلها موضوعة بإتقان فوق احدى الكراسي .

فطأطأ زوربا رأسه وهمس .

– بعض الهدايا ...

تابعت تظاهري بالفظاظة ذاتها .

– هدايا ! ... هدايا !؟ .

– أجل هدايا ايها الرئيس ، للسيدة العجوز المسكينة ! ... فعيد الفصح قد اقترب و ...

– لكنك لم تحضر لها أهم الأشياء ...

– ما هو ؟ ..

– لماذا تتظاهر بالغباء ؟. اكليل ولوازم الزواج .

وقصصت عليه الحكاية التي اختلقتها للسيدة هوتنس . هرش زوربا رأسه وبعد لحظة تفكير عميقة قال :

– انك لم تأت شيئاً محموداً ايها الرئيس ، اعذرني ، مزاح مثل هذا ... ان النساء مخلوقات ضعيفة ، معرضة للكسر ، من المفروض ان أقول لك هذا . فقطعة من الخزف الصيني يجب ان تدارى بعناية تامة .

لقد شعرت بالندم والحياء أنا أيضاً ، إلا أنه كان قد سبق السيف العزل ، حاولت تغيير مجرى الحديث :

— اين الحبال والآلات !..

— لقد احضرت كل شيء ، لا تتضايق « الاكل لم يمس والكلب شبعان » . المصعد ، ولولا وبوبولينا كلها بحالة جيدة .

وتناول الابريق من فوق الموقد ، وصب في فنجاني ، ثم ناولني قطعة من الكمك بالسمسم ، وقطعة حلوى بالعسل ، كان يعلم بأني افضلها ، وقال لي بحنان ظاهر :

— لقد احضرت لك علبة كبيرة من الحلوى . لم تغب عن بالي ابداً ، انظر ، كما احضرت كيساً كبيراً من الحب للببغاء . بالحقيقة انني لم انس احداً . فرأسي ، ايها الرئيس ، لا يزال مكانه كما ترى .

تناولت الكمك وبعض قطع الحلوى وشربت القهوة وجلست على الارض . شرب زوربا ايضاً قهوته ودخن سيجارة وراح يحدق في وجهي . وأخذتني عيناه . وقلت محاولاً ان يكون صوتي هادئاً .

— هل استطعت ان تحل مشكلتك ايها اللعين ؟

— أي مشكلة ؟

— هل اكتشفت ان كانت النساء مخلوقات بشرية أم لا ؟ .

فحرك زوربا يده الكبيرة مجيباً :

— انس هذا الموضوع ، لقد حلت المشكلة ، فالمرأة كائن بشري أيضاً ، مثلنا تماماً . بل وأردأ منا .. خصوصاً عندما تشاهد حافظة النقود ، تشعر بالغثيان ، وتقترب منك ، وتتخلى عن حريتها بسرور ورضى . لانها شاهدت ، كما قلت ، حافظة النقود الملأى ... الا أنه سرعان ... لننس هذا أيها الرئيس ...

وقف وألقى بسيجارته وأردف :

— الآن ، دعنا نتكلم كرجال ، فالأسبوع المقدس قد اقترب . عندنا الآن الحبال ، وقد حان الوقت لنذهب إلى الدير لنتكلم مع أولئك الملاعين الأغنياء . ونتفق ونوقع أوراق الغابة ... وذلك قبل أن يشاهدوا المصعد ، فتشمخ انوفهم .. أتعلم ؟ ان الوقت يمر ، ولا ينفعنا أن نظل هنا ... يجب أن نحاول

كسب شيء منذ الآن . ويجب أن تأتي البواخر لتحمل ، لتغطي المصاريف .. لقد كلفني السفر إلى كاندي الكثير كما ترى ، لعنــــة الله على الشيطان ... ولكن ...

وسكت ، شعرت بالعطف عليه . فقد كان كطفل صغير قام بعدة أخطاء ، ولا يعرف كيف يعتذر ، كان يرتجف بكل حواسه وأعضائه .

وصحت داخل نفسي « يا للعيب ! كيف يمكن أن نسمح لشخص كهذا ، أن يرتجف من الخوف ؟ هيا قم . فكيف تستطيع أن تجد زوربا جديد ؟ قم تناول الإسفنجة وامحو كل شيء » .

– زوربا ، اترك الشيطان وشأنه . فلسنا بحاجة له . فهذه أشياء قد مضت وانقضت ، هيا تناول السانتوري .

وبسط ذراعيه ، كأنه يود أن يعانقني ثانية ، إلا انه عاد وأرخاها بتردد . وبسرعة وصل إلى الجدار . ووقف على أطراف أصابعه وتناول السانتوري . عندها كان رأسه قد اقترب من نور القنديل فرأيت شعره أسوداً كالفحـــم فصرخت :

– أجب أيها اللعين . ما هذا الشعر ؟ من أين أتيت به ؟

فقهقه زوربا قائلاً :

– لقد صبغته أيها الرئيس . لا تتعجب .. القذر ...

– ولكن لماذا ؟

– العجرفة والكبرياء أيها الرئيس ! وحق الشيطان ، في أحد الأيام كنت أتجول مع لولا ممسكاً بذراعها . أعني ، هكذا بأصابعي فقط ... فأقترب منا صبي لعين ، لا يصل إلى ركبتي ، وراح يضايقنا ، وراح ابن الساقطة يصيـــح : أوه ايها الشيخ .. إلى أين تصطحب حفيدتك ؟ » .

شعرت لولا بالحياء ، وكذلك أنا وكما ترى ، ذهبت نفس المساء إلى الحلاق ، لأصبـــغ شعري باللون الأسود لكي لا تخجل لولا مني » .

غلبني الضحك ، إلا ان زوربا نظر إلي بجد :

– ان هذا يبدو لك مضحكاً أيها الرئيس اليس كذلك ؟ مع هذا أنظر إلي كإنسان ، فمنــــذ ذلك الوقت أصبحت رجلاً آخر . فان كل من يراني ، وأنا أحب هذا ، يعتقد بان شعري أسود طبيعياً . فنحن نستطيع أن ننسى بسهولة

ما نريد . فأنا أستطيع أن أقسم لك بان قوتي قد زادت ، وقد شعرت لولا بهذا ايضاً ، والألم الذي كان يصيب ظهري ، قد اختفى ايضاً . أنت لا تصدقني ؟! فهذه الأشياء ليست موجودة في كتبك ...

وقهقه هازئاً ، إلا انه شعر بالأسف بسرعة فقال :

— آسف أيها الرئيس ، فالكتاب الوحيد الذي قرأته في حياتي هو «السندباد البحري » وكل ما استخلصته منه هو ...

وحمل السانتوري ، وفك اللفة عنه بحذر وعطف وقال :

— لنخرج الى الهواء الطلق ، فالسانتوري هنا بين هذه الجدران الأربعة لا يشعر بالراحة . فهو وحش مفترس يحتاج إلى مسافات ومدى شاسع .

خرجنا . كانت النجوم تتلألأ . ونجمة المجرة تقطع كبد السماء من جهة إلى جهة ، والبحر يتنفس . جلسنا على الأرض ، بينما كانت الأمواج تلحس أسفل أقدامنا . قال زوربا :

— عندما نشعر بالقلق ، يجب علينا أن نترك لأنفسنا المجال للسرور . هل تظن هي باننا سنلقي سلاحنا ؟ هيا أيها السانتوري .

— أرجو أن تعزف لنا نغماً ماسيدونياً من وطنك .

— كلا .. بل نغماً كريتياً من وطنك أنت ، سأغني لك أغنية حفظتها في كاندي ، وقد تغير مجرى حياتي منذ أن سمعتها .

وتأمل لحظة ثم أردف :

— كلا .. لم يتغير مجرى حياتي ، إلا انني ادرك الآن بانني كنت على حق .

ومد أصابعه إلى السانتوري ، وترك لعنقه العنان ، وعلا صوته الوحشي المبحوح المتوجع :

« عندما تقرر شيئاً ، لا تخشى شيئاً ونفذ ،

فتلاشت الأحزان ، واختفت المتاعب البسيطة ووصلت الروح لذروتها الأخيرة . وتحولت لولا ، الفحم ، المصعد والخلود وجميع المتاعب صغيرها وكبيرها إلى سراب بعيد تلاشى في الفضاء ، ولم تبقَ إلا تلك العصفورة الزرقاء التائهة ، الروح الانسانية .

وعندما انتهى من أغنيته صحت به :

– اني أقدم لك جميع ما أنفقته على الغانية ، وصبغ شعرك ، كل المال الذي أنفقته يا زوربا . غني ثانية .

وانتصبت رقبته من جديد :

أيها البطل ، يا أفضل الأسماء ، إلى الأمام وليكن ما يكون .
فإما أن تصيب الهدف أو تخطئه .

تناهى لسمع حوالي عشرة من عمال المنجم صوت غناء زوربا . فجـاءوا مسرعين ، واحتشدوا بشكل دائرة حولنـا . كانوا يستمعون لأحلى ألحانهم ، ويشعرون بالقشعريرة ، تسري في عروقهم .

واقتربوا منا أكثر،بعد أن لم يعدوا قادرين على احتمال الحياء،شعورهم مشعثة ، بثيابهم الواسعة ، وشكلوا حول زوربا دائرة وبـدأ بالرقص فوق الحصى الكبيرة .

كنت أحدق بهم بدهشة وانفعال وصمت . وخاطبت نفسي« هذا هو الجنس الذي كنت اتعب نفسي بالبحث عنه . هذا كل ما أريد .

* * *

وفي اليوم التالي ، وقبل انبلاج الصباح ، كانت الانفاق تهتز تحت ضربات معاول العمال وصراخ زوربا . العمال يعملون بحماس زائد . فزوربا وحده يستطيع أن يسيطر عليهم هكذا . فالعمل معه يتحول الى نبيذ ، حب ، إنشاد.وهذا ما يجعلهم يثملون. ان الارض تعود للحياة بين ذراعيه. والاحجار ، الفحم ، الخشب والعمال . كلهم يسيرون على نغماته . وتستعر الحرب داخـل الانفاق على ضوء مصباح الغاز الابيض، زوربا في المقدمة يحارب بكل أعضائه. فهو يمنح اسماً لكل نفق وبهذا يمنح وجهاً للأشياء التي ليس لها وجه . عندها يجد من السهل جداً اللحاق بها .

فقد كان يقول : « عندما أعرف بان هذا هذا هو نفق « كانافارو » « وهكذا سمى النفق الاول » فأنا أصبح واثقاً ولا يستطيع أن يخدعني . وكذلك باقي الانفاق،«الام القوية» و«السيقان المعوجة».انني أعرفهم جميعاً فأين سيختفون » .

في ذلك اليوم نزلت إلى النفق دون أن يراني زوربا . فكان يصيح :

ـ هيا تقدموا أيها الرجال ، سنهزم الجبل ، أيها الاخوان ! ألسنا برجال . وحوش كاسرة ، فالرب القوي ، يقشعر بدنه لدى رؤيتنا . انتم الكريتيون ، وأنا الماسيدوني ، سنهزم الجبل ، كما هزمنا تركيا ، فهل سيرعبنا هذا الجبل الغير مسلح ، هيا تقدموا .

اقترب احدهم راكضاً نحو زوربا . وعلى ضوء المصباح عرفته فقد كان ميميتو . الذي هتف .

ـ زوربا .. زوربا ..

نظر زوربا اليه فعرفه وفهم ما يريده ، فلوّح بيده الكبيرة صائحاً .

ـ هيا ابتعد ايها الغبي .

إلا ان الغبي قال :

ـ لقد اتيت من قبل السيدة ...

ـ قلت لك اذهب، لدينا عمل كثير ..

وهرب ميميتو مسرعاً والتفت زوربا حوله بعصبية قائلاً :

ـ ان النهار هو للعمل فقط . النهار رجل ، أما الليل فللحفلات ... فالليل إمرأة يجب ان نعرف هذا جيداً ونميز بينهم .

عندها اقتربت وقلت :

ـ ايها الاصدقاء ، لقد انقضى نصف النهار تقريباً ، وقد آن الأوان لأن تتوقفوا عن العمل لتناول الطعام .

نظر زوربا نحوي ، وعبس وقال :

ـ بعد اذنك ايها الرئيس ، اتركنا واذهب لتناول طعامك وحدك ، فقد أضعنا اسبوعين ويجب ان نعوّض . أتمنى لك طعاماً شهياً .

تركت النفق واتجهت نحو الشاطىء . اخذت الكتاب الذي كنت أحمله وتصفحته. كنت اشعر بالجوع، إلا انني نسيته . وخاطبت نفسي « ان التفكير ايضاً منجم » . وغرقت في انفاق التفكير الواسعة .

كتاب مزعج : يصف جبال التيبت المكسوة بالثلوج . الاديرة الغامضة . النساك الصامتون في ثيابهم الصفراء ، الذين يركزون رغبتهم على الاثير ويجبرونه على اخذ الشكل الذي يريدون .

قمم الجبال العالية . الهواء مليء بالارواح . الدمدمات الانسانية الغير مجدية لا تصل لهذا الارتفاع ابداً . الناسك الكبير يأخذ تلاميذه ، تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والثامنة عشرة ويقتادهم عند منتصف الليل إلى احـــدى البحيرات المتجمدة . يخلعون ملابسهم ويكسرون الثلج ، ويبللون ثيابهم في المياه المتجمدة ويرتدونها ثانيـــة ويتركونها تنشف على ظهورهم ، ومن ثم يعودوا ليبللوها من جديد ويلبسونها ، وهكذا سبع مرات . ويعودون إلى الدير ليقوموا بصلاة الصباح . يتسللون إلى قمة جبل يرتفع من خمسة عشرة إلى ثمانية عشرة الف قدم ، يجلسون بهدوء ويتنشقون بعمق وبانتظام . عراة حتى خصرهم إلا انهم لا يشعرون بالبرد ، يمسكون بقطع ثلجية كبيرة بين ايديهم فيركزون نظرهم عليها بقوتهم ، فتغلي المياه ويحضرون الشاي .

يجمع الناسك الكبير تلاميذه حوله ويقول :

– يا لتعاسة من لا يكون في داخله نبـع السعادة . يا لتعاسة من يريد ان يجعل الآخرين مسرورين منه ، يا لتعاسة من لا يشعر بان هذه الحياه والحياة الآخرة ليسب إلا واحدة .

* * *

كان الظلام قدخيم ،ولم يعدباستطاعتي انأقرأ. اغلقت الكتاب ورحت احدق في البحر . وخاطبت نفسي « يجب ان احرر نفسي من هذه الالغاز » وهتفت في داخلي « يا لتعـــاسة من لا يستطيـع ان يتحرر من بوذا ، الآلهة ، الوطن والافكار » .

تحوّل لون البحر فجأة إلى الاسود ، فقـــد كان القمر الصغير يغيب . في الحدائق القريبة ، كانت الكلاب تنبح بحزن ، وكان الوادي بـــأكمله يردد صدى العواء .

ظهر زوربا ، مغطى بالاوساخ ، وكان قميصه ممزقاً . تمدد قربي وقـــال يغمره الشعور بالرضى .

– لقد كان كل شيء اليوم على ما يرام . لقد انجزنا عملاً حسناً .

كنت اسمع كلمات زوربا دون ان استطيـع ان افهم ما يقوله . فقد كانت روحي ما تزال بعيدة فوق التلال المرتفعة الغامضة :

– ما الذي تفكر به ايها الرئيس ، انك في مكان آخر
انتبهت له ونظرت اليه . وحركت راسي قائلاً :
– زوربا انك تظن بأنك سندباد بحري رائع ، وانت تتكلم بكبرياء لأنك شاهدت قليلاً من هذا العالم . إلا انك لم تر شيئاً بالمرة ، ايها المسكين المغفل . حتى ولا انا . فالعالم اوسع كثيراً مما نظن. لقد سافرنا وقطعنا البلاد وعبرنا البحار ، إلا أننا لم نكد ندرك اكثر من عتبة باب كوخنا .

قلب زوربا شفتيه . ولكنه لم يقل شيئاً . وهمهم كأنه كلب أمين عندما يُضرب . فأردفت قائلاً :

– يوجد جبال في هذا العالم ، عالية متمادية ، تنتشر فوقها الأديرة ، التي تعيش فيها الرهبان بأثوابهم السوداء ، الذين يجلسون بأرجل متعالية فوق الارض ، شهر ، شهرين، ستة اشهر ليفكروا بشيء واحد، شيء واحد أتسمع ؟ ليس اثنين ، شيء واحد فقط . فهم لا يفكرون بالنساء والفحم او الكتب كما نفعل نحن. انهم يركزون ارادتهم فوق شيء واحد،وبهذا يفعلون المعجزات. انت تعلم ما الذي يحدث ،لو امسكت بقطعة زجاجية وتضعها في أشعة الشمس وتركزها على نقطة معينة ، هل تعلم ماذا يحدث ؟ ان تلك النقطة تحترق . هل تعلم لماذا ، لأن أشعة الشمس لم تتفرق بل تركزت كلها فوق شيء واحد ومعيَّن . وكذلك قوة الانسان. فانك قادر على ان تفعل العجائب لو تركز قوتك على شيء واحد، واحد فقط . هل تفهم هذا يا زوربا .

كان زوربا يتنفس بصعوبة . وحرك جسده لبرهة كما لو انه كان يريد إسهاباً. إلا انه سيطر على اعصابه قائلاً :
– هيا .. تابع .
.إلا انه انتصب فجأة بوثبة واحدة وأردف :
– اسكت . اسكت . لماذا تقول لي هذا ايها الرئيس ؟ لماذا تحاول ان تسمم افكاري ؟ أنا اشعر بالسعادة هنا أعرف،لماذا تزعجني؟ كنت جائعاً،ورمى لي الله او الشيطان (عليَّ اللعنة لو كنت الفرق بينهما) بعظمة كنت ألعقها وأهز ذيلي قائلاً « شكراً .. شكراً .. اما الآن .

ولطم الارض بقدميه ، وأدار ظهره لي ، كما لو انه كان يريد ان يذهب الى الكوخ ، إلا انه كان لا يزال يحترق في داخله ، توقف لحظة وقال :

– بف .. كانت عظمة كبيرة .. التي رماها الله او الشيطان. مغنية كباريه عجوز !.. باخرة بحرية حتى وانها لا تستحق البحر .

تناول قبضة من الحصى ومى بها الى البحر .

– ولكن من هو ؟. من هو الذي يرمي بهذه العظام الينا ؟ أيه !

انتظر لحظة صامتاً ، إلا انه عندما شعر بانه لا يوجـــد اي جواب تملكته الثورة وهاج :

– ألا تستطيع ان تقول شيئاً ايهـــا الرئيس ؟ إن كنت تعرف اخبرني لأستطيع ان اعرف اسمه . عندها لا تقلق . سوف أتدبر امره . ولكن هكذا خبط عشواء ، اي طريق يجب ان اسلك ؟ سوف أجن .

– اني جائع .. احضر لنا شيئاً لنأكله .. دعنا نأكل اولاً

– ألا تستطيع ان تبقى مساء واحداً دون طعام ايها الرئيس ؟ كان لي عم كاهن . كان يتناول في ايام الاسبوع الملح والماء فقط . وأيام الآحاد والأعياد ، كان يزيد عليها قليلاً من النخالة . ومع هذا فقد عمّر حوالي ماية وعشرون سنة.

– لقد عمّر ماية وعشرين عاماً .. لأنه كان قد توصل لمعرفة ربه ، فقد كان مؤمناً ، لا تشغله اي متاعب . اما نحن يا زوربا فليس لدينـــا اي إله يدفعنا ويقوينا . هيا اضرم النار فلا يزال عندنا قليل من السمك اعد لنا شوربة حارة. كما نحبها وبعدها سترى .

فصاح زوربا متضايقاً :

– ما الذي سنراه ، فعندما تمتلىء معدتنا سننسى كل شيء .

– هذا تماماً ما اريده ، وإلا فما هي فائدة الطعـــام ، هيا اسرع . شوربة سمك حارة ايها العجوز ، وإلا سأموت.

إلا ان زوربا بقي بلا حراك يحدق فيّ ، واخيراً قال :

– اسمع ايها الرئيس . اني اعرف ما تريد ان تفعله ، فعندما كنت تتحدث شعرت بومضة غريبة وشاهدت .

فسألته بحماس :

– ما الذي اريد ان افعله يا زوربا ؟ هيا قل !

– انك بكل بساطة ، تريد ان تقيم ديراً ، وتضع فيه بدل الرهبان ، بعض الكتاب ليأخذوا بتلطيخ الورق بالحبر طوال النهار . وبعد ذلك يتدلى من بين

شفتيك ، كالقديسين ، شريط حريري مطبوع ، قل لي لم اعرف ما الذي تنوي ان تفعله ؟

طأطأت رأسي بأسى . احـــلام الشباب القديمة ، الأجنحة الكبيرة التي فقدت ريشها ، كريمة ، نبيلة ، نبني مجتمعاً رائعاً ، وندفن انفسنا فيـه ، دزينة الاصدقاء . موسيقيين ، شعراء ورسامين . لنعمل طوال النهار . نأكل ، نغني ، ونقرأ سويـــة . لنناقش المشكلات الانسانية المستعصية ، ولنلقي الاجوبة التقليدية . كنت قد حضرت نظام هذا المجتمع . وحتى انني وجدت البناء في احد ممرات جبل« هيمتوس » قرب القديس « يوحنا الصياد ».

وعندما رأى زوربا صمتي المطبق سرّ وقال :

– لقد حزرت بما فيه الكفاية ، اذن اريد اطلب منك خدمة يا رئيس الدير ، اريدك ان تأخذني معك في هـــذا الدير كبواب ، كي اقوم بقطع الطريق ، واسمح بعض الاحيان بمرور بعض الاشياء الممنوعة ، غانيـات ، خمر ، آلات موسيقية وبعض الخنـــازير الصغيرة المشوية .. وهذا حتى لا تضيع حياتك في الاشياء التافهة .

وقهقه واتجه بحماس نحو الكوخ.وركضت خلفه وبدأ باعداد السمك للطبخ. واحضرت انا الحطب واضرمت النـــار . وعندما انتهينا من اعداد الشوربة . تناولنا ملاعقنا وبدأنا الاكل من القدر رأساً.

لم يتفوه احدنا بكلمة واحدة . فنحن لم نتناول شيئاً طوال اليـوم ، التهمنا الشوربة بنهم شديد. وشربنا النبيذ ، وعادت الى انفسنا السعادة . وقال زوربا:

– انه لأمر ممتع ايها الرئيس. ان تحضر الآن السيدة العجوز.. فهي الوحيدة التي تنقصنا . ومع هـــذا ، أتريد ان اقول لك الحقيقة ؟ لقد مللتها ، بحق الشيطان !

– ألا تود ان تسأل الآن من الذي يرمي لك بالعظمة .

– وما الذي يهمني ، انها ليست إلا نملة كبيرة بين كومة من القش . تناول العظمة ولا تهتم للـــسيد التي ترمي بهـا هل هي ذات مذاق جيد ؟ هل عليهـا بقايا من اللحم ؟ هذه هي المشكلة ليس إلا .

فأجبت وأنا أضع يدي على كتف زوربا :

– لقد قام الطعام باعجوبته . لقد استكان الجسد الهائج . وقد استكانت

أيضاً النفس التائهة ، أحضر السانتوري .

وفي نفس اللحظة التي انتصب فيها زوربا تناهى لسمعنا وقع أقدام متثاقلة . فارتعدا شاربا زوربا وهمس بصوت خفيض :

— أذكر الشيطان ... اللعينة لقد اشتمت رائحة زوربا من الهواء ... وها هي آتية الآن .

انتصبت واقفاً وقلت :

— لقد مللت هذا الموضوع ، سأتمشى تدبر أمورك .

— ليلة طيبة ايها الرئيس .

— لا تنسى باني قد قلت لها بأنك ستتزوجها ، لا تجعلني كاذباً .

— هل أتزوج مرة ثانية ... لقد ضجرت أيها الرئيس .

وشمرت باقتراب رائحة الصابون والمساحيق المعطرة .

— الشجاعة يا زوربا ... الشجاعة .

وابتعدت مسرعاً ، بعد أن سمعت صوت أنفاس الجنية اللاهثة .

- ١٦ -

وفي صباح اليوم التالي عند الفجر ، أيقظني صوت زوربا . فقلت :

– ما الذي دهاك ، لماذا كل هذا الصياح المبكر .

– لا يوجد شيئاً خطيراً أيها الرئيس ، لقد أحضرت مطيتين، هيا استيقظ ، سنذهب إلى الدير لنمضي العقد ثم نبدأ بتنفيذ المصعد . لا يوجد أي شيء يخيف الاسود سوى القملة ، والقمل يكاد يأكلنا .

فقلت ضاحكاً :

– لماذا تتصرف مع بوبولينا كأنها قملة ؟

تجاهل سؤالي وقال :

– هيا قبل أن تصل الشمس إلى كبد السماء .

كانت تتملكني رغبة جامحة في أن أقوم بنزهة عبر الجبل لأتنشق رائحة الصنوبر . ركبنا المطيتين وبدأنا المسير . توقفنا لبرهة قرب المنجم حيث أصدر زوربا تعليماته لتعميق هذا النفق وتوسيع الآخر .

كان النهار يتلألأ كأنه لؤلؤة نقية ساطعة و كلما ارتفعنا عبر الجبل تصاعدت الروح وهامت . أحسست مرة ثانية ، بأثر النسيم النقي والتنشق النظيف والأفق الواسع على الروح . و كأنها هي أيضاً حيوان له رئتان ومنخران وتشعر بحاجة كبيرة إلى الأوكسجين ، لأنها تكاد تختنق بين الأوساخ والغبار .

عندما دخلنا غابة الصنوبر ، كانت الشمس قد أصبحت في كبد السماء . وكانت رائحة الصنوبرتسيطر على الهواء. والهواء يصفر فوقنا كأنه هدير البحر.

كان زوربا طوال سيرنا يفكر بانحدار وميل الجبل . كان يتصور بأنه قد أقام الأوتاد ، فيرفع رأسه لينظر إلى الجبال تحت أشعة الشمس ، ثم ينحدر قليلاً قليلاً إلى شاطىء البحر ، حيث كان يتخيل بأن أغصان الأشجار تنحدر ، بعد ربطها بالحبال .

وفرك يديه قائلا :

– عمل رائع...يدر علينا الذهب . سنربح المال ونجمعه بالرفش، وسنفعل ما خططناه .

نظرت اليه مذهولاً ، وأردف :

– يبدو أنك قد نسيت ، فقبل ان نبني ذلك الدير ، يجب ان نذهب الى ذلك الجبل الشامخ ، ماذا تسميه ..؟

– التيبت يا زوربا ... التيبت .. ولكن يجب أن نذهب نحن الاثنان فقط ... فذلك المكان ليس للنساء .

– ولكن من قال لك شيئاً عن النساء ؟ ومع هذا فالمسكينات طيبات ، يجب أن لا نتكلم عنهم بسوء . فهن في منتهى الأهمية عندما لا يكون بين يدي الرجل عمل رجولي لينجزه ، كأن يعمل في منجم للفحم ، أو يغزو المدن ، ويتحدث عن الله . ما الذي يجب أن يقوم به فيهذا الوقت كي لا يهلك ؟ يحتسي الخمر ، يقامر ، ويداعب النساء . ويبقى بانتظار ساعته إذا كانت ستحين .

وخيم السكون للحظة ثم أردف متضايقاً :

– إذا كانت ستحين ، لأنه من المعقول أن لا تحين بالمرة .

ثم أضاف :

– ان الحياة لا تطاق هكذا أيها الرئيس ، فيجب أن يحدث شيء من اثنين، اما ان تصغر الأرض أو أكبر أنا . وإلا فسوف أموت .

في هذه اللحظة بدا لنا من بين الأشجار ، كاهن أصفر الشعر ، مشمراً عن أكامه ، ذو بشرة مصفرّة . يضع على رأسه قبعة من الصوف البني ، ممسكاً بيده قطعة طويلة من الحديد ، يتكىء بها على الأرض ويسير بخطى واسعة وعندما وقع نظره علينا ، أشار الينا بعصاه وسأل :

– إلى أين تتجهان ايها البطلان .

فرد عليه زوربا :

– الى الدير لنقوم بواجبنا .

فصاح الكاهن مستنكراً وقد تطاير الشرر من عينيه الزرقاوان :

– ارجعا إلى حيث جئتما ، ايها المؤمنان . وهذا من أجل الخير الذي أتمناه لكما . فهذا الدير ليس حديقة غناء « للسيدة العذراء » بل هو حقل يصول

ويحول به ابليس . الفقر والمسكنة والطاعة الذي يقولون ، بأنهـا تكلل الراهب غير موجودة هناك بالمرة .. ها .. ها.. ارجعا أقول لكما . فالمال، والعجرفة، والصبيان ، هذا هو ثالوثهم المقدس .

قال زوربا بصوت خافت :

ــ انه مسلٍ حقاً ايها الرئيس .

والتفت نحو الكاهن وسأله :

ــ ما اسمك ايها الأخ ، وما الذي أتى بك ؟

ــ اسمي زكريا ، لقد جمعت حاجياتي ، وأنا راحل ، أجل راحل ... فلم أعد أقدر على التحمل . هل تنعم علي بالتعرف على اسمك ايها المواطن .

ــ كانافارو .

ــ ان الحالة لا تحتمل ايها الأخ ، فالمسيح يتوجــع طوال الليل ولا يمكنني من النوم . فأتوجع أنا معه . عندها طلبني رئيس الدير ، حرقه الله بنـــاره ، هذا الصباح وقال :

ــ والآن ايها الأخ زكريا .. لماذا لا تترك زمـــلاءك ينامون ؟ سألقي بك خارجاً .

ــ ليس أنا الذي امنع عنهم النوم ، انه المسيح فهو الذي يتألم طوال الليل .

عند ذلك تناول عصاه ، هو الذي يكره المسيح ، انظرا . وخلع قبعتــه وأرانا بقعة من الدم المتجمد في رأسه .

ــ عندها أحضرت أمتعتي ورحلت .

فقال زوربا :

ــ ارجع معنا إلى الدير ، وسأجعل الرئيس يرضى عنـك ، هيا رافقنـــا ستكون أنيسنا ، وسترينـــا الدرب . فالسماء قد بعثت بك الينا .

تأمل الراهب لبرهة ثم قال :

ــ ما الذي تعطيه لي ؟

ــ بل ما الذي تريده أنت ؟

ــ كيلو من السمك وزجاجة خمر .

التفت زوربا نحوه وقال له همساً :

– بالمناسبة قل لي ، ألا يوجد في داخلك الشيطان ايها الأخ .
– كيف عرفت ؟!
– لقد جئت من جبل آتوس ، وأنا أعلم شيئاً عن مثل هذا الموضوع !
وأحنى الراهب رأسه وانبح صوته إلى حد أنه لم يعد يسمع وقال :
– أجل في داخلي الشيطان .
– وهو الذي يطلب السمك والخمر . أليس كذلك ؟
– أجل .. لعنه الله ثلاث مرات .
– اذن فقد اتفقنا . اظن انه يدخن أيضاً ؟
– أجل انه يدخن .. قاتله الله !
والقى زوربا اليه بسيجارة، تناولها الراهب وأشعلها بعد أن اخرج من جيبه ولاعة بدائية ، وأخذ مجة ملء رئتيه ورفع عصاه واستدار قائلا :
– باسم المسيح .
سأله زوربا وهو ينظر إلي بطرف عينه :
– ماذا تسمي شيطانك ؟
فأجاب الراهب دون أن يلتفت :
– يوسف !
ان مرافقة هذا الكاهن المعتوه لم تكن تروق لي ، فالعقل الناقص ، كالجسد العاجز يثير في الشفقة والاحتقار ، إلا انني لم أتفوه بكلمة وتركت زوربا يتصرف على هواه .
شعرنا بالجوع الشديد ، فتوقفنا وجلسنا تحت شجرة صنوبر شامخة وتناولنا كيس الطعام ، ونظر الراهب بجشع اليه ليرى ما فيه وصاح به زوربا :
– أي .. أي .. لا تترك لعابك يسيل يا زكريا . فاليوم هو الاثنين المقدس ، فنحن لسنا بمؤمنين ولهذا سنتناول قليلا من اللحم ودجاجة وليعفو عنا الله . إلا انه معنا أيضاً بعض الحلوى والزيتون من أجلك. خذ .
أمسك الراهب بلحيته الكثة بأسف ظاهر وقال :
– انني أنا زكريا صائم ، وسأتناول الخبز والزيتون ، وسأشرب ماء عذباً ، أما يوسف فهو شيطان رجيم ، سيتناول قليلاً من اللحم والخمر . فهو يحب أن يأكل الدجاج ايضاً ... الخبيث .

ورسم علامة الصليب وراح يلتهم الخبز والزيتون والحـلويات بجشع باد ثم مسح فمه بيده ، وعب بعض الماء ورسم علامة الصليب ثانية ، علامة على انتهائـه من الطعام وقال :

ـ الآن جاء دور يوسف لعنه الله ثلاث مرات .

واندفع بثقله نحو الدجاجة وراح يهمهم بغضب متناولاً لقماً ضخمة :

ـ كل .. كل أيها الخبيث .

فأجابه زوربا بانفعال :

ـ اوه ايها الراهب الماكر « ان لقوسك اكثر من وتر » كما أظن .

ونظر إلي هامساً :

ـ ما رأيك به .

فقلت ضاحكاً :

ـ يشبهك إلى حد بعيد .

وقرب زوربا وعاء الخمر للراهب قائلا :

ـ يوسف خذ اشرب .

فتناول الراهب الوعاء :

ـ اشرب .. اشرب ايها الخبيث .

كانت حمأة الشمس قد اشتدت ، فقربنا أنفسنا من الظل . كانت روائـح العرق والبخور تفوح من الراهب . والعرق يتصبب منه بفعل أشعـة الشمس وكأنه شمعة تذوي. فقربه زوربا نحو الظل حتى لا تزداد الروائح الفواحـة . وسأله بعد أن اكتفى من الطعام وشعر بالحاجة للثرثرة :

ـ كيف حدث هذا وأصبحت راهباً .

فضحك الراهب وأجاب :

ـ لا تظن بأنني أصبحت راهباً بسبب الايمان ! كلا ايها الصديق بل بسبب الفقر ، أجل الحاجة . لم يكن عندي شيء لأقتات به فقلت لنفسي « ليس عليك إلا ان تلتحق بالدير كي لا تموت من الجوع » .

ـ هل أنت سعيد ؟

ـ ليتمجد اسم الله ، فأنا دائماً أتألم ، لا تنتبه لهذا. أجل اني أتـألم ، لكن ليس لهذا العالم ، بل من أجل السماء ، فأنا اقص الحكايات المضحكة ، وأتظاهر

بالبله ليشعروا الرهبان بالمرح . وهم يقولون باني معتوه ويشتموني . الا اني اقول لنفسي ، هذا ليس بالمعقول ، من المؤكـد ان الله الطيب يحب المرح .. » وذات يوم سيقول لي : ادخل يا مضحكي ... ادخل لتضحكني . وكما ترى فسأدخل الى الجنة لأضحك الله .

فقال زوربا :

– اظن أيها الصديق . ان لك رأساً تاماً فوق كتفيك ، هيـا لنسر قبل أن يداهمنا الظلام .

ومرة ثانية سار الراهب في المقدمة . ومرة ثانية بدا لي كما لو أني أصعد عبر مشاهد روحية . فأنا أسير من هموم ضئيلة نحو هموم أكبر . ومن الحقائق المنبسطة السهلة إلى نظريات الجبال القاسية .

وتوقف الراهب فجأة وقال مشيراً إلى قبة كنيسة صغيرة وقورة :

– انها سيدة الإنتقام .

وركع ورسم علامة الصليب . نزلت عن ظهر مطيتي وعبرت نحو ساحـة الكنيسة الرطب .

ونظرت حوالي ، فوجدت في ركن قريب ، ايقونة مسودّة بفعل الدخان معلقاً بها كثير من القطع الفضية منقوش عليها بمهارة نادرة صور أقدام ، وأيد ، وأذنين ، وقلوب وأمام الأيقونة كان يوجد مصباحاً دائم الاشتعال.

واقتربت بسكون وخشوع : كانت الايقونة تمثل السيدة العذراء المحاربة ، برقبتها المتصلبة ، وعينيها القاسيتين ، ونظرتها البريئة ممسكـة ، ليس بالطفل المقدس ، بل برمح طويل . فقال الراهب برعب ظاهر :

– يا لتعاسة من يصيب الدير بشر ، فتقفز عليه وتبقر بطنه. ففي الماضي جاء الأتراك وأضرموا النار في الدير ، ولكن اسمع ما الذي حلّ بهم من جراء هذا . ففي نفس الوقت الذي مروا فيه بقرب الكنيسة ، خرجت السيدة العـذراء من الأيقونة بسرعة هائلة وأمسكت برمحها تضرب يمينـاً وشمالاً حتى فتكت بهم جميعاً . وجدي لم ينس حتى الآن مقدار عظامهم التي غطت أرض الغابة . ومنذ ذلك الوقت لقبت بسيدة الانتقام بدلاً من سيدة الرحمة .

فقالت زوربا متعجباً :

– ولكن لماذا لم تفتك بهم قبل أن يضرموا النار في الدير ؟

– انها حكمة الرب القادر .

فهمس زوربا ممتطياً بغلته :

– يا له من قادر .. هيا .

لم يمض وقت طويل حتى ظهر دير السيدة العذراء . فوق تلة تحيطها الصخور الكبيرة وأشجار الصنوبر . وظهر هذا الدير الساكن ، المرح ، البعيد عن البشر ، في أحضان تلك القمة الخضراء العالية . والممتزج بانسجام عميق مع سمو القمة وسلاسة السهل كأفضل ما يختار من أجل التأمل والسكون . وخاطبت نفسي :

– ان روحاً طيبة نافذة ، لقادرة ، في هذا المكان أن تجلّ من وجه الانسان الديني . انها ليست قمة صعبة المسالك على البشر ، ولا سهلاً خاملاً مريحاً . بل هو كل ما يلزم الروح من أجل سموها وعظمتها ولكن دون أن تضيع شيئاً من ماهيتها البشرية . فمثل هذا المكان لا يصنع الأبطال أو الصعاليك بل يصنع بشراً كاملا . »

هذا المكان يصلح ليكون محيطاً بمعبد يوناني قديم ، أو لمسجد اسلامي هادىء مرح . وهنا ، لا بد وان الله يأت مرتدياً ثيابه البشرية المجردة . ليسير حافي القدمين فوق العشب الأخضر اللين ، ليتكلم مع البشر بثقة واخلاص .

وتمتمت في داخلي :

– يا للروعة ، يا للسكون ، يا للسعادة ..

نزلنا عن مطيتينا ودلفنا من تحت قبة الباب وتوجهنا رأساً إلى صالة الاستقبال حيث قدم لنا الطعام المعتاد مع العرق والمربى والقهوة . جاء الأب المضيف وأحاط الرهبان بنا ، وبدأ الكلام . عيون فضولية ، وشفاه ظمأى ، وذقون ، وشوارب . وأجساد تفوح منها الروائح . فسألنا أحد الرهبان بقلق :

– ألم تحضروا معكم صحيفة ؟

فأجبت متعجباً :

– صحيفة ؟ ولماذا تريدونها ؟ .

فصاح راهبان أو ثلاثة بفضول وغضب :

– صحيفة لنعلم ما الذي يجري في العالم الخارجي ! ؟ .

كانوا جميعاً منقبضين وممسكين بقبضان الشرفة ، ينعقون كالبوم ، ويتكلمون بانفعال عن انكلترا ، روسيا ، فينزيلوس والملك . لقد ابعدهم العالم إلا انهم لم

يبتعدوا عنه : فقد كانت المدن الواسعة ، المحلات التجارية ، النساء والصحف ، تبرز من خلال أعينهم الحائرة .

وقف راهب سمين ، كثيف الشعر وقال :

– عندي شيء أريد ان أريه لك ، اريدك تبدي رأيك فيه .

وانصرف ، يداه فوق صدره ، ساحباً خلفه خفيه المصنوعين من القماش السميك واختفى خلف الباب .

وعلت ضحكات الرهبان الخبيثة ، وقال الأب المضيف :

– لقد ذهب ليحضر تمثال الراهبة ، الأب ديمتيوس . فقد دفنها أبليس في الأرض لشيء ما في نفسه . وفي أحد الأيام ، بينما كان الأب ديمتيوس ، ينظف الحديقة وجد التمثال واحضره إلى صومعته . ومنذ ذلك الوقت لم يرَ جفنه الكرى . وسوف يصبح مجنوناً عما قريب ايضاً .

وقف زوربا منزعجاً ، بعد ان كاد يفطس وقال :

– لقد اتينا لمقابلة رئيس الدير ، ولتوقيع الأوراق .

– ان قداسة رئيس الدير غير موجود ، فقد توجه هذا الصباح إلى البلدة ، كن صبوراً .

وعاد الأب ديمتيوس . كانت ذراعاه ممدودتين ومشدودتين كأنه يحمل كأساً مقدسة وقال فاتحاً يديه برهبة وانتباه :

– هذا هو التمثال !

اقتربت لأشاهد تمثالاً صغيراً جداً من صنع « تناغرا » جسم نصف عارٍ ، ممسكاً به الراهب . وكانت يد الراهبة الوحيدة الباقية موضوعة فوق رأسها . فقال ديمتيوس :

– انظر انها تدلنا على رأسها ! أنا متأكد بأنه يوجد فيه لؤلؤة ، أو ماسة ، ماذا تعتقد ؟ .

فقال أحد الرهبان ساخراً :

– اظن بأن رأسها يؤلمها .

إلا ان الراهب السمين ظل يحدق في وجهي ، وشفتاه منفرجتان ، منتظراً جوابي بفارغ الصبر ، ثم قال :

– ان رأيي ان نكسرها لنرى ، انني لم أعد استطيع النوم منذ لقيتها ... آه لو كان داخلها ماسة ..

رحت أحدق بالفتاة الصبية الوقورة ، ثدييها الصغيرين العارمين . الضائعة هنا بين روائح البخور والآلهة المصلوبين الذي يكرهون الجسد والمرح والقبل . وحدثت‌نفسي ... آه لو أقدر ان أخلصها منهم .

أمسك زوربا بالتمثال ، وراح يتحسس جسد الفتاة حتى وصـــل لثدييها فارتجفت يده وتوقف هناك وقال :

— إلا تشاهد أيها الأخ . انها إبليس بنفسه ، لا يوجد أي مجال للشك ، لا تقلق فأنا أعرفه تماماً ، ذلك اللعين ، انظر إلى ثدييها ايها الأخ ديمتيوس ، انــه عارماً ، طرياً ، هكذا تكون اثداء إبليس فأنا عندي فكرة واضحة عن هذا.

في هذه اللحظة ظهر عند عتبة الباب راهب شاب ، وقــد لمعت الشمس في وجهه المستدير الأحمر .

فنظر الراهب المضيف إلى جاره بطرف عينه بخبث وابتسما وقالا :

— ايها الأب ديمتيوس ، ها هو تلميذك « غبرييل » .

وتمسك الراهب بتمثال المرأة وسار نحو الباب كأنه برميل يتدحرج . وكان الراهب الشاب الجميل الطلعة يسير في المقدمة بسكون وهدوء بخطى واثقــة متزنة واختفى الإثنان عبر الممر الطويل الخرب .

نظرت لزوربا ففهم علي وخرجنـــا . كان الطقس منعشاً وسط الساحة ، حيث كانت رائحة زهر البرتقال تفوح بقرب جدول المنساب من فم تمثـــال خروف من الرخام . انحنيت بحيث أصبـح رأسي تحت الفم وشعرت بالرطوبة والانتعاش ، وقال زوربا باحتقار واستخفاف !

— اخبرني ، ما هؤلاء الناس ؟ انهم ليسو بشراً ، وانما حيوانات ، أف ان لمن الأجدر بهم ان يقتلوا أنفسم .

ووضع رأسه تحت الماء مثلي وقهقة مكرراً :

— أجل الأجدر بهم ان يقتلوا أنفسهم ، فان إبليس قـد لبسهم ، فكل منهم يشتهي شيئاً ، احـدهم امرأة ، والآخر مالا ، والآخر سمكاً ، والآخر صحناً ، اغبياء ، لماذا لا يأتون إلى الدنيــا المفتوحة لهم فيحصلون على كل ما يريدون ويطهروا افكارهم .

وتناول سيجارة وجلس على كرسي تحت شجرة البرتقال وقال :

— أنا عندما اشتهي شيئاً ، هل تعلم ماذا افعل ؟ آكل منه حتى أشبع تماماً ،

واشعر باحتقار شديد نحوه ولا أعد افكر به ابداً ، أو يخطر على فكري ولكن لا أعد اشتهيه . ذات مرة ، كنت طفلاً صغيراً ، كنت مغرماً بالكرز . ولم أكن املك النقود الكافية . لهذا فكنت لا أشتري منه إلا النزر اليسير ، ورغم اني التهم كل ما اشتريه تبقى الشهوة اليه تستعر داخلي . كنت افكر به ليلا نهاراً ، ويسيل لعابي من اجله ، واشعر باوجاع الشهوة . إلا اني في أحد الأيام تضايقت ، أو اقول شعرت بالحياء . لا أدري لماذا تماماً . لقد شعرت بان الكرز سيطر علي ، وهذا ما يجعلني سخيفاً . إذن يجب علي ان افعل شيء ما . نهضت ليلا ، وبحثت في جيوب والدي ، فوجدت قطعة نقد فضية فأخذتها . وفي صباح اليوم التالي ، توجهت إلى البقال واشتريت كمية من الكرز واختبأت في حفرة ، وأخذت التهم الكرز .. حتى شعرت بألم في معدتي . فبدأت اتقيأ ومن ذلك الوقت لم أعد افكر بالكرز ، لم أعد استطع ان اتخيله .

وحررت نفسي من عبوديته . وبعد ذلك فعلت نفس الشيء مع النبيذ والسجاير . أنا حتى الآن أدخن وأشرب . ولكن عندما اريد ان اتوقف ، اتوقف دون أي تعب فرغبتي بهم لم تعد مسيطرة علي . وهذا الشيء تماماً بالنسبة للوطن . لقد اغرمت به حتى الثمالة فتقيأت وتخلصت من عبوديته .

فسألته :

– والنساء ؟

– ان دورهن لا بد آت ، السافلات . ولكن عندما أصبح في السبعين .

وصمت برهة ، فقد بدا ان السن الذي قاله قليل جداً ، فأردف :

– بل الثمانين . ان هذا يثير فيك الضحك ايها الرئيس . اذن هيا ، فلك أن تضحك ما شئت . فالانسان لا يتحرر إلا بهذه الطريقة . فهو عندما يشبع من كل شيء لا يعد يفكر فيه ، فكيف تستطيع أن تتملص من ابليس ان لم تكن أنت ابليساً ونصف .

وفي هذه اللحظة ظهر ديميتيوس في الساحة تعباً بالكاد يلتقط أنفاسه وخلفه الراهب الشاب الأحمر الشعر . فهمس زوربا متأملا جبروته وقوة شبابه :

– انه يشبه ملاك غاضب !

اتجها نحو الدرج الحجري الموصل إلى الصومعات المرتفعة ، فالتفت ديميتيوس نحو الراهب الشاب وهمس شيئاً . فهز الشاب رأسه علامة الرفض إلا انه رضخ

أخيراً ووضع يده حول خصر الراهب العجوز وصعدا الدرج سوية .

وقال زوربا بانفعال :

– انظر .. انظر سادوم وعامورة .

وظهر راهبان آخران وهمسا شيئاً وتضاحكا ، فدمدم زوربا :

– يا للؤم . ان الذئاب لا تلتهم بعضها بعضاً . إلا ان الرهبان يفعلون هذا . انظر اليهم وهم يعضون بعضهم . الواحد يعض الآخر .

فأجبته ساخراً :

– الواحد يعض الآخر ...

– أجل بالنسبة لهم شيء واحد ، ألم أقل لك بأنهم حيوانات ، تستطيع أن تقول غبرييل أو غبرييلا .. أو ديميتيوس او ديميتسيا . دعنا أيها الرئيس نوقع الأوراق ولننصرف ، فان هذا سيوردنا مورد التهلكة .. حتى تتقزز من الرجال والنساء معاً .

وخفض من حدة صوته :

– عندي مشروع جديد ...

– أهو عمل جنوني آخر ، ألا تظن بأنك قد قمت بما فيه الكفاية . على كل ، ما هو مشروعك ؟

هز زوربا كتفيه واجاب :

– كيف أشرح لك أيها الرئيس ، عذراً ، انك رجلاً صبوراً . رجل يهتم بهموم الآخرين مهما صغرت . فأنت لو وجدت قملة إلى جانب فراشك لأخذتها تحت الغطاء خوفاً عليها من البرد . إذا كنت هكذا، كيف ستستطيع ان تدرك أفكار لص هرم مثلي ؟ فانا لو شاهدت قملة لقتلتها . ولو وجدت غنمة لذبحتها وشويتها والتهمتها مع الرفاق . ربما تقول بأن هذا الخروف ليس ملكي . اني اقر هذا ، ولكن دعنا من هذا ايها الأخ الآن ولنأكل وبعد هذا نتجادل ونتناقش عما هو « لي » وعما هو « ليس لي » . أنت تستطيع أن تطلق العنان للسانك وتتكلم بينما أكون أنا انظف اسناني بعود ثقاب .

ورددت الساحة صدى قهقهته . وظهر زكريا خائفاً ، واضعاً اصبعه فوق شفتيه ، واقترب بخفة قائلا :

– هدوء ... لا تضحكا ... ألا تريا هناك ، في الأعلى خلف الشباك المفتوح ،

ان الراهب الكبير يعمل . انها غرفـــة المكتبة ، أنه يكتب . يكتب طوال النهار ، انه رجل صالح ، لا تصيحا .

امسك زوربا الراهب من يده قائلا :

ــ أخيراً هذا انت أيها الأب يوسف ، أود ان اكلمك قليلا . دعنا نــذهب إلى غرفتك ولنتبادل الحديث .

واستدار نحوي وأردف :

ــ وأنت خلال هذا ، انصرف لتفحص معالم الكنيسة وأيقوناتها الأثرية وأنا سأكون بانتظار رئيس الدير ، فهو لن يتأخر . يجب أن لا تتدخل في أي شيء لأنك ستضرنا ، دعني أعمل لوحدي ، فلقد رسمت خطتي .

وقرب رأسه من أذني هامساً :

ــ ستأخذ الغابة بنصف القيمة ... لا تتفوه بكلمة .

وانصرف مسرعاً ممسكاً بذراع الراهب المجنون .

- ١٨

دخلت عبر باب الكنيسة ، لأغرق في ظلامها الخفيف والرطوبة التي عفت رائحتها . كانت الكنيسة ساكنة ، هادئة . يكتنفها نوراً خفيفاً ترسله بعض الشمعدانات البرونزية القديمة . والمذبح يقبع في نهاية الكنيسة ، يشبه دالية ذهبية تغطيها المناقيد . وكانت تغطي الجدران ، برسوم نصف ممحاة ، لرهبان نحيفين يشبهون الهياكل العظمية ، ودرب الجلجلة ، وآبار الكنيسة ، ملائكة شجمان وغاضبين ، وشعورهم ملتفة بشرائط ليس لها لون .

وفوق القبـــة كانت السيدة العذراء منتصبة ، مادة ذراعيها ، متوسلة . وأمامها مصباح مضيء يشتعل دائماً ليرسل نوراً شاحباً على وجهها ، ليداعبـه بنوره المتلاعب . لن تغيب عـن ذاكرتي ابداً صورة عينيها الموجعتـــين ، الضارعتين ، وفمها المزموم المستدير وذقنها الصلبة العنيدة . قلت مخاطباً نفسي ، هذه السيدة « الأم » . راضية ومسرورة إلى اقصى حـــد ، حتى في أقسى لحظات اوجاعها ، لأنها شعر بانه قد خرج شيء ما خالد من احشائها .

عندما خرجت من باب الكنيسة ثانية ، كانت الشمس آخــذه بالافول ، فجلست عند شجرة البرتقال ، مسروراً . كانت السماء متوردّة وكأنه الشفق . وانصرف الرهبان إلى غرفهم ليستريحوا ، الحقيقة انهم بحاجة للراحة فهم لـــن يستطيعوا النوم طوال الليل ، فالمسيح هذه الليـــلة ، سيبدأ بالسير على طريق الآلام ، طريق الجلجلة ، وسوف يسيرون معه . كان هنا تحت شجرة الخرنوب ، خنزيران يتناومان . وبعض الحمام فوق السطوح يتناومون أيضاً .

وخاطبت نفسي : كم سأبقى هكذا حيـــاً ، قادراً على الشعور بنعومة الأرض ، وهواءها وسكونها ، وروائح شجر البرتقال المزهر ؟ عندما كنت أحدق في الأيقونة المقدسة كانت تغمرني السعادة . وظهر أمامي من جديد ، كل ما يحرك انفعالاتي العميقة : من الرغبة في الإتحاد . ومتابعة الجهاد . ليبارك

الله تلك الأيقونة المقدسة ، القوية التي تمثل الشاب المسيحي : بشعره الأسود الفاحم المتدلي فوق جبهته . انه ديوينزيوس ، إله الخمر والنشوة ، والقديس باخوس ، يتحدان داخلي ويتخذان نفس الوجه . تحت اوراق الدالية ، وتحت ثوب الراهب كان يختلج الجسد المرتعش الذي لوحته الشمس : اليونان .

وبعد قليل عاد زوربا . وقال لي فور وصوله :

– لقد عاد رئيس الدير ، وتبادلنا الكلام قليلاً ، إلا انه لم يرد ان يصغي ، فهو ، كما يقول ، لا يريد ان يتنازل عن الغابة من أجل كسرة خبز ، فهو يطلب المزيد . إلا انني مع هذا سأحصل عليها .

– ولكن لماذا لم يرد ان يصغي ؟ ألم نكن قد اتفقنا ؟

فرد زوربا متوسلاً :

– ارجوك ايها الرئيس ، لا تحاول أن تتدخل ، ستهدم كل شيء بنيته أنا وانت الآن تعود للحديث عن الإتفاق القديم . لقد مات ذلك الإتفاق . لا تعبس ، كما اقول لك ، لقد مات وسنأخذ الغابة بنصف المبلغ .

– ما الذي تنوي عمله يا زوربا ؟

– لا تقلق ، سأزيّت الأكرة وستدور . هل تفهمني ؟

– ماذا ؟ كلا لم أفهم !

– لانني صرفت نقوداً أكثر مما ينبغي في كاندي ، ان لولا اللعينة ، قد بددت مالي ، اقصد انها قد بددت مبلغاً محترماً من اموالك هل تظن بان هذا قد غاب عن فكري . ان لي كرامتي أيضاً . ولا أريد ان اسيء إلى سمعتي . لقد صرفت ويجب ان أعوض . لقد عملت حسابي ، لقد انفقت على لولا سبعة آلاف ليرة ، ويجب أن أعيد هذا المبلغ من الغابة ، ان خطتي هي ان اجعل رئيس الدير ، الدير ، الرهبان والسيدة العذراء ، أجعلهم جميعاً يدفعون عني .

– أبداً ! . ما هي مسؤولية السيدة العذراء عن تبديدك للأموال .

– بل انها المسؤولة ، وأكثر من مسؤولة ، لقد وضعت ولدها ، وولدها هو الرب ، والرب خلقني ، أنا زوربا . وخلق معي الأعضاء التي تعرفها . وهذه الأعضاء اللعينة تجعلني مجنونا ، فأفتح محفظة نقودي وادفع دون حساب . بمجرد أن أرى الجنس الناعم . هل تدرك هذا ؟ حسناً ، إذن فالسيدة العذراء مسؤولة ويجب ان تعوّض .

– ان هذا لا يروقني يا زوربا !

– إذن فهذه مسألة أخرى ، ايها الرئيس ، لنعوّض السبعة آلاف ليرة أولاً ومن ثم نقرر .

في هذه اللحظة ظهر الأب المضيف وقال بلهجة الرهبان الوقورة المتظاهرة :

– تفضلا للعشاء فلقد كل شيء .

وتوجهنا نحو غرفة الطعام . وكانت عبارة عن صالة واسعة فيها عدة مقاعد وطاولة صغيرة ، كانت رائحة السمن تعبق في المكان . وفي نهاية الصالة كانت توجد لوحة قديمة تمثل « العشاء الأخير » التلاميذ الاحدى عشر المؤمنون مجتمعين حول المسيح كالنعاج وقبالتهم يقف يهوذا ، التيس الجرب ذو الشعر الأحمر ، المقوّس الجبهة ، الأفطس الأنف ، يقف وحيداً ومديراً قفاه . وكانت عينا المسيح معلقتان عليه .

وجلست إلى يمين الأب المضيف وزوربا إلى شماله . وقال الأب :

– ستعذرونا بالطبع لأننا صائمون . لا سمن ولا نبيذ ، مع انكما مسافران ، على كل ، أهلا وسهلا .

ورسمنا علامة الصليب ، وبدأنا نتناول ، الزيتون والبصل والفول والحلوى ، بسكون وهدوء . كنا نأكل ونعلك ببطء كاننا ارانب . قال الراهب المضيف :

– هذا هو روتين الحياة هنا : صلاة وصوم ، إلا انكم يجب أن تصبروا قليلاً ، أجل اصبروا ، فالبعث لا بد آت عما قريب .

عطست ، فلكزني زوربا بقدمه كأنه يشير علي بالصمت . وقال محاولاً تغيير مجرى الحديث :

– لقد قابلت الأخ زكريا ...

فقاطعه الأب المضيف بعصبية وانفعال :

– هل تفوه بشيء أمامكم هذا المجنون ؟ ان الشياطين السبعة تلبسه ، يجب ان لا تصغي لأي شيء يقوله ، فهو يظن بان الدنس في كل مكان .

ورن الجرس ، بإنفعال ، اشارة على بدء الاسبوع الحزين ، ورسم الأب علامة الصليب ووقف وهو يقول :

– سأنصرف فآلام السيد المسيح قد بدأت . لنساعده في حمل صليب البشرية . لكم الخيار في ان تستريحا هذا المساء ، لا بد وانكما منهكان من السفر ، فغداً

القداس عند منتصف الليل ...

وما ان اختفى الراهب خلف الباب حتى دمدم زوربا بحنق وغضب :

– اقذار .. ! اقذار ... منافقون.. حيوانات .

– ما الذي حدث يا زوربا .. هل قال لك زكريا شيئاً ؟

– لا تقلق أيها الرئيس ، فإن لن يوقعوا الاتفاق ، عنـدها ، سأريهم من هو زوربا على حقيقته .

توجهنا نحو الغرفة التي حضرت لنا . والتي كانت في إحدى زواياها تقبـع ايقونة السيدة العذراء . ملصقة خدها بخد ولدها . وعيناها الواسعتان تملأهما الدموع . وهز زوربا كتفيه بألم وانفعال :

– هل تعلم لماذا تبكي ايها الرئيس ؟

– لا ...

– لانها ترى . لو كنت انا الرسام ، اعني رسام ايقونات ، لرسمت السيـدة العذراء بلا أعين . ولا اذنين ولا أنف لانني اعطف عليها .

اضطجعنا على سريرينا الخشبيين ، حيث كانت تعبـق منها رائحة السرور وعبر النافذة كانت روائح الزهور تدخل الغرفة ، وبـين الفينة والفينة كانت تسمع الالحان الحزينة كأنها ريح ناعمة . وقرب النافذة علا صوت بلبل يصدح . ولحق به بلبل آخر ، وآخر . كان جو العطف والحب مهيمن على المكان .

لم يغفل لي جفن . واختلط صداح البلبـل وأصوات أحزان المسيح ، وحاولت ان اسير على طريق الآلام بين اشجارالليمون المزهرة اهتدي بقطرات الدماء الكبيرة ، ومن خلال الليل الربيعي الشفاف ، استطعت ان أشاهـد حبات العرق البيضاء، التي كانت تلمع كاللؤلؤ فوق جسد المسيح التعب الضعيف ، وشاهدت ساعديه يمتدان مرتعشان ، كأنه يتوسل ، كأنه فقير . وخلفه سكان الجليل يركضون ويصيحون : « هوسنا ... هوسنا » . حاملين اغصان النخيل، ويمددون ملابسهم تحت ارجله . وهو ينظر إلى الذين يحبهم . إلا احـداً منهم لم يستطع ان يقدر مدى حزنه وألمه . كان هو وحده يعـلم بانه سائر في طريق الموت . وتحت انوار الكواكب السماويـة ، كانت الدموع تنهمر من عينيه ، معزياً قلبه البشري « ان مصيرك أيضاً يا قلبي ، مصير حبة القمح ، لتذبل ولتنطوي تحت التراب ، لا تجزع ، فكيف ستنمو وتصبح سنبـلة ؟ . كيف

ستكون قادراً على ان تطعم البشر الذين يقضون من الجوع » ؟ .

إلا ان قلبــه المرتجف ، كان بالرغم من هـــذا ، يرتعد ولا يود الموت .

وبسرعة امتلأت الغابة المحيطة بالدير ، بأصوات البلابل ، التي كانت ترتفــع من بين أوراق الاشجار اللينة الجديدة ، بألحان من الحب والشهوة . أما القلب البشري البائس فقد كان يرتعش ويبكي ويكبر معها .

ورويداً رويداً ، وبلا شعور ، امتزجت مع آلآم السيد المسيح ، ومــع صداح البلابل ، وسيطر علي الكرى ، كما تمتزج النفس في الفردوس .

* * *

لم يكد يمضي ساعة واحد على نومي حتى نهضت قافزاً ، جزعاً ، وصرخت :

ـ هل سمعت اطلاق النار يا زوربا ؟

إلا أن زوربا كان قد استيقظ منذ مدة يدخن ، محاولاً جهـــده السيطرة على أعصابه :

ـ لا تقلق أيها الرئيس ، لندعهم يسووا حساباتهم .

وتناهي لسمعنا ، أصوات وقع اقـــدام تجر جراً . وبعض الابواب تفتــح وتقفل . ومن بعيد صوت رجل جريح يتألم .

وثبت من فراشي ، وفتحت الباب ، ففوجئت بشيخ طويل منتصب أمامي ، مد ذراعه ليمنعني من المرور ، كان يرتدي قلنسوة ، وثوب نوم أبيض يصــل حتى ركبتية .

صحت به :

ـ من أنت :

ـ الاسقف !

غالبت نفسي حتى لا انفجر مقهقهاً . اسقف ؟ ولكن أين لباسه الكهنوتي ، أين ثوبه المذهب ، التاج ، العصا والجواهر المزيفة المزخرفة ... ؟ هـذه المرة الاولى التي أرى فيها اسقفاً يرتدي قميص النوم .

ـ ما هي طلقة المسدس هذه ايها الاسقف ؟

ـ لا أعلم ... لا أعلم .

قالها وهو يدفعني ليعيدني إلى الغرفة بلطف وهدوء . عندها انفجر زوربا مقهقهاً فوق فراشه قائلاً :

– هل انت جزع ايها الاسقف ؟ هيا ادخل ايهـــا العجوز البائس . فنحن لسنا رهباناً .

– زوربا انه الاسقف تكلم باحترام .

– ان الرجل لا يكون اسقفاً عندما يكون مرتدياً قميص النوم، يا صديقي.. هيا ادخل .

وقفز من فوق فراشه وامسكه من ذراعه وسحبه إلى الداخل واقفل الباب وتناول زجاجة روم ، وصب له كأساً صغيراً وقال .

– اشرب ايها العجوز فهذا سيهدىء من اعصابك .

وعبّ العجوز الصغير ، الكأس دفعة واحدة ، فهدأت اعصابه ، وجلس على طرف سريري مستنداً إلى الجدار . وابتدأت الحديث سائلاً :

– ماذا كانت طلقة النار هذه أيها الأب المحترم ؟

– لا اعلم يا ولدي ، لقد عملت حتى منتصف الليل تقريباً . وعندما ذهبت لأنام ، وفجأة ثقب اذني اطلاق النار ، لقد كان من جواري ، من غرفـــة الأب ديميتيوس . . .

فقال زوربا ضاحكاً :

– اوه . . . اوه . . . لقد كنت على صواب أيها الاخ زكريا .

وهمس الاسقف متمتماً :

– لا شك بأنه كان لصاً .

كانت الضجة في الخارج قد تلاشت وعاد السكون إلى الدير من جـــديد ، نظر الأسقف إلي متوسلاً خائفاً وسألني :

– هل تريد النوم يا ولدي ؟.

احسست بأنه كان خائفاً ولا يريد الانصراف وحيداً :

– كلا . . ابداً تستطيع ان تبقى .

وبدأ الكلام ، وتناول زوربا سيجارة ، متكئاً على الوسادة . وبدأ العجوز الطيب الكلام .

– يبدو عليك شاب متعلم ، فأنا لا استطيع ان اجد من اكلمه هنا . ولدي ثلاث اراء تهين علي حياتي هنا . واحب ان اخبرك بآرائي .

وقبل ان ينتظر ردي اردف قائلاً :

– رأيي الأول هو ان اشكال الأزهار تؤثر على ألوانها .وألوانهـــا تؤثر على ماهيتها . وبهذا يكون لكل زهرة تأثير خاص على الإنسان وأيضاً على نفسه . ولذا فيجب أن نكون حذرين عندما نمر عبر بستاناً مورداً .

وسكت قليلاً كي يسمع ما أود أن أقوله : وتخيلت العجوز الصغير يتجول في بستان مزهر . يحـــدق في التربة ، برعشة جذعـــة ، حيث كانت الورود والأزهار بأشكالها وألوانها الكبيرة لابد وان العجوز كان يتملكه خوف جوفي. فالبساتين في الربيع تسكنها الملائكة والشياطين ذوات الألوان المختلفة .

– وإليك الآن رأيي الثاني : كل فكرة لها تأثير ووجود تام ، وهي ها هنا، فهي لا تسير في الهواء ، فنحن باستطاعتنا ان نراها . لها جسد ، وعينـــين ، واذنين ، وانف ، وارجل وبطن . انهـــا الرجل أو المرأة . وهي تسير خلف الرجال والنساء . ولذلك فقد جاء في الكتاب المقدس « لقد تجسدت الكلمة » .

وراح يحدق في وجهي من جديد ، إلا أنه اردف دون ان ينتظر جوابي :

– رأيي الثالث : هو ان هناك خلود حتى في حياتنا الزائلة . إلا أنـــه من الصعب جداً أن نكتشفها . فالمشاكل اليومية تبعدها عن ذهننا . ان القليـل ، والقليل جداً سيعيشوا تلك الحياة الخالدة ، حتى خلال حياتهم الزائلة . وبمـا أن الباقون سيموتون . فقد عطف الله عليهم وبعث لهم بالأنبياء والدين . وهكـذا اصبح بإمكان عامة الناس أن تعيش الحياة الخالدة ايضاً .

واخيراً انتهى من سرد آراءه . وكان من المفروض بأنه قـد إرتاح من جراء ما قاله . ورفع عينيه الصغيرتين ، وراح يحدق في بابتسام وتضرع . كأنه يهبني كل ما جناه طوال حياته ، حتى قبل ان يتعرف علي تماماً .

كانت العبرات قد بدأت تتدحرج من مقلتيه . وسألني ممسكاً بيدي بـــين يديه ، وحدّق في عيني :

– ما الذي تقوله في آرائي ؟!

وصمت منتظراً جوابي الذي كان بالنسبة له ، مسألة حيـــاة أو موت . من جوابي سيعلم ان كان قد عاش كل هذه السنين من أجل الإنسانية ، أو أنهـا كلهـا قد ضاعت سدى . كنت اعلم علم اليقين بأنه فوق الحقيقة يوجـد واجب انساني يجب تأديته . لذلك فقد اجبته :

– ان هذه الآراء ستخلص نفوس كثيرة .

ولمعت عينا الاسقف . أخيراً ، لقد تأكد بأن حياته كانت مجدية . وقال بصوت خافت شاداً على يدي :

– شكراً لك يا ولدي .

عند ذلك وثب زوربا من زاويته قائلاً :

– أنا عندي رأي رابع :

فحدجته بنظرة قلقة . والتفت لجهته قائلاً :

– هيا يا ولدي قل .. بارك الله آرائك .

– ان اثنين زائد اثنين يكون الحاصل اربعة .

فحدجه الاسقف بنظرة استغراب واستنكار إلا أن زوربا أردف بجدية ودون اهتمام :

– ورأي خامس أيضاً ، أن اثنين زائد اثنين ويكون حاصلها غير أربعة . تستطيع أن تنتقي ما يناسبك .

فهمس الاسقف بصوت خافت .

– انني لا ادرك ما يقوله .

فانفجر زوربا مقهقهاً .

– ولا أنا ...

اتجهت نحو العجوز المسكين وحاولت تغيير مجرى الحديث :

– ما هي الأعمال التي تقوم بها هنا ايها الاسقف ؟

– انني اعيد كتابة بعض المخطوطات الاثرية . أما في هذه الأيام فأنا اجمع جميع الاسماء التي وصفت بها السيدة العذراء .

واستنشق نفساً طويلاً :

– انني كبير في العمر ، ولا اقدر ان اقوم بأي شيء آخر . فأنا اشغل نفسي بجمع جميع اسماء العذراء . لأنسى أوهام الدنيا ومشاكلها .

وانحنى على الأريكة ، وأقفل عينيه وراح يتمتم كأنه يهذي :

– الزهرة التي لا تذبل ، الارض الكريمة ، الدالية ، العين ، نبع العجائب . الطريق الأوحد نحو السماء . طائر البحر ، مفتاح الفردوس ، الصباح ، المصباح الخالد ، العمود المنير . البرج الصلب ، القلعة المنيعة . السرور ، عيون العميان ، أم اليتامى ، المائدة ، الأكل ، السلام ، الثقة ، العسل ، الحليب ...

عندها قفز زوربا قائلا :

- انه يهذي .. هذا المغفل .. سأضع عليه غطاء حتى لا يلتقط برداً ...

ورمى عليه بالغطاء واصلح الوسادة متابعاً :

- اني اسمع بأن هناك سبعة وسبعون نوع من الجنون ، إلا ان هذا هو الثامن والسبعون .

كان الصباح قد بدأ بالانبلاج . وسمعنا صوت دف . ونظرت عبر النافذة الصغيرة . ولمحت من خلال نور الصباح الباهت راهباً دقيق العود، يضع على رأسه غطاء أسود يدور في الساحة ببطء ، ناقراً على الدف بطرقة صغيرة مرسلا الحاناً جميلة متناسقة . كان صوت الدف يملأ الجو الصباحي ليمتزج بعذوبة بأصوات العصافير الصباحية المزقزقة وذلك بعد ان سكنت بلابل الليل .

ورحت استمع ، مأخوذاً ، بصوت الدف العذب . ورحت اخاطب نفسي: « ان نغماً هادئاً مرتفعاً قادر حتى في أحط ساعاته على ان يحتفظ بشكله الخارجي كله ، يكتنفه النبل . الروح تتلاشى إلا انها تترك مكانها ، الذي كانت تملأه منذ آلاف السنين كأنها صدفة . واسعاً ومعقداً لتسكنه بكل هدوء وارتياح .

ان الأديرة الكبيرة الجميلة التي نراها في المدن الضخمة الوثنية المليئة بالأصوات والجلبة . لهي أشبه بصدفات فارغة . كأنها مسخ من زمن بعيد ، هياكل فارغة تتآكل بسبب مرور الزمن والأمطار والشمس .

وسمعنا نقراً على باب غرفتنا. وتناهى لسمعنا صوت الأب المضيف يتكلم من انفه :

- هيا .. استيقظا من أجل قداس الصباح ايها الاصدقاء .

ووثب زوربا صائحاً بلا شعور :

- ما سبب طلقة النار بالليل ؟

وصمت قليلا بانتظار الجواب ، إلا أن السكون خيم على المكان من جديد . ولكن الراهب كان لا يزال واقفاً خلف الباب ، فقد كنا نشعر بانفاسه المتلاحقة فلطم زوربا الأرض بقدميه مصمماً :

- اني اسأل عن طلقة ليل أمس ؟

عندها سمعنا خطى الراهب تبتعد بسرعة . وبوثبة واحدة وصل زوربا إلى الباب وفتحه . وبصق على الراهب الذي كان قد هرب بجلده :

- انتم أيها الحمقى ، أيها الرهبان ، الكهنة ، الراهبات ، الاكليروس ،

السكرستانيون ، انني ابصق عليكم .

– هيا بنا .. ان رائحة الدم تفوح من المكان .

– هذه لو كانت رائحة دم فقط . ستتوجه أنت إلى القداس أما أنا فأحاول أن أجد شيئاً .

فقلت مقطباً .

– ارجوك ، هيا بنا ولا تتدخل فيما لا يعنيك .

– إلا انني اود ان اتدخل هنا .

وتأمل لحظة ثم علت وجهه ابتسامة مشرقة وقال :

– ان ابليس قد قدم لنا خدمة جلـّى واعتقد انه سيوصل الأمــور إلى نصابهـا . هل تعلم ايها الرئيس ؟ ان هــذه الطلقة ستكلف الدير سبعة آلاف لـيرة ؟

ونزلنا إلى الساحة . حيث كانت تفوح رائحة الأزهار ، وعذوبة الصباح ، والفرحة الإلهية ، وكان هناك زكريا بانتظارنا . وهرع زوربا نحــوه وامسك بذراعه وهمس الراهب مرتعشاً :

– أيها الأخ كانافارو ، اقترب ، هيا بنا !

– ما هي طلقة النار ؟ لقد قتل أحد ما اليس كذلك ؟ ، هيا تكلم قبل ان اقتلــك !

كان فك الراهب يرتعش . وتلفت حوله . كانت الساحة خالية إلا منـا . والغرف لا تزال مغلقة . ومن باب الكنيسة كانت تأتي الأنغام السماوية . وتمتم :

– هيا سيرا خلفي .. سادوم وعامورة .

وعبرنا الساحة ، قرب الجدران ، وخرجنا من الحقل . وبعد حوالي مئة متر من الحديقة كانت المقبرة ، ودخلناها .

مشينا فوق القبور . ولطم زكريا باب الكنيسة الصغيرة ، ودخلنا خلفه وفي وسط الكنيسة كان ثمـة جسد مجثى يغطيه ثوب كاهن ، وفوق كل من رأسه وقدميه شمعة تشتعل .

فهمست وانا ارتجف :

– الراهب الشاب . راهب الاب ديميتيوس الشاب الأحمر الشعر !.

عند باب الكنيسة كان ينتصب القديس ميخائيل ، غاضباً ، جناحيـه

مفتوحين ، مستلاً حسامه ، ومنتعلاً حذاء احمر .

وصاح الراهب زكريا :

– أيها القديس ميخائيل ، ابعث بالنار والحريق ، احرقهم عن آخرهم ، أيها الملاك ارفس رفسة واحدة . واخرج من ايقونتك، استل حسامك واضرب! ألم تسمع طلقة النار ؟.

– من الذي أرداه قتيلاً ؟ ديمتيوس ؟ تكلم أيها الراهب ،

وانبرى الراهب ، وارتمى على قدمي القديس ، وصمت لحظة ، رافع الرأس، عيناه باظتان ، شفتاه متدليتان وكأنة ينتظر شيء ما .

وفجأة نهض وقد تملكه الفرح ، وقال بصوت مصمم :

– سأدمرهم ، لقد تحرك القديس ... لقد أشار إلي ...

واقترب من الأيقونة ، ولثم نصل الحسام وقال :

– ليباركك الله ... لقد عادت الثقة إلى نفسي ...

امسك زوربا بالراهب من تحت ابطه وقال :

– هيا بنا يا زكريا ... ستفعل ما أشير به عليك .

ونظر إلي واردف :

– هيا اعطني النقود ، سأوقع الأوراق شخصياً ، فكلهم ذئاب ، أما أنت فنعجة ، وسيحاولون التهامك ، دعني اقوم بهذا عنك . ولكن لا تقلق . انني اعتصرهم بين يدي ، هؤلاء الحيوانات القذرين . سننصرف عند الظهيرة وستكون الغابة في جيبنا .. هيا يا زكريا .

وتوجها خفية نحو الدير . وانصرفت بدوري لأتجول تحت أشجار الصنوبر . كانت الشمس قد أصبحت في كبد السماء ، ونقط الندى تلمع فوق أوراق الشجر. وبقربي طار شحرور ، وحط على شجرة كمثري ، وهز ذنبه وفتح منقاره ، والتفت نحوي وصفر مرتين أو ثلاثة بازدراء .

كنت ارى عبر اشجار الصنابر ، الرهبان يخرجون من الكنيسة صفوفاً، صفوفاً واضعين على اكتافهم قطع سوداء . كانت صلاة الصباح قد انتهت وهم متوجهين نحو صالة الطعام . وخاطبت نفسي « يا للتعاسة . أن يكون مثل هذا التقشف ، ومثل هذا الإخلاص ، بلا دافع أو روح من الآن » .

كنت منهوك القوى ، فلم أنم طوال الليل ، فاضطجعت على العشب الأخضر ،

كانت الازهـار البرية ، المبيثران تعبق في المكان . والحشرات المختلفة تصبح جائعة لتلتهم الأزهار وتمتص رحيقها .وفي البعيد كانت الجبال تنتصب غاضبة ، ولكن بهدوء كأنها كتل من الأبخرة المتحركة في أشعة الشمس المحرقة .

واقفلت عيني بتعب . وغلب علي فرح عظيم ، غامض ، كأن المعجزة الـتي تحيط بي هي الفردوس بعينه . كأن هذا الانتعاش ، وهـذه العذوبة وهـذه النشوة العامرة ، هي الرب بذاته . ان الرب يغير وجهه في كل ثانيـة . وكل من يتعرف على اقنعته يكون سعيداً جداً . فهو مرة كوب مـاء بارد . ومرة اخرى ولد يقفز على ركبتيك . أو إمرأة فاتنة ، أو بكل بساطة نزهـة صغيرة في الصبـاح .

ورويداً رويداً ، اختلط كل شيء حولي ،ولكن دون أن يتغـير شكله . فقد اصبح كل شيء حلماً . كنت مسروراً ،فالأرض والجنة قد امتزجتنا فأصبحا قطعة واحدة . وظهرت لي الحياة ، كما لو أنها وردة تحمل في قلبهـا نقطة من العسل ، وبدت لي روحي كما لو انها نحلة ترتشف هذا الرحيق بلذة وسرور .

وفجأة اندفعت بعنف خارج هذا الحلم اللذيذ ، فقد سمعت خلفي وقع أقدام. وأصوات . وسمعت الصوت المرح :

– أيها الرئيس ... اننا راحلون .

وانتصب زوربا أمامي ، وعيناه الصغيرتان تلمعـان ببريق شيطاني . وقلت باطمئنان .

– هل ننصرف ... هل انتهى كل شيء ؟

ورد زوربا وهو يضرب على جيب سترته الأعلى :

– أجل كل شيء انتهى .. انها هنا ..تلك الغابة ..وهي التي تستحق السبعة آلاف ليرة . التي جعلتني لولا ابددها .

وتناول من جيبه رزمة أوراق نقدية قائلاً :

– خذها ... انني الآن ارد جميع الديون ،ولن اشعر بالحياء بعد ذلك ابداً، اني ادفع لك . ثمن الجوارب ، الحقائب ، العطور ، وحتى مظلة السمدة بوبولينا ، وفستق الببغاء والحلوى التي جلبته لك .

فقلت .

– اني اقدمها لك يا زوربا ... هيا اذهب واشعل شمعة بطولـك للسيدة

العذراء التي اهنتها .

والتفت زوربا نحو الأب زكريا الذي كان يتقدم بقلنسوته الوسخة الخضراء ونعليه الباليين .

وكان يسحب بغلين من رسنهما . وأشار زوربا إليه برزمة النقود قائلاً :

— سنتقاسم هذا المبلغ ... يا يوسف . وسنشتري بها مئة كيلو من السمك وتشبع نفسك يا صاحبي المسكين ... هيا افتح يديك .

وأمسك الراهب برزمة المال ودسها في صدره قائلا :

— سأشتري بنزين !

وهمس زوربا في اذن الراهب :

— يجب أن يكون الوقت ليلا . الجميع نياماً . والريح قوية . ستضع البنزين على الجدران الاربع . يجب ان تكثر من البنزين فوق القماش ، وكل ما يقع تحت يدك وثم تضرم النار .

كان الراهب يرتجف . واردف زوربا :

— لا ترتجف هكذا يا صاحبي ، ان القديس قد أشار عليك بهذا . فما عليك إلا ان تصدع لأمره .. وعليك بالبنزين .. وليوفقك الله .

واعتلينا المطيتين ، والتفت لألقي نظرة أخيرة على الدير وسألت :

— هل استطعت ان تعلم شيئاً يا زوربا ؟

— تعني بخصوص طلقة النار ؟ لا تقلق . لقد كان زكريا محقــاً . سادوم وعامورة لقد قتل ديميتيوس الراهب الصغير .. هذا كل ما في الأمر .

— ديمتيوس ! لماذا ؟

— لا تهتم للأمر . أيها الرئيس فهذا ليس إلا أوساخ وعفونة .

والتفت نحو الدير . كان الكهنة قد بدأوا يخرجون من صالة الطعام . أيديهم فوق صدورهم متجهين نحو غرفهم ليحبسوا انفسهم فيها فصرخ :

— لتحل لعنتكم علي أيها الآباء المقدسون .

- ١٩ -

عندما ترجلنا عن مطيتينا ، أول وجه شاهدناه كان وجه السيدة هورتنس . كان الليل قد بدأ ، كانت قابعة أمام عتبة الكوخ . أشعلت القنديل ونظرت إليها وارتجفت جميع اعضاء جسدي .

– ما بك يا سيدة هورتنس ؟ هل تشعرين بمرض .

كانت العجوز قد اضاعت كل اغرائها المزيف الذي لا يمكن معرفته تماماً . وذلك منذ اللحظة التي راحت تفكر بالزواج . فقد راحت تبذل جهدها لتبعد عن نفسها الريش الملون الذي تبرجت به والتي اخذته من الباشوات والبكوات والاميرالات . فهي لم تعد تريد إلا أن تصبح زوجة صالحة مستقيمة . فهي لم تعد تتبرج ، بل تركت نفسها على ما هي .

لم يتفوه زوربا بكلمة بل راح يداعب شاربيه بعصبية وانفعال . ركع واضرم النار في الموقد واعد الماء لتحضير القهوة .

وفجأة علا صوت العجوز بقسوة :

– وحش .. !.

ورفع رأسه ونظر إليها . لقد عادت الطيبة إلى عينيه . كان لا يستطيع أن يقاوم صوت المرأة البائس وهي تكلمه . فتبدل بسرعة . فهو يغرق في دمعة امرأة .

ظل صامتاً ولم يتفوه بكلمة . وضع السكر والبن وحرّك الماء وهمست العجوز :

– لماذا تدعني انتظر هكذا طويلاً ، فأنا لم أعد استطيع ان اذهب إلى القرية .. لقد فقدت كرامتي .. كرامتي .. سأقتل نفسي .

كنت قد اضطجعت منهوك القوى فوق السرير . ورحت متكئاً على وسادتي

اتمتع بهذا المشهد الرائع والمضحك .

– لماذا لم تحضر أكاليل الزواج .

وأحس زوربا بيد بوبولينا الثقيلة ترتاح على ركبته . لقد كانت هـذه الركبة آخر مكان تتمسك بهذه اليد وهذه الانسانة التي اغرقت الف مرة ومرة .

لا بد وان زوربا قد ادرك هذا . لذلك فقد حنّ قلبه . لم يتفوه بكلمـة . وصب القهوه في فناجين ثلاثة إلا أنها كررت بصوت مرتعش :

– لماذا لم تحضر الاكاليل يا حبيبي ؟

– لم أجد في كاندي أكاليل تليق بك .

وقدم لكل فنجانه وجلس في الزاوية واردف :

– لقد ارسلت إلى اثيناً ، ليبعثوا إلينا بأكاليل رائعة . وكذلـك بعض الشموع البيضاء . وملبس مغطى بالشوكولا ومحشو باللوز .

كان كلما ازداد في الكلام . كلما ازدادت مخيلته اتساعاً . كانت عينـاه تلمعـان وراح زوربا ، كأنه شاعراً أتته القريحة . يرتفع في الفضاء حيث تمتزج فيها الخيالات والحقائق . كان جالساً مستريحاً في الزاوية يشرب بصوت مسموع قهوته وتناول سيجارة ثانية واشعلها : بالنسبة له فقد كان اليوم رائعـاً ، حصل على الغاية . وسدد ديونه ، فهو سعيد جداً .

وراح يختلق عبر خياله الواسع :

– ان زواجنا يجب ان يثير الضجة . عندما ستشاهدين قبعة الزواج! ، لهذا السبب تأخرت في كاندي كثيراً يا حبيبتي . احضرت خياطتين كبيرتـين من اثينا ، وقلت لها : « ان السيدة التي سأتخذها زوجة لي . لا توجد شبيهة لهـا ، لا في الشرق ولا في الغرب . لقد كانت ملكة الدول الاربعة ، إلا أنهـا الآن أرملة . إذ أن هذه الدول جميعها قـد ماتت لهذا فقد قبلتني زوجاً لها . لذلك فثوب الزواج أريده أن يكون أول ثوب من نوعه ،وهي تفضله هكذا : مصنوع من الحرير ، تزينه الأحجار الكريمة ، والبرق الذهبي !! فصاحتا الخياطتـان بصوت مرتفع « إلا أن هذا سيجعل الثوب رائعاً ، جميلاً جداً ، وسيبهر عيون جميع المدعوين » . فقلت « لتبهر عيونهم ، لا يهمني ... لكن بشرط أن تكون حبيبتي مسرورة . »

كانت السيدة العجوز تستمع ، متكئة إلى الحائط . تعلو شفتيها ابتسامة

عريضة . والشريط الذي كان يلف عنقها كاد ينقطع من شدة انفعالهـــا .رمت زوربا بنظرة عطف تكتنفها العصبية :

– أود أن أهمس لك شيئاً في اذنك .

ونظر زوربا إلي بطرف عينه وانحنى . ودفعت العجوز بلسانهـــا في اذنــه المغطاة بشعر كثيف .

– لقد احضرت لك شيئاً هذا المساء .

وتناولت من صدرها منديلاً عقدت إحدى زواياه وقدمته لزوربا ، تنـــاول زوربا المنديل ووضعه على ركبته ثم التفت نحو الباب وراح يحـــدق في البحر . إلا انها استعجلته قائلة :

– الن تفك العقدة ؟ الست مستعجلاً ؟ .

– اتركيني أولاً أكمل قهوتي وسيجارتي ، لقد حزرت ما بداخلها .

– ارجوك فك العقدة ... فك العقدة .

– سأنتهي من سيجارتي .. كما قلت لك أولاً .

وحدجني بنظرة توبيخ كأنه يحملني مسؤولية كل هذا بسبب الغلطة الـــتي ارتكبتها .

كان يمج سيجارته بهدوء وبطء ،ويرسل الدخان من منخرية محدقاً في البحر . وأخيراً قال :

– غداً ستهب ريح قوية ، لقد تغير الطقس ، ستمايل الاشجار ، وكذلـــك صدور وخصور الفتيات ، ولن تستطيع ان تحتمل المشدات ، أيهـــا الربيـــع فلتذهب إلى الجحيم ، فالشيطان هو الذي أتى بك .

وسكت وبعد قليل اردف :

– ان كل شيء جميل ورائع في هذه الدنيا قد خلقه الشيطان : الفتيـــات الجميلات ، الربيع ، الخنازير المشوية والخمر ، كل هؤلاء قـــد خلقهم الشيطان . أما الرب الطيب فقد أوجد ، الصوم،الكهنة ، البابونج ،والفتيات القبيحات .. أف .. أف .

وبينما كان يقول هذا ، حدّج السيدة هورتنس بنظرة حـــادة . التي كانت جالسة في الزاوية . وفي كل لحظة كانت تقول :

– زوربا ... زوربا ...

القى بسيجارته ، فانحنت السيدة وتناولت المنديل ودسته في يد زوربا . فأمسك بالمقدة وحلّها . وراح يحدق في يده بازدراء وقال :

– ما هذا يا سيدتي ؟

– محبسان صغيران يا حبيبي . محبسا الخطبة . والشاهد موجود ، والليل ناعم . والرب الطيب يحدق فينا ... فلنعقد خطبتنا ... يا زوربا .

كان زوربا ينقل نظره بيني وبينها ، وبين المحبسين . كانت الشياطين بأجمعها تتعارك داخله . ولم يكن أحدها يتغلب على الآخر . وكانت العجوز المسكينة تحدق في وجهه بخوف وتتم :

– زوربا ... زوربا .

كنت قد وقفت ،ورحت انتظر بفارغ الصبر ، ترى أي الشياطين سينتصر ، وأي طريق سيختار . وفجأة حرك رأساً بقوة . لقد قرر أخيراً ، ولمعت عيناه وصفق بيديه وقفز :

– لنخرج . هناك تحت الكواكب . كي يشاهدنا الله . ايها الرئيس ، خذ المحبسين . هل تعرف كيف ترتل ؟

فأجبته بحرج :

– كلا ... سأحاول ...

وثبت من سريري ، وساعدت السيدة هورتنس على القيام .

– بل أنا اعرف ، لقد نسيت ان اقول لك بأني كنت من الكورس . كنت اسير خلف الكاهن في حفلات الزفاف والعماد ، ومراسيم الموتى . وقد حفظت أناشيد الكنيسة تعالي ، يا عزيزي ، تعالي يا حبيبتي ، يا بارجتي الفرنسية ، هيا إلى يميني .

ان الشيطان الذي انتصر داخل زوربا أخيراً ، كان الشيطان الطيب ذو النفس الصافية . لقد شعر زوربا بالعطف نحو العجوز . وكاد قلبه يتمزق عند رؤيته نظرتها المتوسلة الواهنة .

وهمس بتصميم وعزم .

– إلى الجحيم ، فأنا لازلت قادر على ان ادخل السعادة إلى قلب الجنس اللطيف .

واسرع نحو البحر ، ممسكاً بذراع السيدة العجوز ، وناولني المحبسين .

والتفت نحو البحر وهو ينشد :

– ليتبارك إلهنا إلى أبد الآبدين . آمين .

ونظر إلي قائلاً :

– انتبه أيها الرئيس عندما اصرخ ، « هو هي . هو هي » تضع في اصبعينا المحبسين .

وراح يرتل بصوته الفج الذي يشبه صوت الحمار :

– لاجل عبد الرب ، الكسيس ، ولاجل امة الرب هورتنس ، اللذين عقدت خطبتهما ولاجل سلام نفسيهما . نتوسل إلى السيد .

ورحت اتمتم وأنا أجاهد ضحكي ودموعي : إرحم يارب .. إرحم يارب ..

وقطع زوربا صلاته قائلاً :

– لا شك بأن هناك أناشيد اخرى ، ولكن أظن بأن هذا يكفي ..

ووثب في الهواء بشكل دائري وصرخ :

– هو هي . هو هي ...

والتفت نحو خطيبته :

– مدي يدك انت أيضاً يا سيدة روحي .

وامتدت اليد الثقيلة ... التي شققتها كثرة الغسيل ، مرتعشة والبستها المحبسين ، بينما صرخ زوربا بلا شعور كأنه من الصعاليك :

– عبد الله الكسيس قد عقد خطبته على أمة الله هورتنس ، باسم الآب والابن والروح القدس .. آمين ، أمة الله هورتنس عقدت خطبتها على عبد الله الكسيس ...

ومن ثم قال :

– لقد انتهى كل شيء .. يا عزيزتي . تعالي كي اقبلك أول قبلة بريئة وشريفة ...

إلا أن السيدة هورتنس كانت قد انهكها التعب فارتمت على ركبتيها وامسكت بساقي زوربا ، واجهشت بالبكاء . وحرك زوربا رأساً مشفقاً وهمس :

– يا للنساء الضعيفات !

وقفت السيدة هورتنس واصلحت من شأنها ... ومدت ذراعيها . فصاح

زوربا :

ــ هي ... انه الثلاثاء المقدس ... إحتشمي وتعقلي .. انه الصوم .

فهمست بشوق وانفعال :

ــ زوربا .. زوربا ...

ــ كوني صبورة يا حبيبتي ، يجب ان تنتظري حتى عيد الفصح ، حيث نستطيع أن نأكل اللحم و « نفقش » البيض المسلوق . الآن لقد آن الأوان لكي تعودي إلى البيت . فما الذي سيقوله من يراك تتجولين في مثل هذا الوقت .

ونظرت إليه متوسلة ، متضرعة إلا أن زوربا اردف :

ــ اقول لك حتى الفصح .. هيا .. تعال معنا ايها الرئيس .

واقترب من اذني هامساً :

ــ لا تحاول ان تتركنا وحدنا ، كرامة للرب ، فأنا على غير استعداد .

ورحنا نمشي في طريق القرية ، كانت السماء غاضبة ، ورائحة البحر عابقة ، وطيور الليل تصرخ ، بينما استسلمت السيدة العجوز لزوربا ليقودها من ذراعها. سعيدة ، وحزينة .

اخيراً ،لقد وصلت إلى الميناء الأخير الذي طالما تأملت بالوصول إليه ، لقد انشدت ، ورقصت طوال حياتها . كانت تهزأ من النسوة الشريفات ، إلا انها لم تكن مسرورة أبداً . فهي عندما كانت تسير في شوارع بيروت والاسكندرية والقسطنطينية . وتشاهد النسوة ترضعن اطفالهن ، كانت تشعر بقشعريرة تسري في صدرها ، فتقف حلمتاها ، ويصرخان ، هما يريدان أيضا فماً صغيراً . كانت طوال مدة حياتها تفكر وتتأمل « اريد ان اتزوج .. وان انجب طفلاً ». إلا انها لم تكن تطلع أحداً على سرها الدفين . أما الآن ، وبإرادة الله ، وبعد وقت طويل ، بدأت بدخول الميناء الأخير ، محطمة ، مهشمة ، خلعتها الأمواج المتلاحقة والتي علتها أكثر من ألف مرة .

كانت ، من وقت لوقت ترفع نظرها لتنظر إلى ذلك المارد القوي ، الذي يقودها بيدها ، وتخاطب نفسها قائلة انه ليس باشا ثرياً ، ولا يضع على رأسه طربوشاً ذا شرابة ذهبية ، فهو ليس احد ابناء البكوات ، إلا انه ، على كل حال ، احسن من لا شيء ، باذن الله سيكون زوجي ، زوج حقيقي ؟!

كان زوربا يحس بأنها تترك كل ثقلها عليه . فيسحبها ، مستعجلاً الوصول إلى

القرية ليتخلص منها . كادت العجوز تهوي أكثر من مرة فوق الحصى ، واظافر رجلها تكاد تغرز في لحمها . إلا انها لم تتفوه بكلمة . ولماذا تتكلم أو تشتكي ، فقد صار ما كانت تتمناه دائماً .

كنا قد مررنا بتينة السيدة وحديقة الأرملة . وبدا لنا أول بيت في القرية وتوقفنا عن السير ، وانتصبت العجوز على أطراف اصابع قدميها بغنج ودلال محاولة الوصول إلى شفاه خطيبها قائلة :

— ليلة طيبة ، يا عزيزي ...

إلا أن زوربا لم يتجاوب معها . فهتفت ، وهي مستعدة للركوع على ركبتيها:

— هل ارتمي على قدميك لالثمها يا حبيبي ؟

فرد زوربا مستنكراً ، منفعلاً وقد تناولها بين ذراعيه :

— لا .. لا .. بل يجب أنا من يرتمي على قدميك يا عزيزتي ، ولكني اشعر بتعب الليلة ، ليلة طيبة ..

وتركناها هناك ، وعدنا ادراجنا بسكون ، محاولين جهدنا استنشاق هواء الليل الرطب العبق . وفجأة نظر إلي زوربا قائلاً :

— يجب ان تشير علي ما الذي افعله ... هل اقهقه أم ابكي ؟ قل لي .

لم ارد عليه ، فقد كنت بدوري اشعر بجفاف في زلعومي ، ولا ادري م سبباً ، اهو البكاء أو الضحك ؟

وفجأة تكلم زوربا :

— ايها الرئيس ، هل تذكر ماذا كان يسمى ذلك الإله السيء الذي كان لا يترك امرأة واحدة تشتكي ؟ لقد سمعت عنه شيئاً . واظن بأنه كان يصبغ لحيته وشاربيه، ونقش على ذراعيه « كيوبيد » والسهام ،والجواري،ويستطيع ان يختفي تحت أي قناع يريده ، ثور ، خروف ، طير أو حتى حماراً . هل تذكر ماذا كان يسمى ؟

— اظن بانك تتكلم عن زيوس . كيف استطعت تذكره ؟

فرفع زوربا ذراعيه نحو السماء وقال :

— لتكن الأرض خفيفة عليه ! لكم تعب وقاس كثيراً ، انه لضحية كبيرة . لك ان تصدقني ايها الرئيس ! فأنا عندي فكرة حول هذا الموضوع. فانك تلتهم كل ما تقوله كتبك . إلا أن الذين يؤلفونها ليسوا إلا منافقين ..

فما الذي يعرفونه عن النسوة ، وعن الذين يسمون خلفهم ؟ يا لهم من اغبياء!
فأجبته هازئاً :
– لماذا لا تؤلف انت يا زوربا ، وتشرح لنا كيف يكون هذا العالم .
– لماذا ؟ لانني انا قد خبرت جميع اسرار هذا العالم ، وليس لدي الوقت لأكتب عنه . مرة النساء ، ومرة ثانية الحرب ، واخرى الخمر والسانتوري . فأين لي ان احظى بالوقت الكافي لامسك بالقلم لاكتب اشياء ليست ذات معنى ؟ لذلك فان جميع الذين يكتبون يكون لديهم الوقت الكافي . فجميع الذين يعيشون هذه الالغاز ليس لديهم الوقت لمثل هذا الهراء . ومن عنده الوقت ، لا يختبر مثل هذه الالغاز هل تفهم ما اعنيه !.
– أرجو أن نعود لموضوعنا ، ما قضية زيوس ؟
فتنهد زوربا قائلا :
– يا له من مسكين ! أنا أشعر فقط معه ، وكم قاسى . النساء ، لقد كان مغرم بهن . ولكن ليس كما تتخيلون انتم الكتاب والمؤلفون ، أبداً . فقد كان يشاركهن المهن ، ويعطف عليهن ، ويضحي بنفسه من أجل راحتهن . فعندما كان يسمع ، بأن في مكان من الارض ، عانس عجوز ، أو فتاة صبية ، وربي ، حتى ولو كانت ، قبيحة او وحشاً ، تشعر بالرغبة القاتلة ، بسبب غياب زوجها . كان يرسم علامة الصليب ذلك الرجل العظيم ، ويغير ثيابه ويتنكر بالشكل الذي تحبه تلك المرأة ، ويدخل الى غرفة نومها .
« لم يكن دائماً في حالة تسمح له بالحب ، وكان غالباً ما يفشل . فكيف يكفي مثل هذا التيس لكل هذا العدد من النساء . فقد كان منهوكاً أكثر من مرة ، لا يقدر على أن يقوم بأي شيء . هل شاهدت مرة تيساً ضاجع عدة نعجات ، وبعدها كان منهكاً ، الريق ينحدر من بين شفتيه ، يلهث ، وعيناه سوداوتان بائستان ، يكح من التعب ، حتى لا يكاد يستطيع الوقوف على رجليه . هو كان غالباً ما يكون على مثل هذه الحال المحزنة . ذلك المسكين زيوس . وعند الصباح كان يعود إلى بيته وهو يقول : « أوه يا رب متى سيكون لدي الوقت الكافي لأنام ملء جفوني . فأنا لم أعد قادراً على الوقوف . ويتابع مسح الريق عن شفتيه .
« إلا أنه فجأة يتناهى لمسمعه صوت بكاء وأنين ، وغالباً ما يكون آتياً من الأرض . امرأة رمت اغطية فراشها وخرجت للشرفة نصف عارية ، تطلق

التنهدات والحسرات . ويشفق زيوس عليها ويهمس بتعب « يا لتعاستي ، علي أن أهبط ثانية إلى الأرض . فهناك امرأة تندب حظها يجب علي أن أواسيها » .

وظل هكذا حتى أفرغته النساء تماماً ، وتهشم صلبه ، وبدأ يتقيأ . وأصيب بالشلل ومات . وعند ذلك جاء بعده المسيح . وعلم بحالة زيوس المحزنة . فصاح « تجنبوا النساء » .

اعجبت جداً بروح زوربا المرحة ، وانفجرت قهقهاً .

— لك ان تقهقه أيها الرئيس ، ولكن إذا قدر الرحمن أو الشيطان ، أن ننجح في عملنا ، وهذا ما أظنه صعباً ، هل تعلم ما الذي سأفعل ؟ سأفتح محلا تجارياً ، وكالة زواج ، عندها ستهرع النساء إلي بكثرة ، المسكينات ، منهن العوانس ، البشعات ، والمقعدات ، وذوات العين الواحدة ، والحدباوات ، سأرحب بهم في صالة استقبال صغيرة جدرانها مزينة بصور شبان وسيمي الطليعة وأقول لهن « اخترن يا سيداتي المحترمات . هيا اخترن وسأقوم أنا باللازم ليصبح فعلا لكن » . وبعد ذلك سأحاول أن أجد أي شاب ، يشبهه قليلا . واجعله يرتدي الثياب التي في الصورة . وانفحه مبلغاً من المال ازوده بالمعلومات اللازمة : الشارع ، الرقم . إسأل عن هذه السيدة ، وعرّفها بنفسك . ولا تجعل نفسك تتقزز فأنا من يدفع ضاجعها ، وغازلها بكلمات لم تسمعها أبداً ، تلك المخلوقة التعيسة ، واحلف لها بأنك ستتزوجها . اجعلها تشعر باللذة ، تلك التي خبرتها الخراف وحتى الحشرات ذوات العشر أرجل ! »

« وإذا حضرت يوماً ما ، سيدة عجوز ، كسيدتنا ، ولم يقبل أي انسان أن يواسيها ، فسأضطر لآخذ الأمر على مسؤوليتي . فأرسم علامة الصليب ، أنا مدير الوكالة وصاحبها . وقد يقول بعض الأغبياء « انظروا إلى هذا العجوز الخسيس . أليست له عينان يستطيع أن يرى بهم ؟ ولا حتى أنف ليشم ؟ » . أجل يا جماعة الحيوانات لي أعين وأنف ، ولكن لي أيضاً قلب . واني أعطف عليها . وعندما يكون لدى الانسان قلب ، يكون لديه كل العيون والأنوف التي يتمناها ، إلا انه يرمي بها جميعاً في الهواء .

« وعندما أفرغ أنا ايضاً ويتحطم صلبي ، وأصبح عاجزاً ومشلولاً . بعد جنون الشباب ، فان القديس بطرس ، الذي يحمل مفاتيح الفردوس ، سوف يرحب بي قائلا هيا أيها التعيس أدخل ، ادخل أيها الضحية الكبرى زوربا .

اذهب لتجلس قرب أخيك زيوس ، خذ قليلاً من الراحة أيهـــا البطل . فقد أجهدت كثيراً ، فلتتبارك روحك » .

كان زوربا يختلق الأحداث ، وكان يقع في كائن ينصبها بنفسه . ولا بد بأنه كان قد أخذ يعتقد بها هو أيضاً ويصدق نفسه ، لاهياً وعصبياً. وعندما اقتربنا من تينة الآنسة أرسل زفرة عميقة ، ماداً يديه كأنه يقسم :

ــ لا تقلقي يا عزيزتي ، يا بوبولينتي ، يا سفينتي المخلصة ، لا تقلقي سأواسيك ، لقـــد تركتك الدول الاربع الكبرى ، وتركك الرب الرحيم ، أما أنا فلن أتركك أبداً » .

عندما وصلنا لشاطئنا كان الوقت بعـــد منتصف الليل . نفخ الريـح ، من بعيد ، من أفريقيا ، من حيث تأتي رياح الجنوب الدافئة ، والتي تجعـل الكرمة تنضج ، وكذلك اثداء كريت ، ان الجزيرة بأجمعها تستقبل الرياح الدافئة ، التي تحرك الجذور . وامتزج زوربا مع زيوس ورياح الجنوب . ورأيت بوضوح عظيم ، من خلال الظلام ،وجهاً ضخماً ، ذو لحية سوداء ، وشعر أسود يتلألأ كالنفط ، يقترب بشفاه حمراء دافئة إلى السيدة هورتنس ، الأرض .

- ٢٠ -

وصلنا إلى الكوخ وارتمينا فوق فراشنا ، وفرك زوربا يديه بسرور قائلاً :

– لقد كان يومنا موفقاً أيها الرئيس ، تأمل قليلاً : ففي الصباح كنا هناك في الدير ، عند الشيطان الأخضر ، وخدعنا رئيسه ، الذي لعننا كثيراً : وبعد رجوعنا ، وجدنا السيدة هورتنس فخطبت ، ألقي نظرة على هـذا المحبس ، كانت تقول بانه لا يزال لديهـا ليرتان من الذهب ، اعطاها لهـا الاميرال الانكليزي قبل رحيله ، وكانت تحتفظ بهما من أجـل مراسيم دفنها ، إلا انهـا وجدت من الأحسن ان تعطيهما للصائغ ليصنع منهما المحبسين ، انهما من الذهب الجيد . يا لهذا الانسان من سر محيّر .

– حاول ان تنام يا زوربا . هدىء نفسك . فهذا يكفي اليـوم ، فغداً عندنا عمل واحتفال كبير ، سنركز أول عمود من المصعد . وقـد طلبت من الأب اسطفان ان يأتي أيضاً .

– لقد قمت بعمل ممتاز ، فهذا مفيد أيضاً . أجل يجب ان يحضر الكاهن ، ذو اللحية التي تشبه إلى حد بعيد لحى التيوس . وليحضر أيضاً أشراف القرية ووجهائها . ويجب أن توزع عليهم بعض الشموع الصغيرة ليشعلونها ، فهـذه المظاهر ستترك أثراً طيباً ، سيكون لصالحنا . يجب أن لا ننظر على ما أقوم به أنا فقط . فأنا لي شيطان ورب خاصين بي .. إلا ان الناس ...

وغرق في الضحك . فهو غير قادر على النوم ، ما دام رأسه قلق . وبعـد قليل قال :

– أوه .. يا جدي الشيخ . لتكن الارض رحيمة به . لقد كان عـاهراً ، كذلك ، تماماً مثلي : ومع هذا فقد ذهب وحج . وغير الله لا يعلم لماذا . وعندما رجع للقرية ، قال له احد شركائـه ، وكان يسرق الخراف ولم يفعل أي شيء شريف في حياته « هل جئت لي بقطعـة من الصليب المقدس » . فأجابـه :

« بالتأكيد . وكيف أنساك أيها الشريك ، احضر هذا المساء إلى منزلي واحضر معك الكاهن ، وبعض الخمر ، وخنزيراً محمراً . سنحتفل وأعطيك القطعة ؟!

وفي المساء ، رجع جدي لمنزله وقطع من بابه الذي كان مسوساً ، قطعة صغيرة جداً من الخشب بحجم حبة الأرز ، وصب عليها قليل من الزيت ، ولفها بالقطن . وجلس ينتظر . وبعد قليل حضر الشريك والكاهن ومعهما الخمر والخنزير . وتناول الشريك القطعة النفيسة وانهالوا على الخنزير ، يلتهمونه . لك أن تصدقني ايها الرئيس . ولكن الشريك ركع ساجداً أمام القطعة الخشبية وعلقها بعنقه . ومنذ ذلك الحين تغير وأصبح انساناً آخراً . فذهب إلى الجبل وانضم إلى الثوار واشترك بإحراق الاتراك وكان يخوض المعارك ويهاجم بشجاعة وبسالة ، دون خوف من الرصاص . فمعه القطعة من الصليب المقدس والرصاص لن يصيبه » .

وعاد زوربا للقهقهة من جديد . واردف :

– الإيمان هو كل شيء ، فإن كان معك قطعة من باب قديم فتصبح حجاباً مقدساً . وان لم يكن لديك هذا الإيمان ، فإن الصليب المقدس كله سيتحول لباب خشبي قديم .

كم اندهش من هذا الرجل ، الواثق الجريء . والذي تقدح من نفسه الشرارة عند لمسه أي شيء .

– هل اشتركت في أي حرب يا زوربا ؟ .

– وكيف أتذكر . ولكن أي حرب تقصد ؟

– أريد ان أسأل هل قاتلت من أجل الوطن ؟

– أرجو ان تغيير هذا الموضوع ، هذه السخافات المنسية ، هراء ! .

– أتسمي هذا هراء ؟ ألا تستحي ؟ أهكذا تتكلم عن الوطن ؟

نهض زوربا رافعاً رأسه . وفتل شاربيه ، كان قنديل الزيت يشتعل فوقي ، فحدق في وجهي ملياً بفظاظة وقال :

– اعذرني أيها الرئيس ، بالرغم من الاحترام الذي أكنه لك ، فإنك لا زلت بسيطاً ومدع ، وكل ما أقصه عليك تأخذه على سبيل النكتة .

– لا .. لا كيف هذا ؟ فأنا افهمك تماماً يا زوربا ! .

– أجل .. انك تفهم بعقلك فقط . فأنت تقول : « هذا عادل وهذا

ظالم ، هذا هكذا .. وهكذا .. صحيح أو خطأ » . ولكن ما الذي نفيده من هذا ؟ فعندما تتكلم أنظر إلى يديك وصدرك فأجدهما ساكنتين لا تتحركان ، كأنه لا يوجد بهما نقطة دم واحدة . إذن فبأي شيء تفهم ؟ بعقلك . ؟ . بف .

فصرخت محاولاً إثارة أعصابه :

— هيا تكلم يا زوربا ، ولكن بوضوح ، فإنك تحاول التهرب أظن بأنك لا تهتم كثيراً بالوطن ، ايها الجبان ! .

فأستشاط غضباً ولطم الحائط برجله ، لطمة اهتزت لها الصفائح المعدنية ، وقال بغضب :

— أنا ، لقد جدّلت بشعري ، كنيسة القديسة صوفيا فوق قطعة من قماش ، أنا ، بيدي هاتين الضخمتين . وعلقتها برقبتي ، متدلية حتى صدري ، كحجاب ، جدلتها من شعري الأسود الفاحم ، لقد كنت ارافق بافلويلاس الذي كان يحارب البلغاريين ، في جبال مقدونيا ، ويومها كنت مارداً ضخماً يزيد ارتفاعي عن هذا الكوخ . كنت ارتدي الزي الوطني ، والطربوش الأحمر . وسلسلة الساعة الفضية ، واسلحتي ، وحسامي . وقشاط الذخيرة ، ومسدساتي. كان يغطيني ، الفولاذ ، والفضة والمسامير . وكنت عندما أسير تنبعث ضجة وكأن جيشاً كاملاً يتحرك .. انظر .. انظر ...

وفتح قميصه وفك سرواله وقال بلهجة قاسية :

— قرب القنديل ! .

قربت القنديل من الجسد النحيل المسمرّ ، جروح عميقة ، واثار رصاص وسيوف . لقد كان جسداً كأنه مصفاة معدنية .

— أنظر الآن إلى ظهري .

وأدار ظهره .

— انظر إلى ظهري ، حتى ولا جرح بسيط . اتدرك ما أعنيه ، أبعد القنديل الآن .

وهمهم بغضب وانفعال :

— هراء سخافات ، يا صديقي ، إلى متى سيبقى الانسان هكذا ؟ ومتى يصبح انساناً تماماً ؟ فنحن نرتدي السراويل . والقمصان الأنيقة ، والقبعات ، إلا اننا نبقى ، حيوانات ، بغال ، ذئاب ، خنازير . فنحن كما يظهر على صورة

الرب . من ؟ نحن ؟ يا للهراء !

كان يتكلم وكأن ذكريات ، قاسية مخيفة تعود لذاكرته ، فيثور ، ويتملكه الغضب ، ويصر على أسنانه الفارغة بكلمات غير مفهومة .

ووقف ، وتناول جرة المياه ، وأخذ جرعات طويلة ، مما اطفأ قليلاً من ظمأه . فعاد الهدوء اليه قليلاً .

— اذا لمستني .. فاني اصرخ . فجسدي مغطى بالجروح والندبات . وتحدثني عن النساء !. فأنا عندما أحسست بأني رجلاً حقاً ، تركت ملاحقة النساء . فأنا ألمسهن ، لبرهة ، ومن ثم أتخلى عنهن كالديوك تماماً . فأنا أحدث نفسي « يا للخادعات الفاسقات . فهنّ يأملن أن يمتصصن كل صلبي ، أف لهنّ .. الأجدر ان تعلق مشانقهن » .

« اذن ، فقد حملت اسلحتي ، وتطوعت في المقاومة . وفي احد الأيام ، وصلت لاحدى القرى البلغارية ، اختفيت في اسطبل لمنزل راهب بلغاري . وكان هو ايضاً من رجال العصابات الأقوياء ، وحشاً كاسراً . فقد كان خلال الليل يخلع ثوبه الكهنوتي ويرتدي ثياب الرعاة ، ويتمنطق بسلاحه ويتوجه نحو القرى اليونانية . ويعود قبل الفجر ، ملوثاً بالدم والوحل ، ليقوم بصلاته . وكان قبل مجيئي اليه قد قتل معلم مدرسة يوناني وهو نائم في فراشه .

دخلت الى اسطبل الراهب ، وفي المساء دخل الراهب الاسطبل ليعلف بقرتيه فهاجمته وذبحته من الوريد الى الوريد ، وبترت اذنه ووضعتها في جيبي . اذ انني كنت وقتها اجمع الآذان البلغارية .

« وبعد ايام قليلة ، نزلت الى نفس القرية ، متنكراً بثياب بائع جوّال ، لأبتاع بعض المؤن والأحذية لزملائي . وقرب احد المنازل ، شاهدت خمسة أولاد ، في ثياب الحداد. يمسكون أيدي بعضهم يتسولون ، ثلاث بنات وولدان. لم يكن اكبرهم قد تجاوز العاشرة ، وأصغرهم كان لا يزال طفلا رضيعاً . وكانت أخته الكبيرة تحمله على صدرها وتداعبه كي لا يبكي . لا أدري كيف سألتهم ، ولا شك بأنه كان وحياً ربانياً :

— اولاد من انتم يا صغاري ؟

— اولاد الراهب الذي قتل منذ أيام في الاسطبل .

وبسرعة ملأت الدموع مقلتي . وراحت الأرض تدور بي ، فاتكأت على

الجدار . فتوقف الدوران ، فدعوتهم :

– اقتربوا يا صغاري .. اقتربوا ..

وتناولت محفظة نقودي ، كانت منتفخة بالليرات التركية والذهبية . وركعت على ركبتي وأفرغتها على الارض قائلا :

– هيا .. خذوها .. خذوها كلها .

وألقى الأطفال بأنفسهم على الارض ، وراحوا يلملمون الليرات وأنا أهتف :

– انها لكم جميعاً ..

وتركت لهم ايضاً السلة المليئة بالأغراض .

– هذا أيضاً لكم .

« وعدت لنفسي وتمالكت أعصابي ، وتركت القرية ، وخلعت حجاب القديسة صوفيا ومزقته ورميت بـه في الهواء – ورحت اركض – ولا أزال اركض حتى الآن ..

واتكأ زوربا الى الجدار ، ونظر اليّ مستطرداً :

– وهكذا تحررت ..

– تحررت من الوطن ؟

– أجل من الوطن .

وبعد قليل قال :

– تحررت من الوطن . ومن الراهب ومن المـال .. فأنا أغربل نفسي كلما تقـدم بي السن . فأنا أنظف نفسي .. كيف أشرح لك ، فأنا أتحرر لأصبح إنساناً من جديد .

كان بريق غريب يكتنف عينا زوربا ، وشفتاه الواسعتان تنمان عن ابتسامة صامتة . وبعد برهة من السكوت . عاد للكلام . فقد كان قلبه مليئاً ، ولم تعد لديه القدرة على السكوت :

– لقد مر عليّ وقت ، كنت أقول فيه ، هذا تركي ، يوناني ، بلغاري . فأنا من أجل الوطن ، قمت بأعمال شنيعة ، مخيفة . احرقت القرى ، وسبيت النساء وذبحت عائلات . لماذا ؟ لمجرد أنهم بلغار أو أتراك . فكنت كثيراً ما أحدث نفسي قائلا : فلتذهبي الى جهنم ايتها الخسيسة . ايتها الغبية » ! .

أما الآن فأقول لنفسي : « انك شجاعة وذاك جبان » . ربما كان بلغارياً

أو تركياً . فكل ما أسأل عنه اليوم . هل هو طيب أو رديء .. وأكثر من هذا ، لم يعد يهمني إن كان طيباً او شريراً . فأنا أشفق عليهم جميعاً . فعندما أرى أي انسان ، ولو نظرت اليه بعدم الاهتمام . فأنا أشفق عليه .. هل تعرف ما أقول لنفسي . أقول : « ان هـذا التعيس يأكل ويشرب ايضاً . ويحب ويكره ويخاف . وحوله ايضاً إله او شيطاناً . فهو يوماً ما سيهجر سلاحه ، وينام تحت التربة جثة هامدة ، وسيأكله الدود . يا للتعيس . فكلنا أخوة .. اخوة في لحم الدود » .

« وإن كانت سيدة ، آه ، أقسم لك بأن الرغبة بالبكاء تكاد تسيطر علي ، ان حضرتك تضحك علي وتسخر مني ، لأني أحب النساء . وكيف لا أحبهن وأعطف عليهن . فهنّ مخلوقات ضعيفة ، لا يعرفن مـا يقمن به . ويقدمن لك أنفسهن لقمة سائغة بمجرد لمسهن من أثدائهنّ » .

« مرة اخرى ، دخلت إحدى القرى البلغارية ، فرآني مختارها . وكان يونانياً خائنـاً ، فاجراً ، فأفشى سري . فطوقوا المنزل الذي كنت أنزل فيه . فأسرعت نحو السطح ، وانحدرت من سطح لآخر ، وثبـاً كأني قطة ، أسير بضوء القمر . إلا أنهم شاهدوا خيـالي ، ولحقوا بي فوق السطوح ، وأخذوا يطلقون النار علي . عند ذلك هل تعرف ماذا فعلت . رميت بنفسي في ساحة فوجدت فيها سيدة بلغارية ، نائمة بقميصها ، فشاهدتني وفتحت فاها لتصرخ . إلا انني مددت ذراعي وقلت لها بصوت خافت : « الرحمة .. الرحمة .. اسكتي ووضعت يدي على ثديها ، فخارت قواها ، وقالت بصوت يشبه الهمس :

– هيا ادخل .. ادخل حتى لا يشاهدونا ..

دخلت ، وشدت على يدي قائلة : « هل أنت يوناني » ؟

– أجل يوناني ! فلا تخبري عني .

أحطتُ خصرها بذراعي .. فلم تتفوّه بكلمة . ضاجعتها .. وكاد قلبي يثب من شدة متعتي . وقلت لنفسي : « انظر .. انظر يا زوربا الخبيث . انها امرأة . مخلوق انساني .. من هي ؟ بلغارية ، يونانية ، افريقية ؟ لا يوجد فرق أيهـا الشيخ . فهي مخلوق بشري ، لهـا فم ، وعينان ، وثديان ، وهي تحب . ألا تشفق عليها من القتل أيها اللعين ؟ »

« هذا ما كنت دائماً أردده طوال نومي معها ، ووجودي في كنف دفئها ..

إلا أن الوطن لم يتركني بهدوء . وفي الصباح تنكرت بثياب قدمتها لي البلغارية التي كانت أرملة .. فقد أخرجت من صندوقة الثياب ، بعض ملابس زوجها المرحوم وقدمتها لي ، متوسلة بأن أعود .. »

« أجل .. أجل .. سوف أعود . وعدت في الليلة التالية . كنت وقتها وطنياً الى أبعد الحدود . أي كنت وحشاً كاسراً . عدت حاملا صفيحة بنزين وأضرمت النار في القرية . ولا شك بأنها قد احترقت هي ايضاً .. على فكرة لقد كانت تدعى لورملا » .

وزفر زفرة حادة ، وأشعل سيجارة وأخذ مجتين او ثلاث ورماها .

– انك تتحدث عن الوطن . ألا زلت تؤمن بالهراء الذي تتكلم عنه على كيفك ؟

يجب ان تصدقني انا . فما دامت هناك اوطان فسيبقى الانسان حيواناً .. حيواناً كاسراً ، أجل .. وربي لقد تحررت .. وهذا كل ما في الأمر ! وأنت ؟

لم أرد عليه . فأنا أحسده على الحياة التي خبرها ، لحم ودم . يقاتل ويقتل ، ويقبّل . كل ما كنت أبذل جهدي لأعرفه من الورق والحبر . فجميع المشاكل التي كنت أحاول ان أحلها ، في وحدتي وانزوائي فوق مقعدي . قد حللها هذا الرجل ، عملياً وفي الهواء الطلق بسلاحه وسيفه .

أغمضت عيني ، بعد ان وجدت بأنه ليس من الممكن ان أجيبه ، فسألني زوربا ضجراً :

– أتغفو أيها الرئيس ، وأنا الغبي اشغلك بالحديث .

واضطجع وهو يتمتم بكلمات غير واضحة ، وبعد قليل علا شخيره . لم أقدر طوال الليل ان اغمض عيني . وملأ وحدتي بلبل كنت أسمعه للمرة الأولى ، بحزن وألم شديدين . ولم أشعر إلا ودموعي تنهمر فوق وجنتي .

شعرت بضيق شديد . وعند الفجر نهضت ورحت أتأمل ، عبر الباب ، البحر والجبال . وظهر لي كأن العالم قد تغير خلال ليلة واحدة . وبقربي فوق الرمال ، كانت نبتة صغيرة ، نمت لها عدة زهرات بيضاء ، بعد ان كانت بالأمس نبتة حقيرة دون أي زهرة . وعبق الجو برائحة زهر الليمون المنبعث من البساتين البعيدة . واقتربت ، ومشيت بضع خطوات . لم اكن أرتوي أبداً من المعجزة المتجددة أبداً .

وفجأة سمعت خلفي صوتاً فرحاً . ونظرت فوجدت زوربا قد نهض بدوره شبه عارٍ . ووثب نحو البـاب ، وراح يحدق ، باضطراب ، بالربيع الجديد . وأسرع يقول مذهولاً :

– ما هذا ، مـا هذه المعجزة ايها الرئيس . هذا ذو اللون الأزرق الذي يتماوج هناك . ماذا يسمى ، البحر .. البحر .. هذا الذي يلفه حزامـاً أخضراً مزهراً ، الأرض. من هو الفنان العظيم الذي خلقهما؟أقسم لك أيها الرئيس بأنني أراهما للمرة الأولى .

وامتلأت عيناه بالدموع ، فصحت به :

– أوه زوربا ، هل مسّك الجنون ؟

– لمَ تضحك ايها الرئيس ؟ ألا ترى ؟ انه السحر ايها الرئيس .

وأسرع خارجاً راقصاً ، ويتقلب فوق العشب كأنه مهر ربيعي . وأشرقت الشمس ، ومددت ذراعي متدفئاً . كانت الأغصان تتكوّن ، والصدور تكبر ، والروح تتفتح كأنها شجرة . والانسان يشعر بأن الروح والجسد قد خلقتـا من مادة متشابهة .

ووقف زوربا ، وقد غطى شعره التراب والندى ، وصرخ بي :

– هيا أيها الرئيس ، نسرع ونلبس ونتزين، فاليوم موعد البركة . فالوجهاء والكاهن سيأتون بعد قليل ، فاذا ما شاهدونا متسخين بالتراب . يكون عـاراً كبيراً بالنسبة للشركة . يجب ان نلبس الياقات والكرافتات . لنتنكر تحت الأقنعة الحقيقية . ليس من المهم ان يكون للانسان رأس بل قبعة فقط . أيهـا الرئيس ، ان العالم لا يستحق إلا أن نتفّ عليه .

ارتدينا ثيابنا ، وحضر العمال والوجهاء . وأمامهم جميعاً كان يسير الكاهن بثوبه الأسود . وخلفه كان يسير الوجهاء ، وأهالي القرية ، وتقدم زوربا وسار في مقدمتهم ، بعد ان قال بلهجة دينية :

– باسم السيد المسيح .

في هـذا الجو ، تسيطر على الانسان أجواء ذكريات الماضي ، ذكريات السحرة ، والشياطين والعفاريت ، والتعويذات ، كلهـا ضد الانسان ، بينما تخرج من الارض الارواح الطيبة لتقدم مساعدتها له .

وصلنا الى الحفرة التي كانت قد هُيئت لزرع اول وتـد من أوتاد المصعد .

حمل العمال غصـــن شجرة كبير ووضعوه بشكل عمودي في الحفرة . ووضع الكاهن ثيابه الكهنوتية ، وتناول مرشته . وراح يحدق بالوتد ، يرتل ويصلي : « ليكون قوياً فوق صخرة تناسب ، حتى لا تستطيع الرياح او المياه ان تقلعاه .. آمين » .

وعلت همسات الجميع :

– آمين .

وهمس الكاهن :

– ليبارككم الله وأعمالكم ، ويسبغ عليكم خيرات ابراهيم واسحق .

رجعنا الى الكوخ حيث قدّم زوربا بعض النبيـــذ وبعض أطعمة الصوم ، جمبري مشوي ، وفولاً وزيتوناً ، وبعد قليل غادر جميع المحتفلون المكان عائدين الى بيوتهم بعد ان انهوا الاحتفال الخيالي .

وهمس زوربا بعد انصرافهم :

– لقد قمنا بعمل حسن !

وارتدى ملابس العمال وتناول رفشاً صائحاً بالعمال :

– الى الأمام ايها العمال ، وارسموا اشارة الصليب .

كان العمل طوال النهار بحماسة وقوة . حيث راح العمال يحفرون حفرة كل خمسين متراً ، وكان زوربا يصدر الأوامر ، بعـد ان يقيس ويحسب . لم يتناول طوال النهار ، اي طعام او شراب حتى ولا سيجارة .

وعند المساء . بعد ان رجع من عمله . تمدد على الرمل تعباً :

– سأضطجع الليلة هنا . وعند الفجر سنعود للعمل . سأنظم فريقـاً ليعمل خلال الليل .

– ولكن لماذا كل هذه العجلة ؟

– لماذا؟ أريد ان أتأكد ان كنت قد وجدت الانحدار الكافي. فلو أخطأت. فنحن هالكون لا ريب . فكلما عجلت بمعرفته ، كانت فائدتنا اكبر .

تناول طعامه وشرابه بشراهة . وبعـــد قليل كان الشاطىء يردد صدى شخيره . بقيت انا غير قادر على النوم مدة ليست بالقصيرة ، أحدق في النجوم. كنت اشعر بأن السماء ، كما لو انها كانت تسير بكل ما تحويه . ومعها كان يسير دماغي .

- ٢١ -

وأخيراً جاء عيد الفصح . ارتدى زوربا أجمل ثيـابه ، وكذلك جورب صوفي ذو لون داكن ، صنعته له ، كما ادعى ، فتاة من بلدتـه ماسيدونيا ، وراح يتمشى بقلق وارتباك ظاهرين واضعاً يـــده فوق عينيه ليتقي اشعة الشمس ، ناظراً باتجاه القرية .

— لقد تأخرت العجوز ، القذرة ، المركب المخلع البالي ...

كنا بإنتظار السيدة هورتنس . لتشاركنا الإحتفال بعيد الفصح ، كنا قد حضرنا حملاً صغيراً شويناه على السفود ، وفرشنا مائـدة بيضاء فوق الرمال ، كما سلقنا بيضاً مصبوغاً . كنا قد قررنا في ذلك اليـوم ، بشيء من الروح المرحة ان نعد لها احتفالاً رقيقاً . لقد كان لهذه العجوز ، المعفنة قليلاً ، في ذلـــك الشاطيء البعيد ، قوة غريبة علينا ، فعندما لا تكون معنا نشعر بانه ينقصنا شيء ذو قيمة : رائحة العطر القوية ، تمايل الردفين ، اهتزازها ، وصوتهـــا المبحوح وعيناها القويتان .

كنا قد هيأنا قوس نصر من الغار والآس ، ووضعنا فوقه أعلام أربع للدول ، انكلترا ، فرنسا ، إيطاليا وروسيا . وفي الوسط وضعنا علماً أبيضاً وازرقاً ، لم يكن لدينا أي مدفع بالتأكيد ، بل كنا قد قررنا أن نطلق البنادق التي كنا قد استمرناها ، لكي نطلقها عندما تظهر العجوز تتبختر على رمال الشاطيء . احببنا ، بروح المرح ان نعيد لهذا الشاطيء بعض من امجاده الماضيـة . وتشعر هي بانها قد عادت شابة ، جميلة ، عامرة الصدر من جديد ، فما هي قيمة عيـد الفصح ان لم تبعث ببعض النـاس السرور والفرح ؟ كان زوربا لا يزال يزرع الشاطيء ذهاباً وإياباً هامساً :

— لقد تأخرت العجوز القذرة ، المركب المخلع البالي .

— تعال هنا واشعل سيجارة ، وهـــدىء من روعك . لن تتأخر أكثر

من هذا .

ورمى نظرة أخيره نحـو القرية واقترب ليجلس تحت شجرة الخرنوب ، كان الوقت قد أصبح ظهراً . وكانت أجراس الفصح تسمع من بعيد . هز زوربا كتفيه قائلاً :

– لقد مضى الوقت الآن الذي كانت روحي تبعث فيها مع روح المسيح ، ولم يبق إلا جسدي . ان ما أدعوه بعثاً حقاً هو . ثمـة من يدعونني للشراب ، فآكل وأشرب ولا يتحول الطعام والشراب إلى قاذورات فقط . بل إلى رقص وغناء ومرح .

وقف والقى نظرة نحو طريق القرية وقال عابساً :

– يوجد غلام يجري نحونا ! .

وركض بدوره لملاقاة الغلام ، توقف الصبي . وهمس شيئاً في إذن زوربا الذي صاح :

– مريضة .. مريضة ! هيا ابتعد عن نظري قبل ان أحطم رأسك .

ونظر إلي قائلاً :

– أيها الرئيس سأسرح نحو القرية لأرى ما الخبر ، ان العجوز الباليـة مريضة ، اعطني بيضتين حمراوين فسنكسرها سوية .

تناول البيضتين ووضعها في جيبه ، واصلح من وضع جواربه ومضى .

انحدرت من فوق التل لا تمدد على حصى الشاطيء ، كان الهـواء الخفيف يهب ، والبحر يتماوج بهدوء وانتظـام . بقيت هنـاك حوالي الساعة منتظراً زوربا ، الذي ظهر اخيراً ، يداعب شاربيه ، ويبدو عليه السرور .

– لقد اصيبت بالبرد ، لا تقلق ، فقـد كانت ليلياً تذهب إلى القداس من أجلي ، كما قالت ، فأصيبت بالبرد . لقـد دهنت ظهرها بالزيت الدفيء . وستترك الفراش غداً . كم هي ممتعة ! آه لو سمعتهـا تتأوه عندما دلكت لهـا ظهرها، كما لو كنت أداعبها .

جلسنا إلى مائدة الطعام ، وقال زوربا مشفقاً :

– نخب صحتك وليتأخر الشيطان بأخذها قدر المستطاع . اكلنا وشربنا ، وهذا أخذ منا وقتاً ليس بالقصير . كانت الرياح تحمل معها . الأصوات المختلفة البعيدة ، كنا صامتين ، فالمسيح كان في طريقه إلى الحيـاة ، وكل شيء ، الحمل

المشوي والكمك يتحول إلى أناشيد .

بعد ان انتهى زوربا من الطعام والشراب ، أنصت فسمع صوت الفيتار آتياً من القرية فقال :

– انه صوت الفيتار ، لا بد وانهم يرقصون في القرية .

فوثب فقد كانت الخمرة قد بدأت تلعب في رأسه :

– قل لي ، ما الذي نقوم به هنا ؟ كأننا عصافير ، هيا لنرقص ! ولا تهتم لهذا الحمل التي أكلته ؟ ستتركه ليضيع هكذا ، دون فائدة ؟ هيا اقترب لنحول الحمل إلى رقص وغناء .. فزوربا قد بعث للحياة من جديد .

– ولكن انتظر ايها اللعين .. هل مسّك شيء من الجنون ؟

– أنا لا أهتم ايها الرئيس ، ولكني أشفق على الحمل ، والبيض والكمك والجبن ، فلو اني أكلت خبزاً وزيتوناً لنمت لتوي الا ان ما أكلناه يحتاج للرقص والغناء ... هيا لنحتفل بالفصح .

– اني أشعر باني لست على ما يرام .. اذهب وارقص عني أيضاً .

مد زوربا يده وامسك ذراعي قائلا :

– انه الفصح أيها الرئيس . آه لو كنت في مثل شبابك ، لوجدتني في كل مكان لأغرف ملء كفي من الحب والخمر والنساء غير مهتم بالله أو بالشيطان !

– انه الحمل الذي يصرخ في داخلك يا زوربا ، انه الحمل ولا بد بأنه قد تحول إلى وحش .

– كلا .. ان الحمل قد تحول الى زوربا ، وهو الذي يكلمك . اقسم لك . اسمعني واحكم علي بعد ذلك . انني سندباد بحري ، ليس هذا لأني شاهدت العالم بأجمعه . كلا ، بل لأني سرقت ، وقتلت . وكذبت وضاجعت مجموعة كبيرة من النساء . بل خرقت حرمات جميع الوصيات العشر . كم أتمنى لو كان هناك أكثر من عشر وصايا لأخترق حرمتها جميعاً ، ولو أن الله كان حقيقياً ، لقمت بها أيضاً دون خوف .. فهل تظن ان الله سيتنازل ويحاسب دودة أرض مثلي ؟! ويستشيط غضباً لأننا قمنا بغلطة بسيطة . لا أظن ذلك ؟

فقلت له محاولاً اثارة حفيظته :

– ولكن الله لا يسألك ما الذي أكلته ، بل ما الذي فعلته ؟

– وأنا أقول بأنه لا يسأل هذا بالمرة . فأنا لو كان عندي ولدان ، أحدهما طيب ، والثاني رديء . لكنت قد قبلتهما وتركتهما يأكلان على مائدة واحدة ، مائدتي ، إلا انني لا أعلم لماذا افضل الثاني ، ربما لأنه يشبهني . ألا تظن باني أشبه الرب ؟ وماذا يمنع ذلك ؟ فأنا أحسن من الأب اسطفان الذي يقضي لياليه بالسجود وجمع القروش .

« ان الرب أيضاً ، يحتفل بالأعياد ، ومن ثم يقوم بالحب والظلم . ويعمل ، فهو يأكل ما يريد ويحصل على المرأة التي تعجبه مثلي تماماً . فأنت عندما ترى فتاة جميلة رائعة ، يميل قلبك نحوها ، ولكن فجأة ترتفع الأرض وتختفي الفتاة . ويسأل الجميع إلى اين ذهبت ؟ فاذا كانت عاقلة طيبة ، يقال بأن الله قد أخذها ، وإذا كانت سيئة يقال بأن الشيطان أخذها . إلا انا أيها الرئيس أقول بان الله والشيطان واحد » .

وسكت ، وشددت على شفتي محاولاً اسكات الصيحات التي كانت ستخرج من قلبي ، ولكني لم أعد أذكر ، ما هو كنه هذه الصيحات ، للفرح ، للغضب ، للخلاص . لا أعلم ذلك !

ووضع زوربا قلنسوته على رأسه بكبرياء وأمسك بعصاه ، وحاول أن يفتح شفتيه ليقول شيء ما ، إلا انه عاد ففضل الصمت . وسار نحو القرية بكبرياء وخيلاء .

رحت أتابع خطاه بعيني، تحت أشعة الشمس الغاربة . كما لو أنه مارد يتحرك من بعيد . شعرت بان الشاطىء كله قد انتعش لدى مرور زوربا ... كنت أصغي جيداً لأبقى على اتصال بوقع خطاه المبتعدة . وما ان اختفى عن ناظري حتى وثبت وكأن شيئاً في داخلي قد قرر العمل. ولكن عمل ماذا ؟ لا أدري؟. إلا ان قوة غريبة كانت تدفعني « الى الأمام .. إلى الأمام » .

ورحت أسير بخطى واسعة نحو القرية . وكنت من وقت لآخر أتوقف لألتقط أنفاسي من نسيم الربيع الجميل . وكان الجو عابقاً بأريج الأزهار الربيعية المختلفة . وخلال سيري كنت استعيد في نفسي كلمات زوربا « الخضم ، المرأة ، النبيذ ، العمل المضني ، الحب ، لا تخشى الله والشيطان . انه الشباب » . وكان تكرار هذا في داخلي يشجعني ويقويني ويجعلني قوياً على متابعة التقدم .

وفجأة توقفت عن السير ، كأنني وصلت إلى المكان الذي أقصده ، نظرت حولي فوجدتني قرب حديقة الأرملة . هناك خلف السياج يوجد صوت انثوي يتوجع ، يئن . دنوت ، ونظرت من خلال أوراق الشجر . هناك تحت مشجرة ليمون وقفت امرأة متشحة بالسواد، ما عدا عنقها العاجي، تجني أزهار الليمون منشدة . وتحت ظلال الفسق الوردي كنت أرى نصف صدرها الأبيض العاري .

تلاحقت انفاسي وخاطبت نفسي « انها وحش كاسر ... اجل وحش كاسر . وهي تعلم هذا ، يا لتعاسة الرجال ، مخلوقات متوسلة ، ضعيفة ، غبية ، لا تقوى على المقاومة . فعندما يقف الرجال أمامها ، فإنها تشبه بعض الحشرات المنكبوت ، الجرادة ، الجشعة التي لا يشبعها شيء ، والتي تأكل ذكورها عند الصباح » .

لا شك بأنها قد شعرت بوجودي ، لأنها توقفت فجأة عن الغناء ، ونظرت ناحيتي ، فالتقت أعيننا ، للحظة سريعة . شعرت بقوتي تخونني كأنني رأيت وحشاً . وسمعت صوتها آتياً من بعيد :

– من هناك .

وغطت ثدييها بمنديلها ، وتغير لونها . كدت اهرب . ، إلا ان كلمات زوربا أوقفتني ، فأجبتها :

– هذا أنا ... افتحي الباب .

وما ان خرجت هذه الكلمات من بين شفتي حتى سيطر علي خوف شديد ، وكدت أن اهرب ثانية . الا ان الحياء منعني .

– من تكون ؟

وتقدمت خطوة ، بخوف وهدوء . ونظرت نحوي بتركيز واضح واقتربت خطوة ثانية . ولمعت عيناها ، وأضاء وجهها وقالت بصوت ناعم رنان :

– الرئيس ؟!

واقتربت بعض خطى متحفزة مترصدة وكررت :

– الرئيس ؟!

– أجل !

– ادخل .

كان الصباح قد انبلج ، وزوربا قد رجع . وكان جالساً يدخن قرب الكوخ محدقاً بالبحر ، ينتظرني . وما ان رآني حتى راح يحدجني بنظرة مستوضحة ، وأخذ نفساً طويلا ، وأضاء وجهه كأنه شم رائحة الأرملة . وانتصب واقفاً ومد يديه قائلا :

— باركك الله وزوربا .

تمددت ، واغلقت عيني لانصت لهدير البحر المنتظم ، وشعرت بان روحي تعلو وتنخفض كأنها لهب قنديل . واستسلمت للنوم وللأحلام . رأيت في الحلم « فتاة سوداء طويلة جداً ، جالسة متربعة فوق الأرض ، خيل إليّ بأنها معبد يوناني قديم ، صرت أدور حولها باحثاً عن المدخل . كنت بطول اصبعها تقريباً ، وعلى حين غرة وبينما أناخلفها ، شاهدت باباً اسوداً صغيراً ، كأنه مغارة وتناهى لمسامعي صوتاً قوياً قاسياً يأمرني بالدخول . وعبرت الباب .

استيقظت عند الظهيرة ، حيث كانت أشعة الشمس تغطي الفراش كله ، وشعاعاً قوياً مسلطاً على المرآة حتى لتكاد تبعثرها الآف القطع . وتذكرت حلم الفتاة السوداء ، كان البحر يتنهد ، اغمضت عيني ، وشعرت باني سعيد جداً شعرت بان جسدي اصبح مرتوياً غير ظمىء . كأني حيوان يلحس نفسه تحت أشعة الشمس الدافئة ، بعد ان روى ظمأه وشبع من فريسته ، ومثله كان عقلي ، كانه قد أوجد حلاً لجميع المشاكل المعلقة .

كانت متعة الليلة لا تزال تفتعل داخلي ، لتشبع الظمأ الترابي الذي خلقت منه ، وتصورت وأنا ممدوداً ، مغمض العينين . بان قوتي وكياني يكبر ان ، أحسست للمرة الأولى بان الروح هي مثل الجسد تماماً لها متطلبات . قد تكون أخف وأكثرخلاصاً إلا إنها مثل الجسد.ان الجسدهو روح أيضاً ولكن قد اتعبه السير الطويل والحمل الثقيل .

أحسست بظل شخص يقترب ، فتحت عيني ، فرأيت زوربا يقف على مدخل الباب . يحدق فيّ بسرور ، فقال لي بحنان وعذوبة كأني ابنه .

— لا تنهض .. يا صغيري .. فاليوم عيد أيضاً .

— كلا .. لقد نمت الكفاية .

— سأحضر لك بيضة ... تعيد لك القوة التي أضعتها .

ودون ان أتفوه بكلمة اسرعت نحو البحر ، وغطست ومن ثم جففت

نفسي تحت أشعة الشمس ، إلا ان الرائحة العذبة كانت لا تزال تعبق في منخري . وفي كل حواسي .

فقد كانت الأرملة قد قطفت بعض أزهار الليمون والورود لتأخذها معها اليوم إلى القرية ، حيث سيحتفل القرويون بالعيد ، وكانت قد علقها قرب الأيقونة التي فوق سريرها ، حيث بدت العذراء من بينها حزينة كئيبة .

واقترب زوربا ووضع بقربي الطبق التي وضع البيضة فيه . وكذلك برتقالتين كبيرتين وقطعة من كعك الفصح . قربها لي بهدوء وصمت ، ونظر إلي مسروراً ، كالأم التي تنتبه لولدها العائد من الحرب .

وتفوه بهذه الكلمات وانصرف .

– سأزرع بضع أوتاد اليوم .

تركت لنفسي العنان لأتمتع بالطعام وأشعة الشمس . تمتعت بكل هذا كحيوان ، من قمة رأسي حتى أخمص قدمي . ولكن مع هذا كنت أحدق في هذه المعجزة الإلهية التي حولي .

وعلى حين غرة ، وقفت ودخلت الكوخ ، وتناولت مخطوطة بوذا . فقد وصلت لآخره . فقد ترك كل شيء ، وأصدر أمره للقوى الخمسة ، التراب ، الماء ، النار ، الهواء والعقل لكي تتفكك .

وأنا أيضاً لم اعد اشعر بحاجتي له ، لقد تخلصت منه . وتركت عملي مع بوذا . وأصدرت أوامري بدوري لكي يتفكك بوذا الذي بداخلي .

وبقوة وشجاعة ، مستعيناً بالصلاة والتوسل ، هاجمت الجسد والروح والعقل ، وبلا رحمة خططت الأسطر الأخيرة ، وتركت العنان للصيحة ، التي تشكل النهاية ووضعت توقيعي ، وانتهى كل شيء .

لففت المخطوطة وحزمتها بخيط متين ، بعد أن شعرت بسرور غامر . لقد فعلت كما يفعل المتوحشون الذين يربطون الموتى حتى لا يغيروا أماكنهم .

اقتربت من الكوخ فتاة صغيرة حافية القدمين ، لابسة فستاناً أصفراً ، ممسكة بين أصابعها ببيضة ملونة . وتوقفت ونظرت إلي بوجل قائلة: هل أنت زوربا ؟ لقد ارسلتني السيدة لأطلب حضورك ، انها ممددة بالسرير .

– حسناً سأذهب !

انتصبت وبدأت سيري نحو القرية ، كانت الأصوات المنبعثة من القرية

تتناهي لمسمعي شيئاً فشيئاً ، اطلاق النـــار ، القيثارة والصيحات . وعندما وصلت لباحة القرية كان الشبان والشابات قد بدأو الاستعداد للرقص. والجلوس حولهم بانتظار الرقص . وفي وسط الباحة كان عـــازف القيثارة « فانريو » واضعاً خلف أذنه وردة جميلة ممسكاً بيده اليسرى قيثارته ويجرب اوتارهـــا بيده اليمنى . فقلت صائحاً متابعاً سيري .

– قام المسيح :

– حقاً قام .

رد الجميع . والتفت نحوهم بسرعة . كانوا شباناً اقوياء مرتدين القمصان الواسعة وحول رؤوسهمَ قد ربطوا المناديل البيضاء ، والفتيات بالعقود الذهبية حول أعناقهم وعيونهم الذابلة الأخاذة .

وسألني بعضهم :

– ألا تقبل أن تبقى معنا الرئيس ؟

إلا انني كنت قد ابتعدت . كانت السيدة هورتنس ممـددة على فراشها ، القطعة الوحيدة التي بقيت لها من أثاث بيتها خدّاها تحرقهما الحرارة . القوية وما أن شاهدتني حتى ناحت قائلة :

– أين زوربا أيها الصديق .. ألم يأتي ؟

– هو أيضاً منحرف الصحة ، فمنــذ اليوم الذي عرف بانـــك مريضة ، مرض أيضا أصبح يمسك بصورتك وينظر اليها ويتحسر .

فهمست العجوز بسرور قائلة :

– تابع .. تابع ..

– كما وانه قد استلم برقية من أثينايعلموه فيها بأن ملابس الزفاف قد جهزت، وقد أرسلت فعلاً بالبحر ...

– أرجوك تابع ... تابع ...

كان الكرى قد بدأ يغلبها ، فتغير انتظام تنفسها وراحت تهـذي . كانت رائحة الكولونيا تهيمن على الغرفة . ومن النافذة كانت تأتي روائـــح الدجاج والأرانب .

انتصبت وخرجت من الغرفة . وعند العتبة ارتطمت بميميتو . فهـــذا اليوم كان يلبس ثياباً جديدة وحذاء لماعاً . وقد تزين بوردة بيضاء وضعهـــا

خلف أذنه .

— ميميتو .. اركض نحو قرية « كالو » واحضر الدكتور .

خلع ميميتو حذائيه لكي لا يهترئان من السير ووضعهما تحت أبطه .

— اذهب واطلب من الطبيب الحضور . كما أخبره بأن يسرع وان يركب مطيته فالسيدة مريضة جداً ، قل له بانها اصيبت بالبرد .. وانها قد تموت .

— هيا .. هوب إني ذاهب .

وبصق في كفيه ، وصفق بسرور ، إلا انه بقي مكانه .

— اركض .. اركض .

إلا انه نظر إلي نظرة خبث وقال :

— أيها الرئيس لقد أحضرت لك هدية ، زجاجة ماء الزهر .

وصمت لحظة لكي أسأله عن المرسل . إلا انني التزمت بالصمت فأردف .

— ألا تريد ان تسأل عن مرسلها ، انها تقول بانك يجب ان تضعها على شعرك لكي تصبح رائحة رأسك طيبة .

— اركض .. هيا بعجلة وصمت .

وضحك وبصق في كفيه ثانية وصاح ثانية !

— هوب .. قام المسيح .

واسرع مختفياً .

- ٢٢ -

كان الرقص قد بلغ ذروته احتفالاً بالفصح . وكان يقود الراقصين ، شاب اسمر في حوالي العشرين من عمره ، مرتدياً قميصاً فضفاضاً ، يكشف عن صدره الكثيف بالشعر . كأن رأسه منتصباً ، وقدماه تضربان الأرض وترتفعان كأنهما اجنحة طيور . وكان بين الفينة والفينة يرمي الفتيات بنظرة ، فتتلألأ عيناه .

كنت عائداً من منزل السيدة هورتنس . شعرت بانتعاش قلق ، بعد ان طلبت امرأة لتعتني بالعجوز . والآن أحاول ان اشارك الكريتيين احتفالهم بالعيد شاهدت العم اانيوستي فأقتربت منه وسألته بصوت خافت .

– من هو هذا الشاب الذي يقود الراقصين ؟

– انه أخاذ ، كالملاك ، يا له من لعين ، انه سيفاكس الراعي ، طوال أيام السنة يهتم بغنمه ، وفي عيد الفصح يأت للقرية للرقص ولمشاهدة الناس .

كان يتكلم عنه بإعجاب بادٍ . وبعد قليل اردف متنهداً :

– كم اتمنى لو ان لي مثل شبابه ! اقسم لك لكنت ترأست الهجوم على القسطنطينية .

وحرك الشاب رأسه بقوة ، وعلت منه صيحة وحشية ، كأنه خروف لمح انثاه ، وقال :

– هيا اعرف يا فانريو ، اعزف حتى يهلك الهلاك !

كان الهلاك يهلك كل لحظة ، ومن ثم يعود للحياة من جديد ، فمنذ الآف السنين ، كان الشبان والشابات يرقصون تحت الأوراق الصفراء ، في نفس المكان تحت اشجار الصفصاف . وسيرقصون لمدة الآف من السنين القادمة أيضاً .

ورفع الشاب يده ليداعب شاربه قائلاً .

– هيا اعزف يا فانريو اعزف وإلا فرقعت !

ولعبت اوتار القيثارة وتلوت ، ووثب الشاب في الهواء على علو مترين ،

والتصقت قدماه وعلت حتى لرأس احد رفقائـــه ، فعلت الصيحات مشجعة مستحسنة :

– سيفاكس .. سيفاكس .

وارتعشت الفتيات وكففن عن التحديق . وتابع الشاب الرقص واضعاً يده على خصره ، وعينيه تحدق بالأرض حياء .

وفجأة كف الجميع عن الرقص ، فقد حضر العجوز اندروليو ، منادياً وصائحاً وبالكيد يستطيع ان يلتقط انفاسه :

– الأرملة ! لقد ظهرت الأرملة !

كان أول من فرق الجلسة واندفع بين الرقصين هو مانولاكس توقف جميع الراقصون : وقد غلى الدم في عروقهم ، وانتصب الجميـــع منتظرين وترك فانريو قيتارته ، وتناول الوردة من خلف أذنه ليشتم رحيقها . وصاح الجميع متسائلين :

– أين هي ؟ ... أين الأرملة ؟ .

– انها هناك في الكنيسة حيث أخذت باقة من زهر البرتقال .

فصاح مانولاكس شاقاً طريقه بينهم :

– هيا أيها الأصدقاء .

في هذا الوقت بدت الأرملة على عتبة الكنيسة . بعـــد ان عقدت رأسها بعصابة سوداء . رسمت إشارة الصليب .

وعلت الأصوات من الساحة :

– مجرمة .. تعيسة ! فاسقة ! كيف تجرؤ على المجيء ، التي البست القرية العار والشؤم .

هرع بعضهم نحو الكنيسة يلحقون بما نولاكس . وبدأ البعض الآخر يرشقها بالحجارة . اصابتها واحدة ، فأطلقت صرخة مؤلمة . فخبأت وجهها بيديهـا ، واحنت رأسها محاولة الهروب . إلا ان الشبان كانوا قـــد وصلو باب باحة الكنيسة ، وسحب مانولاكس سكينه .

عادت الأرملة ادارجها ، وهي تصيح صيحات حادة مؤلمة ، محاولة الاحتماء بالكنيسة . إلا انه على عتبة الكنيسة ، كان قـد انتصب العجوز مافراندوني واضعاً يديه فوق صدره .

وثبت الأرملة شمالاً . واحتمت بشجرة السرو ، واصيبت بحجر على وجهها ، انشق منديلها وانفكت عقدة شعرها وانسبل شعرها الفاحم فوق كتفيها .

وعلا صوتها حاداً ، قوياً ، موجعاً .

– اكراماً للرب . اكراماً للرب .

كانت الفتيات تقفن صفاً واحداً ، يتشبثن بمناديلهن بانتظار وحشي . والعجائز ، يحدقون صارخين .

هجم عليها شابان وامسكاها ، تمزقت سترتها ، واندلق صدرها العاجي ، الأبيض الناصع خارجاً ، كانت الدماء تغطي وجهها وعنقها . وكانت لا تزال تصيح برعب وخوف :

– اكراماً للرب .. اكراماً للرب .

وصرخ مانولاكس :

– اتركوها انها لي !

ورفع مافراندوني يده ، فتوقف الجميع وخيم السكون . وقال :

– مانولاكس . ان دماء ابن عمك تستصرخك ، فأمنحه الراحة .

وهرعت من فوق السياج نحو الكنيسة إلا انني تعثرت وانكفأت على وجهي وفي هذه اللحظة مرّ بقربي سيفاكس فأمسكني من جلد ظهري واوقفني بسخرية قائلاً :

– ما الذي تحاول أن تقوم به ، ايها الارستقراطي الساذج ؟ ابتعد من هنا .

– ألا تعطف عليها ... ارحمها .

فعلت قهقهته الوحشية المجردة من كل ما يمت للانسانية :

– انني لست بإمرأة حتى اعطف عليها، فأنا رجل !

وبوثبة واحدة وصل ساحة الكنيسة ، حيث اسرعت خلفه . كان الجميع قد شكلوا حلقة حول الأرملة ، كان سكونا ثقيلاً مرعباً يخيم على المكان ، ولم يكن يسمع سوى انفاس الضحية المتلاحقة .

رسم مانولاكس علامة الصليب . رفع سكينه ، كانت العجائز يحدقن به بفرح والشابات غضضن من انظارهن وغطين وجوههن بمناديلهن .

رفعت الأرملة رأسها ، فلمعت السكين تحت أعينها ، فشخرت كبقرة . وارتمت حتى اسفل الشجرة ، وادخلت رأسها بين كتفيها ولامس شعرها الأرض

وظهر بياض عنقها الناصع .

وصاح العجوز مافراندوني ، رأسماً اشارة الصليب .

— انني أطلب قصاص الرب .

وفي نفس اللحظة ارتفع صوتاً فجاً من خلفنا :

— اترك سكينك أيها المجرم .

ونظر الجميع نحو مصـــدر الصوت ، وانتصب رأس مانولاكس . كان زوربا ... منتصباً غاضباً وصاح متابعاً :

— ألا تستحي ... يا للقوة ... قرية كاملة للفتك بإمرأة ... سيكون هذا عاراً لكريت كلها .

فصاح مافراندوني :

— لا تتدخل في شئوننا يا زوربا ... اهتم بأمورك الخاصة ! .

والتفت نحو مانولاكس مستطرداً :

— مانولاكس ... باسم الرب اقتلها .

أمسك مانولاكس الأرمـــلة ، ورفـــع سكينه ، وركع فوق بطنها ، إلا ان زوربا ، وبسرعة كبيرة أمسك بذراع مانولاكس ، وراح يحاول بيـــده التي لفها بمنديل ان ينتزع من السكين .

كانت الأرملة قد ركعت على الأرض ، وراحت تنظر حولها باحثة عـــن طريق للهروب . إلا أن القرويين كانوا قد سدوا جميع المنافـــذ ، وعندما شعروا بنظراتها الباحثة تقدموا خطوة أخرى وضاقت الدائرة .

كان زوربا يقاتل بسكون وقوة أعصاب . وكنت أراقب سير القتال بإهتمام ووجل . تغير لون وجه مانولاكس من الغضب ، واقترب شخصان ، أحدهما سيفاكس والثاني عظيم الجثة لمساعدته ، إلا ان مانولاكس اشار اليهما بعينه ان يبتعدا صائحاً :

— أرجعوا .. لا أحد يقترب .

وهاجم زوربا ثانية ونطحه برأسه . كاد زوربا يقضم شفتيه من شدة الألم ، إلا انه ظل ممسكاً بيد حارس الغابة بقوة ، ويحاول قدر الامكان تجنب نطحات خصمه . وأمسك مانولاكس بأذن زوربا بين اسنانه ، وراح يعضها بكل قوته . وبدأ الدم ينزف .

فأندفعت محاولاً انقاذ زوربا ، إلا انه صاح بي :
– لا تقترب أيها الرئيس ... دع الأمر لي ! .

وجمع قبضته ولـكم خصمة لكمة قوية على أسفل بطنه ، فانهارت قـوة مانولاكس فجأة وارتمى أرضاً ، بعد ان ترك إذن زوربا ، عقب ضربه ثانيـة من زوربا . تناول زوربا السكين وكسرها ورمى بها إلى الأرض .

تناول منديلة وضعه على أذنه ليمنع النزيف ، ومسح العرق على وجهه ونظر إلى الأرملة المذعورة قائلا :
– قفي .. وتعالي معي ..

وسار بإتجاه باب الساحة ، وقفت الأرملة الخائفة ، بعد ان جمعت ما تبقى من قواها ، وهمت بالسير ، عندما اندفـع نحوها مافراندوني الأب وانقض عليها ، فأرتمت على الأرض وامسك شعرها ولفه على يده ، وأطاح برأسها بضربة سكين واحدة . وصاح بقوة :
– لتكن هذه الخطيئة على ذمتي !

تناول رأس الأرملة وألقي به على عتبة باب الكنيسة ورسم إشارة الصليب. التفت زوربا ، غاضباً مزمجراً ، شاداً على شاربيه ، فأسرعت نحوه وأمسكت بذراعه ، رماني بنظرة قاسية . واغرورقت عيناه بدمعتان كبيرتان وقـال بصوت لاهث وخافت :
– لنذهب أيها الرئيس ،

في تلك الأمسية لم يأكل زوربا شيئـاً ، بل كان يقول « ان حلقي جاف لا استطيع أن أدخل به أي شيء » . نظف اذنه وضمد الجرح بعد أن مسحه بقطنة مبللة بالعرق . وجلس على سريره واضعـاً رأسه بين يديه ، مفكراً ، متأملا :

استلقيت على الأرض ، متكئاً إلى الجدران ، وشعرت بالدموع تتسلل من من مقلتي ، دافئة ، جزعة . كان تفكيري متوقفاً ولم أكن أفكر بأي شيء . لقد سيطر علي حزن طفولي غريب ، وغرقت بالدموع .

وعلى حين غرة رفع زوربا رأسه صائحاً بصوت وحشي ، قاسي ، منبعث من أعماق وجدانه :
– كم قلت لك بأن كل ما يجري على الأرض غير عادل .. غير عادل .. أنا

دودة الأرض زوربا ... الحلزون . لا أقر . بهذا . لماذا يجب ان يقتل الشبان ؟ البقايا البالية ؟ لماذا يموت الصغار ؟ كان لدي ولد صغير ، ولدي ديمتري ، ومات وهو لا يزال في الثالثة من عمره ، لن أغفر هذا للرب أبداً .. هـــل تسمعني ؟ أبداً .. أبداً .. ! وعندما أموت ، وان كان الرب له الشجاعة ليقابلني ، وأن كان رباً حقاً ... فسوف يستحي من لقائي .. أنا زوربا الحلزون !

وشد على اسنانه حتى بانت انيابـه ، كأنه أصيب بألم مفاجىء . وبـــدأ الدم ينزف من جرحه ثانية . فقلت منفعلاً :

— اقترب يا زوربا ... سأضمد لك الجرح .. !

ونظفت الجرح بالعرق ثانية ، وتناولت مـاء زهر الليمون ، الذي أرسلته الأرملة ، والذي وجدته فوق فراشي ، وبللت قطعة قطن . فشم زوربا رائحة زهر الليمون فقال :

— ما هذا ، زهر الليمون ؟ صب منه فوق رأسي .. هكذا .. أجـــل هكذا .. وقليلاً على يدي .. حسناً ..

شعرت بان الحياة قد رجعت له ، نظرت متسائلاً ، فقال :

— اني أشعر باني ادخل حديقة الألم الأرملة :

وعاد للكلام المؤلم ، الحزين رائياً الأرملة :

— كم من الوقت ... كم من الوقت أخذت الأرض حتى استطاعت ان تخلق مثل هذا الجسد ؟ ! ان من كان يراها يتمنى محدثـــاً نفسه « ليتني كنت في العشرين ، انا وهي وحدنا على الأرض ، لننجب الأولاد .. كلا ليس أولاد ... بل آلهة أبطال » ... أما الآن ...

وقفز على قدميه ، وقد ملأت عيناه الدموع :

— لا أحتمل هذا أيها الرئيس ، يجب ان أتسلق الجبل صعوداً وهبوطـــاً مرتين أو ثلاثة لأتعب ، ولتهدأ نفسي .. أيتها الأرملة اللعنية .. ان نفسي تحدثني لكي انشد لك قصيدة ! ...

وأسرع خارجاً نحو الجبل ، وأختفى في العتمـة . استلقيت على سريري ، ورحت كمادتي المخزية ، اغربل الواقع ، لأضع كل على حــــده ، الدم ، اللحم والعظم ، واحوله إلى مجرد فكرة ، ولألصقه بقوانــــين الطبيعة لأخرج بنتيجة واحدة هي ان كل ما حدث ، كان يجب أن يحدث ، وان هذا كان كل العدل .

وجاء دور قتل الأرملة ليدخل إلى خلية عقلي ، حيث كل ما يدخل هناك

من سم" يتحـول إلى عسل طيب ، وتشبثت مخيلتي بهـذا التهديد المرعب ، وشكلت حوله طبقة كثيفة من الصور والألفاظ لتجعله عاجزاً عـن الحركة . هكذا تشكل النحلة غلافاً حول عسلها ، حتى لا تلتهمه الدبابير .

وبعد ساعات قلائل كانت الأرملة ترقد في عقلي ، هادئة ، مبتسمة . بعد ان تحولت إلى قطعة من قلبي مغلفـة بالشمع . لكي لا تبعث الرعب والخوف في روعي . أن جرماً كبيراً ارتكب في أحد الأيام ، كان يكبر ويتسع عبر الزمان والمكان ويمتزج بالمدنيات الضخمة الغابرة ، وتمتزج المدنيـات بمصير الأرض ، والأرض بنهاية الكون . وهكذا عندما رجعت للأرملة ، ألفيتها قـد خضعت لنظم الطبيعة القاسية وقد اتفقت مع ذاتها ، وجلست هادئة ، ساكنة .

لقد عاد الزمن ليرى في نفسي كنهه الحقيقي . فالأرملة قد ماتت منذ الآف الأعوام ، في أيام مدنية بجرايحه ، وماتت أيضاً فتيـات « كنوسوس » عاصمة كريت القديمة وذات الشعر المجعد ، هذا الصباح على نفس الشاطيء .

وغلبني النعاس ، كما سيغلبني الموت ذات يوم ، فـأنا لا أشعر بشيء مؤكد الوقوع أكثر من هذا ، وغبت في متاهات الظلمات بهدوء وبطء . لم أعـلم متى رجع زوربا أو متى دخل ! فعند الصباح وجدته فوق الجبل ، يصيـح بالعمال ويحثهم على العمل .

لم يكن راضياً عما فعله العمال . فصرف ثلاثة منهم حاولوا مجادلته ، وتناول المعول بيده ، وبدأ يحفر الطريق الذي رسمه من أجل الأوتاد الخشبية ، ارتقى منحدرات الجبل ، فشاهد الحطابين الذين كانوا يقطعون أشجار الغـابة ، فصاح بهم ليسرعوا ، فتمتم أحدهم وابتسم فأنقض عليه زوربا معنفاً .

رجع في المساء متعباً منهوك القوى ، ملطخ الثياب . وجلس على رمـل الشاطيء بقربي . كان يجد صعوبة كبيرة في أن يحرك شفتيه إلا انه عندما تكلم أخيراً ، حدثني عن الخشب والعمال والبنـاء والفحم . كأنه متعهد عصامي ، يحاول أن يكسب من هذه العملية أكبر قـدر ممكن بأقـل وقت . ليسرع بالهرب .

كانت حالة محزنة تسيطر على حواسي وأعصابي ، فحاولت ان افتـح فمي لأكلمه عن الأرملة ، إلا انه مد يده الضخمة قائلا :

ــ لا تتكلم ! ...

إذعنت له ، حيـــاءً ، وخاطبت نفسي ، وأنا أشعر بالحسد من زوربا على حزنه وألمه « انه الإنسان الحقيقي ، انسان تجري الدماء في عروقه حـــارة ، عظامه قاسية ، تتسلل دموعه دافئة حين يشعر بالحزن والألم . وفرحـــه يبقى صامداً قوياً ، باقياً مهما مر على غربال الميتافزيقية .

قضى زوربا ثلاثة أيام على هذا المنوال ، يعمل بجهد ، دون كلل ، ودون طعام أو شراب أو كلام . فقد كان يذوب ألماً . وفي احدى الأمسيات قلـت له بان السيدة هورتنس مريضة جداً ، وتحتقر وتلفظ اسمه في أيامها الأخيرة . كما ان الطبيب لم يحضر ..

– حسناً ... !

وفي صباح اليوم التالي ، توجه إلى القرية وعاد سريعاً . فسألته :

– هل شاهدتها ؟ كيف حالها ؟

– لا تشعر بشيء ، سوف تموت ! .

واسرع نحو الجبل بخطى واسعة . وفي ذلك المساء ، أخذ عصاه دون ان يتناول طعامه ، وخرج : فصحت به :

– أنت ذاهب إلى القرية يا زوربا ؟

– لا ... بل سأقوم بجولة ، ثم أعود !

وراح يمشي باتجاه القرية بخطى واسعة وقوة . أما أنا فقـــد كنت منهوك القوى فاستلقيت على السرير ، وراح عقلي يجتر صورة الأرض الحزينـــة ، والذكريات الأليمة ، وراح عقلي يطير بعيداً فوق أبعد الاحتمالات . وعـــاد ليحط فوق رأس زوربا .

رحت أخاطب نفسي بجزع « لو رأى زوربا في طريقه مانولاكس ، فان هذا الأخير المجنون سوف ينقض على زوربا ، فهو قد بقي عدة أيام يتألم في بيته . ولم يخرج مطلقاً لخجله من الظهور في القرية ، وقـــد هدد أكثر من مرة بانه لو صادف زوربا فسيمزقه إرباً . وقد شوهد مرة يحوم حول الكوخ وهو مسلح ، إذا التقيا هذا المساء ، سوف تحدث مقتلة » .

قفذت من سريري ، ووضعت علي ثيابي ، وخرجت مسرعاً نحـــو طريق القرية . كانت رائحة القرنفل البري تعبق في جو الليل الهادىء العذب ، وبعـد قليل شاهدت زوربا من خلال العتمة الشفافة . كان يسير ببـطء كأنه تعب .

وكن بين الفينة والفينة يتوقف لينظر إلى النجـوم ، ثم يسير مسرعاً ، فأسمع وقع أقدامه الممتزج بصوت عصاه فوق الحصى .

واقترب أخيراً من حديقة الأرملة . حيث كان الجو عابقاً برائحة زهر الليمون وأزهار العسل . وفي هذه اللحظة ، علا من بين الاشجار صوت بلبل ، كئيب ، حزين . كانه صوت انسياب المياه . كان يغني عبر العتمة حتى ان انفاس كل من يسمعه تكاد تتقطع . وتوقف زوربا فجأة فقد شعر هو بهذا الألم وهذه العذوبة .

وفجأة تحركت قضبان القصب ، وعلا صوت أحدّ من الفولاذ :

– أيه أيها العجوز الغبي ، لقد التقيت بك أخيراً !

وتجمدت في مكاني ، لقد عرفت صاحب هذا الصوت ، على ضـوء النجوم الباهت كنت أشاهد حركات زوربا . تقـدم نحو القصب قليلاً ورفـع عصاه وتوقف .

ووثب شاب ضخم الجثة ، مبتعداً عن القصب . وصاح زوربا محاولاً معرفة هويتـه :

– من انت ! ؟

– مانولاكس :

– هيا اذهب في طريقك .

– لقد جلبت لي العار يا زوربا .

– لست أنا من جلب العار لك . انصحك بان تذهب ، فانت شاب قوي ، إلا ان الحظ أراد ذلك ، إنه أعمى ألا تعلم ذلك ؟

فشد مانولاكس على اسنانه صائحاً :

– حظ أو غير حظ ، اعمى أو « مفتـّح » فأنا مصمم على ان اغسل عاري . وهذا المساء أيضاً . هل معك سكين ؟ .

– لا .. ليس معي إلا العصا ! .

– إذهب وأت بسكينك ، فسوف انتظرك .

إلا ان زوربا ظل واقفاً ، فصاح مانولاكس ساخراً :

– هل انت خائف ؟ هيا إذهب .

وكان الغضب قد بدأ يتملك زوربا !

– وماذا افعل بالسكين ؟ قل لي ماذا أفعل بها ؟ هل نسيت هنـــاك في

الكنيسة ؟ لم أكن أحمل سكين ، وكان معك واحدة . ومع هذا استطعت أن أتدبر الأمر تماماً .

فصاح مانولاكس غاضباً :

— أتهزأ مني أيضاً ؟ لقد اخترت المكان المناسب لمثل هذا ، فأنا مسلح وانت لا . هيا أذهب وأحضر سكينك أيها المقدوني القذر .

— أرمي بسكينك ، وسأرمي عصاي ، وعندها نرى من هو الأقوى ، هيا ألقي بها أيها الكريتي القذر ! .

ألقى زوربا بعصاه ، واستطعت ان اسمع سقطتها فوق الحصى . وصرخ زوربا ثانية :

— هيا القي بسكينك .

وتقدمت على أطراف اصابعي ، ببطء وسكون وهدوء ، وتحت بريق النجوم استطعت أن اشاهد بريق نصل السكين التي سقطت على الأرض . بصق زوربا بين يديه وصاح وهو يثب :

— هيا تشجع !

ولكن قبل ان يلتحم الاثنان ، وبقفزة واحدة ، استطعت ان أقف بينهما صائحاً :

— توقفا ! اقترب يا مانولاكس ، وأنت أيضاً يا زوربا ... ألا تستحيان ؟ .

اقترب الخصمان بخطى وئيدة حذرة . وأمسكت باليد اليمنى لكل منهما :

— هيا ضما أيديكما بأيد بعض فأنتما الاثنين شابان شجاعان .

حاول مانولاكس أن يسحب يده قائلا :

— ولكنه جلب لي العار ...

— ليس من السهولة أن يجلب لك العار يا صديقي فالقرية بأجمعها تشهد بشجاعتك . لا تهتم لما حدث في الكنيسة ، فقد كان يوم نحس ، وقد فات ما فات . ويجب أن تتذكر بأن زوربا غريب ، مقدوني ، وانه من العيب علينا نحن الكريتين ، أن نقاتل ضيوفنا ، هيا قرب يدك ، هذه هي الشجاعة الحقة . ولنذهب سوية إلى الكوخ ، لنحتسي كأساً من النبيذ ونشوي بعض النقانق عربوناً على الصلح والصداقة . هيا يا مانولاكس ! .

احطت خصر مانولاكس بذراعي وسحبته بعيداً قليلاً ، وهمست في أذنه :

– انه عجوز ، هذا المسكين . ولا يجوز أن يقاتله شاب في مثل قوتك ! .
هدأ مانولاكس قليلا وقال :
– هذا من أجلك أنت ..
واقترب من زوربا خطوة كبيرة ومد يده الضخمة قائلا :
– هيا أيها الرفيق زوربا ... انها وقائع قديمة ، أشياء منسية .. مد يدك .
– لقد كدت تقطع اذني .. خذ هذه يدي ! .
والتقت اليدان ، طويلا وبقسوة . وشدا بقوة فظيعة كأن كل منهم يختبر قوة الآخر . فخشيت ان يلتحما من جديد . وقال زوربا اخيراً :
– انت قوي جداً يا مانولاكس وتشد بقوة أيضاً !
– وأنت أيضاً تشد بقوة . هيا شدّ أكثر لنرى ان كنت قادر على هذا .
فصحت بهما :
– هذا يكفي .. هيا بنا لنعزز صداقتنا .
وتوسطتهما زوربا على يميني ومانولاكس على يساري . واستدرنا عائدين إلى الكوخ . وقلت محاولاً تغيير الجو :
– ان المواسم ستكون جيدة هذا العام .. فقد سقط مطراً وافراً .
إلا الى أحداً منهم لم يجب فقد كان الغضب لا يزال كامناً في صدريهما . وكان أملي الأخير هو النبيذ . ووصلنا أخيراً إلى الكوخ . فقلت مرحباً بمانولاكس :
– أهلاً بك في كوخنا يا مانولاكس . زوربا حضرّ لنا بعض النقانق المشوي ، وأملأ ثلاثة أقداح من الخمر .
ورفعت كأسي قائلا :
– في نخب صحتكما ، نخب صحتك يا مانولاكس ، وصحتك يا زوربا ، هيا اقرعا الكوؤس» . وقرعت الكوؤس ، وصب مانولاكس بضع قطرات من الخمر على الأرض وقال :
– لينزف دمي مثل هذا الخمر ، إذا رفعت يدي عليك يا زوربا .
وفعل زوربا مثله وقال :
– لينزف دمي أنا أيضاً ،ان لا زلت أذكر بان اذني قد قطعت يا مانولاكس.

- ٢٣ -

وفي الصباح الباكر ، جلس زوربا على فراشه وناداني :

– هل ما زلت نائماً أيها الرئيس ؟

– هل حدث شيء يا زوربا ! .

– لقد شاهدت حلماً غريباً . واعتقد بانني سوف أقوم برحلة قريبا جداً . اسمع ما شاهدت وستضحك . كان يوجد هناك في الميناء باخرة كبيرة تطلق صفاراتها إيذاناً بالرحيل وكنت أنا مسرعاً لأستطيع ان الحق بها ، حاملاً بيدي قفص ببغاء . ووصلت وصعدت إلى الباخرة . إلا ان القبطان اعترضني: سائلاً عن التذكرة ، فأخرجت محفظة النقود وسألته « كم » فأجاب بانه يريد الف دراخمة فحاولت مساومته لتنزيل المبلغ فأصر على الألف عندها قلت له : « اسمع أيها الشيخ ، خذ ثمانماية من أجل مصلحتك وإلا سأستيقظ وتخسر كل المبلغ » .

وانقلب مقهقهاً ، وصاح بذهول :

– يا لهذا الانسان من مخلوق مضحك ! تملأ نفسك بالخبز ، والفجل والطعام ، فتتحول جميعها إلى تنهدات وقهقهة وأحلام ، انه مصنع .

وقفز زوربا من على فراشه صائحاً بقلق :

– ولكن لماذا كنت أحمل الببغاء ؟ أخشى ان...

وقبل أن ينهي جملته ، اقتحم الباب ولد صغير صائحا :

– ان السيدة المسكينة ترجوكم ان تسرعوا باحضار الطبيب ، فهي على وشك الموت .

وغمرني خجل فظيع ففي هذا الخضم الذي وضعتنا فيه الأرملة نسينا تماما السيدة هورتنس . وتابع الولد بمرح :

– انها تسعل وتكح ، وهذا يجعل من فندقها يهتز بأكمله ، انهـــا تسعلُ كحمار .. أوه .. أوه ان القرية كلها تهتز ...

فصرخت به « لا تضحك .. لاتهزأ .. اصمت » وتناولت ورقـــة وكتبت ملاحظة وقلت له :

– خذ هذه الورقة واسرع الى الطبيب ، ولا تتركه قبـــل ان تراه يمتطي بغله .. هل فهمت ؟.

تناول الرسالة ووضعها في جيبه وركض . كان زوربا قد سبق له ونهـــض ووضع عليه ملابسه . طلبت منه ان ينتظر لآتٍ معه . فأجاب بأنه مستعجلاً . واسرع مهرولاً . وبعد قليل كنت بدوري اتجه نحو القرية .

مررت قرب حديقة الارملة فوجـــدت ميميتو جالساً على السور . فسألته ناظراً إلى الحديقة بألم « ما الذي تفعله هنا » .

– وعاد لذاكرتي دفء ذراعيها،وخيمت على المكان رائحة الليمون .تخيلت عيني الأرملة المتوقدتين بالشهوة . وأجاب ميميتو :

– لماذا تسأل انتبه لأعمالك !

– هل تريد سيجارة ؟

– كلا ... فأنا لم أعد ادخن ، فكل الرجال انذال . . كلكم ... انذال ، محتقرون ... مجرمين .

وكأنه وجد التعبير الذي تمناه دائماً وراح يكرر بصوت عالٍ « مجرمين ... مجرمين ... » وانفجر مقهقهـاً . شعرت بانقباض واسرعت الخطى متمتماً « كل الحق معك يا ميميتو ... »

وفي أول مدخل القرية شاهدت العم انانيوستي ، ومـا ان لمـــح ظلي على الارض حتى قال :

– ما الذي جاء بك باكراً هكذا .؟.

إلا انه شعر بنظرتي القلقة فأردف قائلاً :

– يجب ان تسرع يا ولدي ، من يدري ؟ هل ستجدها ميتة أو حية ؟

كان السرير الكبير ، رفيق السيدة قد وضع في وسط الغرفة وفوقه الببغاء الاخضر الذي رافق السيدة منذ زمن بعيد. كان محنياً رأساً محاولاً التكهن. فالتنهدات التي كانت تصل لأذنه لم تكن نفسها تنهدات الحب والشهوة التي تعود سماعهـا.

كانت تشنجـــات الألم وزحف الموت البطيء . كانت عيناه تتسمان ويهـــم بالصياح . إلا أن صوته بدا مخنوقاً .

كانت العجوز ، تتلوى وتتنهد متألمة . ورائحة العرق واللحم تفوح منها . ومن تحت الأغطية بدا نعلها البالي ، والذي كان منظره يبعث فيك الحزن أكثر منها هي . كان زوربا جالساً فوق رأسها محدقاً بالنعلين . كان ممسكاً شفتيه بـين أسنانه لمنع نفسه من البكاء . دخلت ووقفت خلفه إلا انه لم يشعر بدخولي . كان ممسكاً بيده مروحة يهوي بها فوق وجهها ليخفف عنها حدة الألم وليسهل لهـا تنفسها الذي كان يخف رويداً رويداً .

فتحت عينيها برعب ، ونظرت حولها . فقد كان كل شيء مظلماً بالنسبة لها حتى انها لم تستطع أن تميز أي شخص ، وحتى زوربا الذي كان ممسكاً بقبعتها المغطاة بالأزهار .

كان كل ما حولها يبعث على الخوف والقلق . وغرزت اصابعهـا في الوسادة المغطاة بالدموع والعرق وعلت منها صيحة ألم يائسة :

– لا اريد ان اموت .. لا اريد ان اموت !.

في هذا الوقت كانت نواحتي القرية قد سمعتا بحالتها وجـاءتا وجلستا قرب الجدران . فشاهدهما الببغاء ، فصاح غاضباً . وحاول ان يصيح باسم كانافـارو إلا ان صوته اختنق من جديد . وعاد للهدوء . في هذه اللحظة مـد شابان اسمران رأسيهما من باب الغرفة وتهامسا ، وبدا بأنهما قد اتفقا على شيء . واختفيا وبعد برهة علا صوت الدجاج كأنه كان يوجد من يطاردهم .

ونظرت إحدى الندابات نحو رفيقتها قائلة بصوت خافت :

– ارأيت ايها الأخت لينيو ..؟ انهم مستعجلين ، كأنهم جيـاع سوف يقتلون الدجاجـات . ان كل فقراء القرية قد تجمعوا في ساحة الحديقة . وبعد قليل سيبدأوا بجمع ما يستطيعون جمعه .

ونظرت نحو السيدة العجوز الممددة وقالت بنفاذ صبر :

– هيا موتي أيها العجوز ... لنستطيع ان نأخذ شيء نحن أيضاً .

فأجابتها الثانية ، بعد ان زمت شفتي فمها التي اختفت اسنانه :

– لأقول لك الحقيقة كانت والدتي تنصحني قائلة « إذا كنت تريدين أن تأكلي فاسرعي وتناولي ، واذا كنت تريدين ان تتملكي فاسرقي » . هيا لنسرع

نحن بالأخذ أيضاً ، لنحصل على قبضة من الرز والسكر . وللندبها . فهي ليس لها لا أطفال ولا أهل . إذن من الذي سيأكل الدجاج والأرانب ؟ اني اقر لك، وليغفر لي الله ، باني أود ايضاً ان آخذ قدر ما استطيع .

– انتظري قليـــلاً .. فأنا عندي نفس الفكرة أيضاً ، ولكن دعيهـــا تموت أولاً .

في هذا الوقت كانت السيدة العجوز تتقلب وتئن . تناولت صليباً كبيراً من تحت وسادتها بعد ان احست بدنو أجلها . لقد كانت قـد نسيت الصليب طول عمرها أما الآن ، وكأن المسيح دواء يعيد الحياة ، أمسكت بالصليب وشدتـه نحو صدرها .. متوسلة ، وراحت تدمدم ضامة حبيبها الأخير الى صدرها .

– يا حبيبي يسوع .. يا حبيبي يسوع ..

وسمعها الببغاء وشعر بأن الأحداث قد تغيرت ، وتذكر الليالي السابقـــة فانتفض صائحاً .

– كانافارو .. كانافارو ..

لم يتحرك هذه المرة زوربا . بل حدج السيدة التي كانت تبكي وتلـثم الإله المصلوب وحيث غطت وجهها عذبة وحريمة .

وفتح الباب ودخل العم اناينوستي بوقار واقترب من سرير المريضة وركـع بقربها قائلاً :

– ارجو ان تغفري لي ايتها السيدة .. قد اكون وجهت لـــك كلاماً فظاً مرة .. ولكن الله يغفر ..

إلا ان العجوز كانت غارقة مستسلمة ، وبدت كأنها لم تسمعه . فالآلام التي شعرت بها . كانت قد أمحت من ذاكرتها كل أيامها الغابرة . وشدت الصليب إلى صدرها وهمست :

– يا كانافارو ... يا صغيري كانافارو .

وهمست الندّابة لينيو .

– لقد بدأت تهذي .. لا شك بانها قد شاهدت الملائكة .. لـنرفع مناديلنا ونقترب .

– ألا تخافي الله .. هل تريدين أن نبدأ بالعويل قبل ان تموت .؟

– بدل من أن نسرق ما نستطيع ،تتحدثي الآن عن الموت وانها يجب ان

تموت أولاً .

وما ان انهت كلامها حتى وقفت وبدأت تلوّح بيديها ، فأنضمت لها رفيقتها وشمتا شعرهما وبدءآ بالندب والعويل « ولي .. يي .. بي .. »

فأسرع زوربا فأمسك بها ورمى بها خارجاً صائحاً :

– اخرسا .. ايتها العجوزتان .. ألا تريان بأنها لا تزال على قيد الحيـاة ؟.

فهمستا بحقد وألم :

– يا لهذا الشيخ القذر ... من أين جاء هذا ... يا له من مزعج !.

وتناهى لسمع المحتضرة ، الصيحة الحادة ، فطارت جميع تخيلاتهـا ، لتعود من جديد الى سريرها العفن ، حاولت النهوض فلم تفلح . فحاولت الصراخ فبدا صوتها واهناً حزيناً ..

– لا اريد ان اموت .. لا ..

اقترب زوربا منها محاولاً تهدئتها ، واغرورقت عيناه بالدموع :

– تمددي .. تمددي .. يا عزيزتي أنا هنا ، زوربا .

وعادت لها تخيلاتها ثانية ، وتناولت يد زوربا ، وعانقت عنقه المحني قائلة :

– كانافارو ... يا عزيزي كانافارو .

ووقـع الصليب فوق الوسادة ، وسقط على الارض وانكسر . وسمع صوت من الخارج :

– أجل أيها الرفيق .. لنضع الدجاجة فوق النار ..

كنت متزوياً في ركن الغرفة . وقد ملأت الدموع مقلتي . ورحت اخاطب نفسي : يا لهذه الحياة من قاسية ، بلا رحمة أو شفقة . فكل هؤلاء الكريتيون جالسين بانتظار موت السيدة بسرور غريب . كانهـــا منظر غريب سقط فوق الجزيرة وقد أتوا جميعاً للتحديق به .

أبعد زوربا عنقه من بين ذراعي السيدة ، ووقف ماسحاً دموعه بظهر يده ، نظر إلى السيدة ولكنه لم يستطع أن يميز شيئاً . فهو لم يعـد قادراً على الرؤية . ومسح عينيه ثانية . عندها شاهدها تحرك قدميهـــا وتتلوى . وارتعشت ... وارتعشت ثانية ،وتزحلقت الاغطية ... فبدا جسدها المتهدل .. يغطيه العرق .. وعلت منها صرخة حادة مؤلمة ، كأنها طير يذبح .. وسقطت جثة هامـــدة دون حراك .

وثب الببغـــاء لينظر إلى سيدته فشاهد زوربا يطبق عيني السيدة برفق وعطف . وصرخت الندابتان :

ـ هيا انتما ساعدونا أيضاً ، لقد ماتت .

وعلا عويلهما وندبهما ، مـلوحتا بيديهما ومشعثتان شعريهما وتلطمان صدريهما وخدودهما . وقليلاً قليلاً اصابتهما هزة من الحزن القديم الكئيب وصاحا :

ـ انت لا تستحقين ان تواري تحت التراب ...

وخرج زوربا إلى الساحة . كان يريد ان يبكي ، ان يصيح ولكنه كان خجلاً أمام الناس . فأنا لا زلت اذكر بأنه قال لي في أحد الأيام : « أنا لا استحي من البكاء أمام الرجال ، ولكن أمام النساء ، أبداً ، لا ابكي ابداً » .

غسلوا الميتة بالنبيذ ، وتناولت إحدى العجائز ثوباً نظيفـاً عطرته بمـــاء الكولونيا وغيرت ثياب المتوفية . وسدت منخريها ومحجريها .

كانت الشمس قد بدأت نحو المغيب . وبدت السماء ذات لون أخّاذ . وكان البحر هائجاً يتلاطم . وظهر في السماء غرابان اسودان وحطا على شجرة تين في الحديقة فنهرهما زوربا وطردهما .

كان فقراء القرية قد اجتمعوا في الباحة ، وقد بدأوا احتفالهم محطمين كل شيء ، واحضروا النبيذ من القبو ، وطبخوا الدجاج . وبدأو الأكل والشرب بعد ان كاد الجوع ان يقضي عليهم : « رحمها الله .. وغفر لها .. » « ليدخـــل عشاقها إلى الجنة . ليحملوا روحها » .

وصاح مانولاكس :

ـ انظروا إلى زوربا العجوز لقد ترّمل .. انه يطرد الغربان .. لنعزمـه ليتناول كأساً عن روح المرحومة .. أيها الأخ زوربا ..

نظر زوربا نحوه . فشاهد المائدة ، والكؤوس الملأى المتلألئة . والشبان السمر حولهـا . فهمس « زوربا .. زوربا كن صبوراً .. فأنا بانتظـــارك » . واقترب وعبّ كأس من الخمر ، وثاني ، وثالث وبـــدأ يأكل فخذ دجاجة . كانوا يوجهون الحـــديث له فـــلا يجيب . كان يأكل بجشع ويشرب بكثرة . ونظر إلى الغرفة التي ترقد فيها صديقته . كان يسمع من وقت لآخر صرخـات الندب ، والتراتيل الجنـــائزية . وابواب تفتح وتغلق فقد كان فقراء القريـة ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم .

كانت الندابتـــان ترسلان صيحاتهما ، وتركضان عبر الغرف مفتشتان عن ما يريدانه ، ملاعق سكاكين ، بن ،سكر ، ارز . فوجدتا بعض الحلوى فانقضتا عليها ووضعتــا قسماً منها في فمها والباقي اخفيتاه . ودخلت أيضـــاً سيدتان عجوزتان الى الغرفـــة ورحن يبعثرن محتويات السلة ، مناديل ، جوارب ، فاخطفتاها كلها . ونظرتا نحو الميتة ورسمتا علامة الصليب .

اقترب أحد الرجال من الباب ، فهربت العجوزتان . وتعلقت الندابتـــان بسرير الميتة وتابعتا عويلها وندبها . دخل زوربا ، نظر إلى الميتـــة بدوره . وراح يخاطب نفسه « إنها ليست إلا حفنة من تراب .. كانت تـأكل وتمرح وتحب . والآن ! أي إبليس يحضرنا إلى هذهالأرض ؟ ومن يأخذنا منهـــا ؟.. وبصق على الأرض وجلس .

وفي الخارج كان الشبان قد بدأوا العزف والرقص . وحضر وجهاء القرية ، العم اثانيوستي . و كوندمانوليو ، والمختار ، إلا أن الأب مافراندوني كان غائباً. فقد كان قد اختفى في الجبال بعد ان اصبح طريد العدالة .

قال الأب اثانيوستي :

– اني مسرور جداً برؤيتكم تلهون أيها الشبان ، ولكن يجب ان لا تصيحوا فالميت يسمعكم ، أجل يسمعكم . !

وقال كوندمانوليو :

– لقد جئنا لحصر أملاك المرحومة ، لنقوم بتوزيعهـا على الفقراء والمعوزين الذين في القرية . لقد اكلتم وشربتم بما فيه الكفاية ،ولكن لا تأخذوا كل شيء. قال هذا مهدداً بعصاه . وبرز من خلف الوجهـــاء حوالي عشرة من النسوة المشعثة شعورهن ، وكانت كل منهن تحمل كيساً فارغاً وسلة . وكن يقـتربن بهدوء وسكون شاهدهما الأب اثانيوستي ، فصاح بهن :

– أيتهـــا العجائز ، ارجعوا إلى الوراء ، سنحصي كل شيء وكل منكن ستأخذ نصيبها .

وتناول المختار من حزامه القلم والدواة ،واقترب من الدكان ليبدأ بالتسجيل وفي نفس الوقت علا صوت حـــاد ، لصفائح وعلب تتدحرج ، وأوان ترتطم ببعض . فقد كان الضجيج يغطي المكان بأكمله . اسرع اثانيوستي مهدداً بعصاه . ولكن بمن يبدأ ؟ فقد كانت العجائز والفقراء قد انتشروا في المكان ينهبون كل

ما تصل إليه أيديهم . أوانٍ منزلية ، وسائد ، حرامات ،الأبواب ، الشبابيك.
حتى أن ميميتو أيضاً تناول نعلين من نعال السيدة الميتة وربطها حول عنقه .

عبس المختار ، وأعاد القلم والدواة إلى حزامه ، ومزق الورقـــة الطويلة ، شاعراً بأن كرامته قد اهينت ، واختفى من المكان . وصـاح العم انانيوستي :

– يا له من عار .. هذا عيب .. انها تسمع قلت لـكم !.

فصاح ميميتو :

– هل اذهب لإحضار الكاهن !.

– أي كاهن .. إنها فرنسية كاثوليكية . ألم تشاهدهـا كيف ترسم إشارة الصليب بأصابعهـــا الأربعة ؟. لنبدأ بدفنها قبل ان ترتفع الروائح النتنة من جسدهـــا .

– لقد بدأ الدود يغزو جسدها .. انظروا !.

فهز الأب انانيوستي رأسه قائلاً

– إن الإنسان يغزوه الدود منذ ان يولد ،وعندما يبدأ الجسد بالعفونة تخرج الديدان بيضاء ، كدود الجبن .

وبرزت في كبد السماء النجوم ، وبقيت معلقة مرتجفة ، كأنهـــا اجراس صغيرة ، وغمر الرنين الليل بأكمله . تناول زوربا قفص الببغاء . حيث كان الطير الوحيد متربع في إحدى الزوايا خائفاً مرتعباً . عندما شاهد الببغـاء زوربا قفز من مكانه ، وحاول ان يصيح إلا ان زوربا اشار عليه بالصمت . نظر زوربا إلى الميتة ، بأنفاس متلاحقة ودموع مسجونة . كاد ان يقبلها إلا انه تمالـــك نفسه وتمتم « ليرحمـــك الرب » . وخرج حاملاً القفص بيده . رآني في الباحـــة فأشار إلي قائلاً :

– هيا بنا ... لنذهب .

كان يحاول قدر الإمكان أن يبدو هادئاً ، إلا ان شفتاه كانتا ترتجفـــان .
فقلت معزياً :

– كلنا سنسير على نفس الدرب ..

– يا له من عزاء جميل ...

– انتظر لنرى مراسيم الدفن .. الست قادراً على الوقوف للنهاية ..

– أجل.. سأبقى .

ترك القفص ليرتاح على الأرض وصلب ذراعيه على صدره . خرج من الغرفة العم اثانيوستي و كوندومانوليد ، رسما إشارة الصليب . وخلفهم اربعة شبان يضعون ورود خلف آذانهم ، يبدو عليهم السرور ، حاملين الباب الذي وضعت عليه المرحومة . وخلفهم جميعاً كان عازف القيثارة ، وحوالي عشرة رجال بشعر متهدل ، لا يزالون يمضغون ما كانوا يأكلونه . وبعض النسوة يحملن كل ما وصلت إليه أيديهم . وخلفهم جميعاً كان ميميتو يحمل النعلين حول رقبته ويصيح مازحاً :

– المجرمين .. المجرمين ..

كان عازف القيثارة يعزف لحناً هادئاً ، وينشد بصوت ، ناعم ، مرح ، والريح تأتي دافئة عبر الليل الغامض .

– لماذا يا شمس قد غربتي هكذا باكراً ..

عندها قال زوربا ..

– هيا ... لقد انتهى كل شيء .

* * *

- ٢٤ -

سرنا بسكون قاطعين ازقة وزواريب القرية . حيث كانت المنازل المظلمة تبدو كأنها نقط سوداء . كنا نسمع صوت كلب ينبح ، وبقرة تخور . ومن بعيد كانت تصل لنا مع صفير الرياح أصوات القيثارة المنسابة كأنها الميـــاه العذبة . قلت محطماً جدار الصمت :

– زوربا ، ما هذه الريح ؟ هل هي ريح الجنوب ؟.

إلا ان زوربا بقي صامتاً . فقد كان يسير متقدماً علي حاملاً القفص . عندما وصلنا إلى الشاطيء نظر إلي وسألني :

– هل انت جائع ايها الرئيس ؟.

– كلا لست جائعاً .

– هل انت نعسان ...

– كلا ...

– وكذلك انا .. لنجلس فوق الحصى... عندي شيء اريد ان اسألك عنه.

كنا كلانا تعبين ، كلانا لم نكن نشعر بالنعاس . كأننا لا نريد ان نضيع حزن هذا اليوم . فالنوم كأنه هرب في وقت الخطر . لقد كنا خجلين من النوم .

جلسنا على الشاطيء ، وضع زوربا القفص على ركبتيه . وبقي صامتــاً وقتاً طويلاً . وهناك خلف الجبل ، برزت مجموعة قلقة من النجوم . وكأنها اسطورة خرافية . وبعد ذلك راحت النجوم تتساقط الواحدة تلو الأخرى .

نظر زوربا الى السماء مذهولاً وكأنه يشاهدها للمرة الأولى . وهمس « مـــا الذي يمكن أن يكون هناك ؟ » . وبعد قليل ظهر بأنه قد قرر يتكلم . وقال بصوت ثابت منفعل :

– هل تستطيع ان تقول لي أيها الرئيس من قام بعمل كل هذا ؟ ولمــاذا ؟ وخصوصاً لماذا نموت ؟ .

– كلا ... لست ادري .

اجبت مذهولاً كأنني اجيب على شيء بسيط لا اعرف له تفسيراً . فجحظت عينا زوربا قائلاً بخوف وانفعال :

– لا تدري ؟! .

– اذن فجميع هذة الكتب التي تتصفحها وتقرأها لا تنفع !ما نفعها ، قل لي لماذا تقرأها ؟

– انها تتكلم عن ارتباك الإنسان الذي يسأل ولا يستطيع ان يجيب .

– فلتذهب الى الجحيم بإرتباكها .

عندما سمع الببغاء صراخ زوربا . قفز من قفصه صائحاً :

– كانافارو .. كانافارو ..

فصاح به زوربا ضارباً القفص بقبضته ونظر إلي :

– اريدك ان تخبرني من أين نأتِ وإلى أين نذهب ؟ لاشك بأنك بعد هذه السنوات الطويلة من القراءة والبحث ، وعصر الكتب . اريدك ان تخبرني ما العصير الذي استخرجته ؟.

شعرت بأن صوته كان لاهثاً قلقاً . كم تمنيت لو استطيع ان اجيبه . كنت اشعر بعمق ، بأن أعلى قمة يصلها الإنسان ، لن تكون : الفضيلة أو النصر أو المعرفة ، بل شيء اكبر من هذا واعمق انه : الخوف الابدي .

عندما رأى زوربا بأني لا أجيب صاح قائلاً :

– اذن انك لا تعرف !

عندها انبريت له محاولاً شرح : الخوف الابدي .

– زوربا اسمع .نحن لسنا إلا ديدان صغيرة . نقف على ورقة شجرة كبيرة. وهذه الورقة هي الأرض ، أما الأوراق الاخرى فهي النجوم والكواكب . نسير فوق ورقتنا باحثين متفحصين . نشمها فنحصل على رائحة عطرة أو نتنة ، نتذوقها فنحصل على الغذاء . نثب فوقها فتئن وتصيح كأنها كائن حي .

« وقسم من البشر ، وهؤلاء هم الشجعان يصلون إلى نهاية الورقة ، ينحنون بعيون مذهولة ليروا ما تحتها ، فيرتعشوا عند مشاهدتهم الهوة البعيدة . وتسمع من بعيد أصوات الأوراق الأخرى ، ويشعروا بالصمغ يصعد من جذور الشجرة ، فتتفتح قلوبهم . وهكذا وهم ينظرون ، منحنين ، يأخذوا بالارتعاش ، بكل

ارواحهم خوفاً .. وعند ذلك الوقت يبدأ ..

وصمت . كنت اريد ان اقول : « يبـــدأ الشعر » إلا أن زوربا لم يـكن يستطيع أن يفهم . فسألني زوربا لاهثاً :

– يبدأ ماذا ايها الرئيس !؟

– يبدأ الخوف الكبير .. الخطر العظيم .. يـــدوخ البعض فيصيحون رعباً .. ويحاولون إيجـاد جواباً لتثبيت قلوبهم فيقولون « الرب » وآخرون ينظرون من حافة الورقة الى الهوة بهدوء وقوة ويقولون بأنها تعجبهم .

وتأمل زوربا للحظة . فقد كان غير قادر على الفهم ، وأخيراً قال :

– اني انظر إلى الموت ، بلا خوف ولكن لا أقول بأنــه يعجبني . كلا ... ابداً لا اوافق على هذا .

وصمت وثم تابع منفجراً :

– كلا .. لست أنا من يمد عنقه للموت كأنني نعجة واقول « هيا اقطع عنقي لأذهب إلى الفردوس » .

كنت استمع لكلمات زوربا قائلاً لنفسي من هو هذا الحكيم الذي كان يأمر تلاميذه بأن يطيعوا القوانـين الطبيعية ، وأن يجيبوا بالإيجـــاب ، ما لا يستطيعوا أن يغيروه ؟. لا شك بان هذا الدرب هو الوحيد نحو الخلاص . انــه يستدعي الشفقة ، ولكن أيوجد هناك غيره ؟!.

اذن الثورة ؟ ثورة الإنسان الفاشلة لقهر الضرورة ولإخضاع القوانين قوانين الروح الداخلية . لجعل كل ما هو كائن أن يختفي . ولخلق دنيا جديدة ، أفضل وأكـــثر شقاءً . ليكون حسب القوانين الداخلية ، والتي عكس قوانـــين الطبيعة المتوحشة .

. نظر إلي زوربا ، وعلم بأنه ليس لدي ما ازيده . امسك القفص برفق لكي لا يزعج الببغاء ووضعه قرب رأسه واستلقى على الرمال قائلاً :

– ليلة سعيدة أيها الرئيس ، اظن بأن هذا كفاية .

كانت الرياح الجنوبية الحادة تأتي من افريقيا . لتنضج مزروعات كريت وثمارها . كنت اشعر بها تحرق وجهي ، وكان عقلي ينتفخ وينضج كأنه ثمرة .

لم اكن قادراً على النوم ، بل لم اكن اريده . ولم اكن افكر بالنوم . كنت اشعر بأن في هذه الليلة كما لو ان انساناً آخـراً ينمو داخلي . كنت اعيش هـذا

المنظر بوضوح غريب . انني ارى نفسي تتغير . فكل ما كان يجري عادة في سراديب امعائنا المظلمة . كان يجري الآن تحت نظري وكأنه في وضح النهار . وبينما أنا جالس على الشاطىء كنت اشاهد المعجزة العظيمة تتحقق .

وتساقطت آخر نجمة وبدا الليل صافياً ، وخلف هذه الأنوار برزت الجبال والاشجار وطيور البحر ، كأنها لوحة متقنة ، لقد كان الصباح ينبلج .

* * *

كان القمح قد نضج ، بعد ان مرت عدة أيام . كان زوربا يتوجه منذ الصباح الباكر إلى الجبل بسكون . فقد كان المصعد في طور الانتهاء بعد ان دقّت الأوتاد وعلقت الحبال . ويعود في الليل خائر القوى . ليضرم النار ويحضّر الطعام ونأكل . كنا نتجنب ان نتكلم لكي لا نوقظ الشياطين التي تعتمل داخلنا : الحب ، العطف ، والموت . كنا نحدق في البحر بصمت دفين .

ومقابل صمت زوربا . كانت الاصوات الخالدة ترتفع داخلي . وعاد القلق ليملأ قلبي . فأنا اسأل نفسي دائماً : « ما هذا العالم ؟ما الهدف من حياتنا الزائلة ! زوربا يقول بان الناس يسعدون بالمادة . وآخرون بالفكر . وكل هذا سواسية لو نظر إليه من زاوية اخرى . ولكن لماذا ؟ ومن أجل من ؟ وعندما يخفت صوت الجسد هل يبقى ما نسميه الروح ؟ أم إنه لا يبقى شيء البتة ؟ . وهل يكون ظمأنا الأبدي ناتجاً عن كوننا خالدين ؟ أم هل اننا في كل لحظة تتنفس فيها نكون نخدم شيئاً خالداً ؟!.

ذات يوم نهضت من النوم واغتسلت . وشعرت بان الأرض قد نهضت واغتسلت أيضاً . كانت تلمع بقوة وحيوية . وسرت في طريق القرية وكان البحر الأزرق الهادىء إلى يساري . وحقول القمح الذهبية البعيدة على يميني . مررت بتينة الآنسة . وبعض الاشجار الاخرى . وتخطيت بسرعة ودون ان انظر ، حديقة الأرملة . دخلت القرية . كان الفندق الصغير مهجور فارغ . بلا أبواب أو شبابيك . كانت الغرف فارغة . لم يبق بها سوى نعلين باليين ، هذين النعلين الوفيين الذين لم ينسيا بعد القدمين اللتين كانتا تلبسهما .

تاخرت بالرجوع ، كان زوربا قد رجع بالفعل ، وبدأ بتحضير الطعام . وما ان شاهدني قادما حتى عرف أين كنت . وبعد تلك الأيام الطويلة من الصمت المطبق حرّك حاجبيه وقرر أن يتكلم محاولاً تبرير صمته :

– ان جميع الاحزان ايها الرئيس تقسم قلبي قسمين ، إلا ان هـــذا القلب المليء بالجراح والندوب سرعان ما يلتئم وتختفي الجراح . فأنا مغطى بالجراح ، إلا أنها كلها التأمت . ولهذا فأنا ما زلت قادراً على تلقي الصدمات .

فأجبت بصوتاً بدا فظاً رغماً عني :

– اذن فالمسكينة بوبولينا لم تعد تخطر لك على بال !.

إلا أن زوربا صاح غاضباً :

– دروب جديدة ، أعمال جديدة ، لقد تخلصت من التفكير بمـــا حدث البارحة . وكما لم أعد افكر بالذي سيحدث غداً . ان مــــا يجـري اليـوم وفي هذه اللحظة هو الذي افكر به . فأنا اقول « ما الذي ستفعله الآن يا زوربا ؟ » تنام ؟ إذن نم جيداً . – ماذا تفعل الآن يا زوربا ؟ تعمل . إذن اعمـــل بجد . ماذا تفعل الآن يا زوربا ؟ تعانق امرأة ؟ إذن عانقها بحريــة . ولتنس كل شيء آخر . فالعالم لا يوجد فيه إلا هي وانت .

وبعد قليل اضاف :

– ان اي عشيق آخر لم يستطع ان يمنـع السيدة هورتنس ما قدمته لهـــا أنا . أنا زوربا العجوز . سوف تسأل لمـــاذا ؟ لأن كل منهم كان يفكر ، وقت معاشرتها ، بالأسطول أو بكريت أو بزوجاتهم ، إلا انا فانني كنت انسى كل شيء . وكانت هي الفاجرة تعلم هذا جيداً . يجب ان تعرف هـذا ايها الحكيم . فليس يوجد شيء يسعد المرأة أكثر من هذا . يجب ان تصغي لهذا ايضاً لتعرف كيف تتصرف : ان المرأة الحقة تتمتع باللذة التي تقدمها للرجل اكثر ممـا تتمتع باللذة الذي تأخذها منه .

وقرب رأسه من النار ليضع بعض الحطب فيها وسكت . كنت انظر اليه وكان سروري كبيراً . فأنا اشعر في هذه اللحظات بأن الطعـــام الذي يعده زوربا هو أغنى ما استطيع الحصول عليه ، انه غـذاء للروح قبل ان يكون للجسد . قلت له :

– هل لا زلت تذكر يا زوربا الفخ الذي اوقعتني فيه ، عندمـا التقينا لأول مرة في البيرية ؟ لقد قلت يومها بأنك تحسن طبخ الحساء . وقـد أراد الرب أن أكون مغرم بالحساء . كيف عرفت هذا ؟ . حرك زوربا رأسه بسخرية :

– لا أعلم أيها الرئيس . إلا انني عندما شاهدتك منكباً على تصفح الكتاب

ذو الأطراف المذهبة . قلت لنفسي لا بد وانك تحب الحساء . لقد خطر هـذا على بالي فجأة ، اؤكد لك وليس ثمة ما يدعوك لتسأل عن السبب ؟.

وسكت ولابد وانه سمع شيئاً فقال :

ــ اظن بأن هناك شخص قادم !

وفجأة اقتربت خطوات رجل مسرعة ، وانفاس رجل يركض . وفجـأة ظهر بقربنا ، راهب ممزق الثياب ، احترقت لحيته وجزء يسير من شاربه ، تفوح منه رائحة البنزين . فصرخ به زوربا :

ــ آه .. أهلا بك أيها الأب زكريا . ما الذي جعلك هكذا .

وقع الراهب ارضاً ، بقرب النار مرتعداً . فاقترب زوربا منه ونظر إليـه بطرف عينه فأجاب الراهب .

ــ اجـــل ...

ــ حسناً ... حسناً أيها الراهب لقد اصبح من المؤكد الآن بانـك ستذهب الى الفردوس . حاملاً صفيحة البنزين بيدك ، ودون ان تلتفت الى أحد .

ــ آمـــين ..

ــ كيف حدث هذا ؟ هيا حدثني .

ــ شاهدت الملاك ميخائيل ، أيها الأخ كانافارو ، وأشار علي بشيء . اسمع وانظر . كنت وحيداً في المطبخ . الباب مغلق اقشر بعض حبوب اللوبيـاء الخضراء . والآباء كانوا يؤدون صلاة العصر . كل شيء كان ساكنـاً . وسمعت الطيور تزقزق وشعرت بأنها ملائكة . كنت واثقاً من كل شيء وقـد هيأت اللوازم واشتريت صفيحة بنزين وخبأتهافيقبو الكنيسة ليباركها الملاكميخائيل.

« اذن امس بعد الظهر كنت اعمل في المطبخ ، شاعراً بإقتراب الجنـة . وكنت اصلي « ايها السيد المسيح .. اجعلني مستحقاً لملكوت السماء لأقـوم بتحضير الخضار في الجنـة إلى الأبد » وكانت دموعي تنهمر . وفجأة شعرت بأصوات اجنحة فوق رأسي وفهمت فوراً . وطأطأت رأسي مرتعشاً . عندها سمعت صوتاً يقول : « زكريا .. ارفع عينيك لا تخشى شيئاً » . إلا انني كنت ارتجف وسقطت على الأرض . وكرر الصوت ثانية « ارفـع عينيك يا زكريا » . ورفعت رأسي . كان الباب مفتوحاً وعلى العتبة وقف الملاك ميخائيل . حاملاً مشعلاً ملتهباً بدل السيف . وقال لي مجدداً « السلام يا زكريا » فأجبته « انـني

عبد الله .. وانا تحت امرك » فقال « خذ المشعل وليكن السيد المسيح معك » مددت يدي وشعرت بها تحترق إلا ان الملاك قد تلاشى . وشاهدت عبر الباب وهج نار من السماء ، كأنه نجمة هاوية . »

مسح الراهب العرق المتصبب من جبينه . بعد ان تغير لونه ، وكان وجهه يرتعش . وقال زوربا .

– ها تشجع وبعد ذلك !.

– في هذا الوقت ، كان الآباء قد بدأوا يخرجون من الكنيسة ليدخلوا قاعة الطعام . وبينما كان رئيس الدير يمر من أمامي رفسني بقدمه كإني كلب . وانفجر الآباء الباقون بالضحك . ولزمت أنا الصمت . كان الجو بعد ذهاب الملاك تفوح منه رائحة الكبريت . إلا ان احداً لم يشعر بها . وجلسوا إلى مائدة الطعام . وقال لي المشرف « الن تأتي لتأكل » . إلا انني بقيت صامتاً .

«وقال ديميتيوس اللوطي ساخراً « ان خبز الملائكة يكفيه » وعاد الباقون ليضحكوا من جديد . عندها وقفت واتجهت نحو المقبرة ، وارتميت عند قدمي الملاك وشعرت طوال ساعات مديدة بأنه يدوس على عنقي . مضى الوقت كأنه البرق . وهكذا تمضي الساعات والأيام في الفردوس . وحلّ منتصف الليل . كان السكون مخيماً بعد ان ذهب الرهبان للفراش. نهضت ورسمت إشارة الصليب وخاطبت الملاك « اذن فليكن ما اردت » . وتناولت صفيحة البنزين . وبعض الخرق البالية التي كنت قد خبأتها وخرجت.

« كان الظلام شديداً ، ولم يكن ثمة قمر بعد ، وكان الظلام يلف الدير كأنه جهنم . دخلت الباحة وصعدت الدرج حتى وصلت إلى غرفة رئيس الدير ، صببت البنزين على الغرف والشبابيك والأبواب والممر الخشبي تماماً كما قلت لي أيها الأخ كانافارو . ثم دخلت الكنيسة واشعلت شمعة من شمعات السيد المسيح واضرمت النار في المكان » .

وصمت الراهب ليستطيع التقاط انفاسه ، ولمعت عيناه بوحشية وصرخ راسماً إشارة الصليب :

– عندما رأيت النار تلتهم الدير صرخت « ليتمجد اسم الله .. ليتمجد اسم الله » الى نار جهنم .. الى نار جهنم » واركنت للفرار ، ومن بعيد كنت اسمع اصوات الاجراس تقرع وصيحات الرعب ترتفع .

« اختفيت في الغـابة حتى طلع النهار ، كان الخوف مسيطراً علي . كان الرهبان يبحثون عني في كل مكان ، إلا انهم لم يجدوني ، ثم سمعت الملاك يناديني لانزل الى الشاطىء . وسرت ولا ادري الى اين ! فقد كان هناك من يقودني.. حتى وصلت الى هنا وقد وجدتك أخيراً أيها الأخ كانافاروا .. فحمداً لله . »

بقي زوربا صامتاً وعلت محياه ابتسامة عريضة وسأل :

– زكريا .. ما هو خبز الملائكة الذي قاله ديميتيوس ؟.

– الروح !

– الروح .. هذا يعني الهواء وهو لا يغني عن جوع .. تعال .. اقـترب تناول خـبزاً وشوربة وسمكاً وقطعة من اللحم . لقد تعبت كثيراً الـ- هيا كل .

– لا أشعر بالجوع .

– زكريا ليس جائعا اعلم هذا ولكن يوسف ؟!

فاجاب الراهب بصوت اشبه بالهمس ، وكانه يفشي سراً كبيراً .

– ان يوسف اللعين قد احترق ... ليتمجد اسم الله !.

– احترق ! كيف وأين ؟ هل شاهدته ؟

– أيها الأخ كانافارو لقد احترق في نفس اللحظة التي اشعلت فيها الشمعة من قنديل السيد المسيح . لقد شاهدتـه بام عيني يخرج من فمي . كشريط حريري عليه احرف من نار وقد سقط على لهيب الشمعة واحـترق وتحول الى رماد ... كم اشعر بالراحـة الآن ... يخيل الي باني في الجنة !. ساذهب لانام قرب البحر . هذا ما يجب ان اقوم به منفذاً الأمر الذي تلقيته .

وابتعد باتجاه الشاطيء ، ثم تلاشى . فالتفت نحو زوربا قائلاً :

– انك تتحمل المسؤولية فيما لو وجده الرهبان وفتكوا به .

– لا تقلق لن يجدوه . فانا اعرف هذا النوع من اللصوص . فغداً صباحاً سالحق به وأعطيه ثياباً مدنية وأجعله يركب باخرة ، لا تقلق ، فهو لا يستحق كل هذا الاهتمام . هل الحساء لذيذ ، كل جيداً من خبز البشر ولا تهتم .

اكل زوربا بجشع ، وشرب ، ومسح شاربه بظهر يده وبـدا راغباً في الكلام . فقال :

– هـل رأيت ؟ ان شيطانه قد مـات ، وهو الان فارغ ، فارغ تماماً

كالآخرين ، ولا بد وانه هالك .... هل تظن أيها الرئيس ان هذا الشيطان كان ...

– بالطبع .. لقد سيطرت عليه فكرة إضرام النار في الدير ، فأحرقة . وهدأت نفسه . وهذه الفكرة كانت تريد ان تأكل اللحم وتشرب الخمر لتنمو لتحقق عملاً . أما زكريا الثاني فـلم يكن بحاجة للحم والخمر ، فقد كان ينمو بالصوم .

تأمل زوربا بما قلته مرتين أو ثلاثة ثم قال :

– وحق الشيطان ، أظن بأنك على حق ، فأنا في داخـلي خمسة أو ستة شياطين !

– كلنا يوجد في داخلنا شياطين .. لا تخشى شيئاً ، وكلما ما كان عـدد الشياطين أكبر كلما كان هذا أحسن . فيكفي ان يتجهوا جميعاً إلى نفس الهدف بعدة طرق .

إثارت هذه الكلمات حفيظة زوربا ، فوضـع رأسه بين ركبتيه مفكراً . ورفع رأسه وسألني :

– أي هدف ؟

– لا أدري يا زوربا ! فأنت تسألني أمور جداً صعبة . فكيف تريدني ان افسرّ لك ؟ .

– قله بتبسيط فأفهمه . فأنا قد تركت العنان لجميع لشياطيني لتفعـل ما تريد ، ولهذا يقول البعض بأني غير شريف ، والبعض يخالفوهم ، والبعض مجنوناً والبعض سليمان الحكيم . انني وحدي كل هذا وبعض الأشياء الأخرى أيضـاً . نوّر عقلي قليلاً ان كنت تستطيع هذا ! .

– أظن يا زوربا بأني سأكون على خطأ ، ولكن على كلٍ . هناك ثلاثة أنواع من البشر : الذين يقولون بأنهم يريدون أن يعيشوا حياتهم ، يأكلوا ويشربوا ، ويحبوا ويصبحوا اثرياء ومشاهير . وثم الذين يرسمون لأنفسهم طريقاً من أجـل سعادة البشر جميعاً ، وهناك أخيراً الذين يرسمون هدفاً لهم من أجل سعادة الكون بأجمه ، البشر الحيوانات ، النباتات ويشعرون بأن هؤلاء كلهم وحدة واحدة لا تتجزأ من أجل معركة عظيمة لتحويل المادة إلى روح .

فرك زوربا رأسه وقال :

ـ ان دماغي ناشفاً ولا استطيع ان أفهم ببساطة . آه كم اتمنى لو انك تستطيع أن ترقص ما تريد ان تقوله لكي استطيع فهمه .

شددت على شفتي بذهول . لو كنت استطيع أن ارقص مثل هذه الأفكار ! لقد اسأت التصرف بحياتي .

ـ آه لو كنت قادر على هذا أيها الرئيس . كم اتمنى لو انك تستطيع ان تقصه علي كأنه رواية . كما كان يفعل جارنا حسين آغا . كان شيخاً تركيا عجوزاً ، وحيداً بلا زوجة ولا أولاد . كانت ثيابه بالية ، إلا انها كانت تتألق نظافة ، فقد كان يقوم هو بغسلها ، وطبخ الطعام وتنظيف الغرفة ، وفي المساء كان يجلس مع جدتي والعجائز في الباحة ليحيك الجوارب .

« لقد كان حسين آغا رجلاً تقياً ، وفي أحد الأيام حملني واجسلني على ركبتيه قائلاً اسمع يا الكسيس ، سوف اقول لك شيئاً ربما لن تستطيع ان تفهمه الآن ، إلا انه سيأتي اليوم الذي ستفهمه فيه ، « ان الله العظيم لا تستطيع السموات والأرض السبع ان تسعه ، ولكن قلب الإنسان يسعه ، إذن فأحذر ان تجرح قلب الإنسان » .

كنت استمع إلى كلمات زوربا بهدوء وسكون ، وأخاطب نفسي ليتني اقدر ان اطبق فمي حتى تصبح هذه الأفكار حكاية ، ولكن هذا ما لا يقدر عليه إلا شاعر ملهم . أو شعب كامل . وقف زوربا قائلاً :

ـ سأذهب لأرى الراهب ، وسأخذ له معي بطانية ، حتى لا يصاب بالبرد ، وسآخذ معي مقصاً فقد يحتاج له .

أخذ هذه الأشياء ، واتجه نحو الشاطيء . مقهقهاً ، كان القمر قد ارتفع إلى كبد السماء . ونشر فوق الأرض لوناً شاحبا حزيناً .

قبعت مكاني أحاول ان استرجع في عقلي كلمات زوربا . الفنية بالمعاني والتي تفوح منها رائحة الأرض الدافئة ، وعندما عاد زوربا فجأة ، كنت أحاول ان أجد بعض بقايا النار لأتدفأ . كان متدلي الذراعين مذهولاً :

ـ لا تخف أيها الرئيس ! ... لقد مات الراهب .

ـ مات !

ـ لقد رأيته ممداً على صخرة .. كان القمر يضيء المكان فركمت . قصصت له لحيته ، شاربه وشعره . إلا انه لم يتحرك حتى انني كدت اقص الجلد . وعندما

وجدته حليقاً ، غرقت بالضحك ، وهزرته صائحاً « قل لي أيها السيد زكريا ، هيا انهض كي تشاهد معجزة السيدة العذراء » . إلا انه بقي جامداً . هزرته ثانية ، دون أن يبدي أي حركة . كشفت عن صدره واصغيت السمع إلا ان قلبه كان ساكناً ، لقد كف المحرك عن الدوران .

كان زوربا كلما اوغل في القصة ازداد سروره ومرحه ، لقد جعله الموت يرتعش للحظة ومن ثم عاد إلى حالته العادية .

والآن ماذا سنفعل به أيها الرئيس ، اقترح ان تضرم فيه النار . فمن يقتل بالبنزين ، بالبنزين يقتل . أليس هذا ما يقوله الرب ؟ هل تعلم انه سيشتعل جيداً ، لأن ثيابه مبللة بالدهن والبنزين .

– افعل به ما يحلو لك .

– يا له من أمر مزعج .. لو أضرمنا فيه النار لأشتعلت ثيابه ، إلا ان جسده ، ليس به سوى جلداً وعظاماً وهذا سيأخذ منا وقتاً طويلاً . فهو ليس عليه اوقية واحدة من الشحم لتساعد النار . لو كان الله موجوداً كما يقال . ألم يكن قد عرف هذا ، وخلقه سميناً قليلاً . ما رأيك ؟ .

– لا تحاول ان تأخذ رأيي بهذا ، قلت لك ان تفعل ما تريده وهذا يكفي ، ولكن بسرعة .

– الأحسن أن نخترع منه معجزة ، إذ ان الرهبان سيعتقدون بان الرب قد ارسل له حلاقاً . وبعد ان حلق شعره قتله انتقاماً لحرق الدير .

كان القمر قد أصبح في آخر عمره ، فتركته وذهبت لأنام ، وحين نهضت في الصباح شاهدت زوربا بقربي يعد القهوة كان يبدو تعباً ، وعيناه حمراوان بسبب سهره طول الليل ، وكانت ابتسامة خبيثة تعلو شفتيه .

– لم استطع ان انم طوال الليل أيها الرئيس ، فقد كنت مشغولاً .

– مشغول ! بماذا أيها القذر ؟

– كنت احقق المعجزة ... كلا لن أقول لك ... غداً سندشن المصعد وسيأتي الكهنة الضخام ليباركوا المصعد . وعندها سيعلم الجميع بالمعجزة التي وقعت ، يجب ان تعلم باني اصلح لأن اكون رئيساً للدير ، وبهذا سيضطر الجميع إلى اقفال اديرتهم فلن يرزقوا باي شيء بعدي ، أتريد الدموع ؟ اسفنجة خلف الأيقونة تفي بالغرض ، ويبدأ القديسون بالبكاء . أصوات رعد ؟ اضع تحت

الوسادة آلة ميكانيكية ترسل مثل هذه الأصوات . واثنان من الرهبان الأوفياء سيصعدون إلى سطح الدير ملتفين بالبطانيات . وفي كل سنة بمناسبة عيـد نعمة السيدة العذراء ، سأحضر بعض العميان والعرجان والمشلولين ليعودوا لحياتهم الطبيعية بسبب معجزتها .

« لا تضحك أيها الرئيس . لي عم وجد يوماً بغلاً على وشك الموت ، فأخذه وراح كل صباح يعلفه وعند المساء يعود به إلى البيت . وعندما سأله أهل القرية عن ما يريد ان يفعله بالبغل المسن الذي لا ينفع لشيء أجاب عمي « انني استعمله كمصنع للسماد » وأنا أيها الرئيس سأستعمل الدير كمصنع للمعجزات » .

- ٢٥ -

لن أنسى مهما حييت مساء الليل الأول من أيار . كانت الأوتاد قد ركزت والحبال قد ربطت وأصبح المصمد جاهزاً . وكوم كبيرة من جذوع الاشجار مكومة فوق الغابة ، والعمال بقربهم بانتظار اشارتنا ليطلقوا الجـذوع . وكان علماً يونانياً يرفرف على أعلى وتد من المصمد وكان زوربا قد هيأ برميـلاً من الخمر قرب الكوخ . وبقربه أحد العمال يشوي على النار خروفاً كبـيراً . حيث كان المدعوين بعد الانتهاء من التدشين سيأتوا لتناول كأس ويتمنوا لنا التوفيق .

كما كان زوربا قد انزل قفص الببغاء ووضعه على صخرة قرب أول وتـــد . وهمس ناظراً اليه برفق وحنان :

— اني اشعر باني أرى سيدته !

استقبل زوربا الجميع كأنه سيد كبير . وشرح لهم أهمية المصمد . والإفادة التي ستصيب القرية ، وحضر الرهبان يرتلون . خمسة رهبان بثيابهم السوداء ، واقترب الراهب الراجل صائحاً« المعجزة أيها المسيحيون المعجزة ، ان الرهبـان يحملون العذراء . اسجدوا وصلوا لها » .

ركع الراهب وبدأ يقص حكاية زكريا . كيف أحرق الدير بالبـنزين ، وكيف اطفأوا النار . وانهم ذهبوا عند إيقونة السيدة،وصاحوا « أيتها العذراء استلي سيفك واغمديه في المجرم » . بحثوا عنه طوال النهار فلم يجدوه . وعندما ذهبوا هذا الصباح إلى الكنيسة ليصلوا وجدوا جثته عنـــد قدمي الأيقونة . ولا تزال نقطة دم منه عالقة على حـــد السيف . عندها صاح أهـــل القرية « ارحمنا يا رب » .

وتابع الراهب «وعندما اقتربنا لنرفع جثته وجدنا شعره محلوقاً» كأنه كاهن كاثوليكي .. نظرت نحو زوربا ضاغطاً نفسي لكي لا اغرق بالضحك وهمست « أيها اللص » ، إلا انه لم ينتبه لي فقد كان راكعاً يرسم اشارة الصليب بذهول

وندم ، في هذا الوقت كان الرهبان جميعهم قد وصلوا . وصعد أحدهم صخرة كبيرة وبدأ الصلاة والبركات راشاً ماء الورد على جباه ورؤوس الفلاحين وأهل القرية ، والباقين كانوا يرتلون بأصوات عالية .

وأبدى الرهبان رغبتهم بزيارة القرية ليسجد الأهالي لعظمة المعجزة. وأخيراً قال رئيس الكهنة :

– ان الأحتفال يجب أن يبدأ فقد انتهت البركة .

كانت الشمس قد ارتفعت إلى كبد السماء واصبح الجو حاراً ، وتجمع الرهبان حول الوتد الذي يرتفع عليه العلم ، وجففوا جباههم بأكمامهم وراحوا يرتلون من جديد .

وبدأو يرشون الأوتاد والحبال والأكرات بالمياه المقدسة وثم العمال والفلاحين وحتى البحر . ومن ثم رفعوا ايقونة العذراء ووضعوها قرب الببغاء واجتمعوا حولها . ووقفت انتظر .

كانت التجربة الأولى للمصعد ستتم بثلاثة اشجار ، ورسم الجميع اشارة الصليب وقالوا « باسم الثالوث المقدس والسيدة العذراء » . اقترب زوربا نحو الوتد وانزل العلم ، وكانت هذه الإشارة التي ينتظرها العمال . تراجع الجميع خطوتين إلى الوراء وراحوا ينظرون إلى أعلى الجبل ، وهتف رئيس الدير « باسم الآب » .

أجد من الصعب جداً ان اصف ما حدث بعد ذلك . فقد كان الموت بعيد خطوة واحدة عن الجميع . فقد اهتز المصعد بأكمله ، وانحدرت شجرة الصنوبر بسرعة هائلة . وبعد لحظات كانت تحولت إلى حطبة تكاد تكون محروقة . نظر إلي زوربا نظرة بائسة ، وتراجع الجميع إلى الخلف ليكونوا أبعد عن الموت . وسقط ديمتيوس الراهب على الأرض متمتماً « ارحمنا يا رب » ورفع زوربا يده قائلاً « ان هذا يجب ان لا يقلقكم ، فإن هذا يحدث دائماً بالنسبة للجذع الأول.. انظروا الآن » .

اعطى الإشارة الثانية وهرب مبتعداً . وصاح رئيس الدير برعب « والإبن » وانحدر الجذع الثاني واهتزت الأوتاد ، وراح يقفز كأنه وحش بحري ، إلا انه لم يصل إلى نهاية المصعد فقد انسحق عند منتصف الجبل . عندها تمتم زوربا عاضاً على شفتيه قائلاً « فليذهب إلى الجحيم . ان الميل ليس دقيقاً بما فيه الكفاية » .

واعطى الإشارة الثالثة وصاح الراهب « والروح القدس » واختبأ الجميع خلف البغال وبعيداً عن المصعد . متحفزين للهرب ، كانت الشجرة الثالثة ضخمة ، وما ان بدأت بالإنحدار حتى زعق زوربا صائحاً :

– ارتموا على الأرض ... أيها الأشقياء .

وانكفأ الرهبان على وجوههم وخر القرويون على الأرض . كان جذع الشجرة يقفز فوق الحبال ، وارسل عدة شرارات ،وقبل ان نستطيع أن نرى شيئاً اندفع إلى البحر وعلا الزبد فوقه . وكانت الأوتاد قد بدأت تهتز بشكل مقلق وتخلع بعضها فأرتعبت البغال وقطعت حبالها واركنت للفرار .

فصاح زروبا محاولاً التهدئة :

– كل هذا لا شيء ... لقد اعتاد المصعد الآن .

واعطى الإشارة الرابعة بيأس ورهبة . وهمس رئيس الدير هارباً بجلده :

– وسيدة الإنتقام .

وانحدر الجذع الرابع ،وارتفع صرير الأوتادوانهارت مرة واحدة كأنها كانت مبنية من الورق ، وعلا صياح العمال والقرويون مركنين للفرار « ارحمنا يارب .. ارحمنا » .

اصيب ديميتيوس بشظية في ساقه ، وكاد رئيس الدير ان يصاب بعينه ، واختفى القرويون ، ولم يبق غير السيدة العذراء منتصبة ، ممسكة برمحها تحدق بالرجال الهاربين وبقربها كان الببغاء يرتجف رعباً وقد انتصب ريشه الأخضر .

تناول الرهبان تمثال العذراء ، حملوا ديميتيوس ، وأحضروا بغالهم . فأمتطوها ، وعادوا ادارجهم . كان الخروف قد بدأ يحترق بعد ان ترك فوق النار . اسرع زوربا نحوه صائحاً :

– ان الخروف سيحترق ..

جلست بجانبه على الشاطيء وبقينا لوحدنا . ونظر إلي بتردد وقلق . فلم يكن يدري ما يقول بعد هذه الكارثة ، امسك بسكين واقترب من الخروف ورفعه عن النار واسنده إلى جذع شجرة وقال :

– لقد نضج تماماً أيها الرئيس ... هل تريد قطعة صغيرة .

– اجل وأت بالخمر والخبز ايضاً فأنا جائع .

وتناول كل منا سكيناً ورحنا نأكل بشره وسرعة .

– أوه .. كم هذا لذيذ .. انه لا يحتاج لأي مضغ فهو طري ، لين . اني لم آكل في حياتي مثل هذا اللحم إلا مرة واحدة .. اظن انني قد قصصتها عليك ...

– قصها ثانية ... هيا تكلم .

– روايات قديمة ، ايها الرئيس ، جنون يوناني ...

– قلت ، قصها علي ... هذا ما احبه .

– في تلك الأمسية حاصرنا البلغاريون ، كانوا حولنا من الجهات الأربع مشعلين النيران لكي يرعبونا ، راحوا يقرعون الطبول ويرسلون عواءً عالياً كالذئاب كان عددهم حوالي الثلاثماية ، ونحن كنا ثمانية وعشرون فقط ، وكان قائدنا هو القائد « روفاس » رحمه الله ، فقد كان بطلاً ، اقترب مني وقال لي « زوربا ضع الخروف فوق النار » فقلت له ما رأيك لو وضعنا في حفرة أيها القائد » فقال « حسنا افعل ما تريد .. ولكن ليكن بسرعة فنحن جائعون » . وهكذا كان ، شوينا الخروف في حفرة ، واجتمعنا حول النار . وقال القائد « لعله يكون آخر خروف نأكله .. هل يشعر أحد منكم بالخوف ؟ » . فضحك الجميع ولم يجب أحد . تناولنا الخروف ... اوه كم كان لذيذاً أيها الرئيس ! بمجرد ما اذكره حتى يسارع اللعاب ليدفق من فمي . وقال القائد . « ان الأقذار هناك يعوون كالذئاب لنغني اغانٍ كلفتية » . وعلت اصواتنا بالغناء جذلين مرحين ... كنا نشرب وننشد سعداء .. بعد ان نسينا الخطر . ونظرت إلى ظهر الخروف،فعلمت بأن الخطر سيزول. فقد كان هكذا مكتوباً هناك » .

تناول زوربا قطعة كبيرة من الخروف قائلاً :

– لقد كان لذيذاً جداً ذلك الخروف ...

– هاتِ ولنشرب أيضاً .. املأ الكؤوس .. ولنعبهم دفعة واحدة .. ودعنا نرى ماذا يقول ظهر الخروف هذا . ؟ .

وسلخ الظهر بمهارة فائقة . وقربه من النور قائلاً :

– اظن بان كل شيء سيسير على ما يرام ... سنعيش الف سنة ... وبقلب كالحديد .. أرى رحلة طويلة ... وهناك في النهاية .. منزلاً كبيراً ، لا شك بانها عاصمة لمملكة عظيمة ... أو الدير الذي تحدثنا عنه .

– هيا صبّ الخمر ثانية ... واترك هذا التنجيم ... سأخبرك ما هذا

المنزل ذو الأبواب الكبيرة .. انها قبور الارض .. هذه نهاية رحلتك يازوربا .. ايها اللص .

– نخب صحتك أيها الرئيس.. اظن بأن الحظ اعمى .. يسير خبط عشواء، يرتطم هنا . ويصطدم هناك ومن يمسه يدعونه محظوظاً . فليأخذ الشيطان هذا الحظ .. فنحن لسنا بحاجة إليه ..

– كلا .. لا نريده يا زوربا .. نخب صحتك .

تابعنا الشرب والأكل حتى أتينا على كل الخروف . كان العالم يرتفع.. والبحر يقهقه والارض تهتز . وقفت قائلا :

– هيا يا زوربا .. دربني على الرقص .

– الرقص .. أيها الرئيس . هيا اقترب .

– هيا لنبدأ فقد تغير مجرى حياتي .

– أولاً سأعلمك رقصة زيبكيكو .. انها رقصة وحشية قاسية .. رقصة حرب .رمى بحذائيه وجوربيه ، ولم يترك عليه سوى سترته . إلا انها ضايقته أيضاً فخلعها ورماها بعيداً !

– انتبه لقدمي ايها الرئيس .

وقرب قدمه إلى الأمام ولمس الأرض بخفة . ثم قرب القدم الثانية . واختلطت الخطى واهتزت الارض بمروح وسرور . وامسكني بكتفي قائلاً :

– ابدأ يا بني لنرقص سوياً .

وغرقنا بالرقص ، كان زوربا يصحح اخطائي ، بقسوة وحنان وصبر . وهذا ما شجعني لاتابع . واحسست كما لو ان جناحين التصقا بقدمي . وراح زوربا يصيح مصفقاً بيديه ليضبط رقصنا :

– حسناً .. حسناً ياولدي .. فلتذهب الدواة والاقلام الى الجحيم .. لتلحق بها الاملاك والاشغال .. الآن لقد اصبحت تعرف لغتي .. لهذا فلنتفاهم على كل شيء .

وقفز عالياً مصفقاً بقدميه صائحاً :

– ايها الرئيس ، اريد ان اقول لك شيئاً .. لم احب شخصاً في حياتي كما احببتك .. إلا ان لساني غير قادر على تعبير مدى محبتي لك .. لذلك فسأرقص لك محبتي .. ابتعد قليلاً كي لا اصطدم بك .. هيا .. هوب ..

ووثب .. والتصقت اجنحة قوية بيديه وقدميه ، كأنه ملاكاً عجوزاً .
قفز عمودياً في الهواء .لقد كانت هذه الرقصة الخاصة بزوربا كأنها تحد للكون،
ثورة وتمرد . وكان يصيح « ما الذي تقدر ان تفعله بي .. أيهـا القوي الأكبر .؟
وأنا لا اهتم لذلك ، فلقد رقصت ما أردت .. ولن احتاجك بعد الآن ! »

ورحت احدق ببقايا المصعد المنهار الذي تحوّل إلى اكوام الحطـــام ، كانت
الشمس قد صارت في طور الغروب . اتسعت حدقتا عيني زوربا . كأنه قـــد
تذكر شيء مـــا . التفت إلي صائحاً .. قافزاً . وترك نفسه يرتمي عـــلي ،
واحتضنني .. وراح يقبلني قائلاً بحنان :

– اتضحك .. اتضحك ايها الرئيس .. هيا .. يا بني !.

وغرقنا بالضحك متدحرجين فوق الحصى .. ورحنا نتدحرج ونتدحرج..
حتى انهكنا التعب .. وغفونا كل منا بين ذراعي الآخر .

* * *

عند الصباح استيقظت واتجهت نحو القرية ، كنت اشعر بقلبي يقفز ، فأنا
لم اشعر بمثل هذا السرور في حياتي .. بل لم يكن سروراً بل متعة عارمـــة .
تناقض جميع المفاهيم . هـــذه المرة خسرت كل شيء، مالي ، عمالي ، المصعد،
العربات .. لقد اضعت كل شيء .

ولكن في هذا الوقت فقط شعرت باني تحررت .. شعرت باني عـثرت على
الحرية أخيراً . اني اذكر ان زوربا قص لي . انه كان مرة فوق أحـــد جبال
مقدونيا وكانت الريح عاصفة ، والسماء ماطرة فاختبأ في كوخه . وأحـكم غلق
الأبواب والنوافذ . وراح يتحدى الرياح ضاحكاً وساخراً « لن ادعك تدخلي
كوخي ، لن افتح الباب لك ، ناري ستبقى مشتعلة .. سأتغلب عليك » .

لم تكن الشمس ارتفعت تماماً ، وكانت الألوان متماوجـــة تتلألأ في الجو .
والعصافير المزقزقة قد ثملت بالنور الجديد .

كنت اسير على حافـــة البحر مودعاً الشاطىء بأكمله ، ولأحتفظ به في
ذاكرتي . لقد شعرت بمتع كثيرة فوق هـــذا الشاطىء . وقد اتسع قلـــبي
بمعاشرة زوربا ..

مرّ بي بعض القرويون من الرجال والنساء يحملن بعض السلال والقناني . كانوا
متجهين نحو الحقول للإحتفال بأول أيار ، عيد العمال . ومرت بقربي صبية جميلة،

ذات صدر ناهد قبل أوانه ، كانت تركض ، ووراءها يجري رجل ذو لحية سوداء . يستشيط غضباً . فاختبأت خلف إحدى الصخور فصاح بها :

– انزلي .. ها .. انزلي ..

إلا ان الفتاة وضعت يدها خلف رأسها وراحت تنشد هازة ردفيها بغنج ودلال :

– « قل هذا بمرح .. قله بغنج

قل انك لا تحبني .. قله فأنا لا اهتم أبداً » .

وعاد الرجل ليصيح بها بتوسل وتضرع وتهديد :

– انزلي .. انزلي .

وفجأة قفز وأمسك بقدمها بقسوة . فانحدرت الدموع من عيني الفتاة بسرعة كأنها كانت تنتظر هذا لتبكي .

تابعت سيري بخطى سريعة . فقد كانت كل هذه المتع تهيج قلبي . وعادت السيدة العجوز إلى ذاكرتي ، سمينة معطرة ، ، وقد شفت غليلها من القبل ، متمددة على الارض . حركت رأسي بتقزز . فالارض بعض الأحيان تصبح شفافة ، فنشاهد الرئيس الكبير ، الدود . الذي يعمل ليلاً نهاراً في مصانعه تحت الأرض ، إلا اننا نبعد نظرنا بسرعة لدى مرآنا مجرد دودة صغيرة بيضاء .

عند مدخل القرية التقيت بساعي البريد ، الذي ناولني رسالة ذات غلاف ازرق قائلاً « رسالة لك أيها الرئيس » . وغمرني سرور لا يقاوم . عبرت القرية بسرعة . وفتحت الرسالة . كانت قصيرة وموجزة :

« لقد وصلنا إلى حدود جورجيا ، بعد ان هربنا من الاكراد ، كل شيء يسير سيراً حسناً ، لقد شعرت اخيراً بمعنى السعادة . لقد استطعت ان افهم اخيراً الحكمة القائلة « لكي تصل لسعادتك ، قم بواجبك » وكلما كان هذا الواجب قاسياً ، كانت السعادة أكبر .

بعد ايام قليلة ستصل هذه المخلوقات الهاربة إلى « باتوم » وقد استلمت من لحظة برقية « لقد بدت البواخر الاولى » ان هؤلاء اليونانيين الاقوياء مع زوجاتهم واطفالهم ، سوف يرحلون قريباً إلى مقدونيا وتراسيا ، سوف تزداد قوة اليونانيين .

« لقد اصابني التعب قليلاً ، ولكن النتيجة كانت حسنة . فقد خضنا معركة وانتصرنا ، وهذا هو المهم ، فأنا سعيد . »

وضعت الرسالة في جيبي ، واسرعت الخطى . كنت مسروراً أنا ايضـــاً . كنت اسير في الطريق الجبلي الوعر ، كانت الشمس ترتفع وخيالي يطول تحت اقدامي ، وارتفع صقر في السماء . طائراً بسرعة .

كانت السعادة مسيطرة علي ، لو قدرت لكنت غنّيت لأعيد الهـــدوء إلى نفسي . وسألت نفسي « هل تحب صديقك كثيراً هكذا ؟ ام انـــك وطني متحمس دون ان يعلم ؟ الا تستحي ؟ هدىء من روعك » .

وتابعت سيري ، أعوي ، وقد أخذني الفرح بعيداً ، وتناهى لسمعي صوت اجراس حقيرة ، وبدت بعض المواشي والعنزات ، وعلت رائحة نتنة . وقفز راع من بين الصخور قائلاً :

– لماذا تسرع هكذا أيها الصديق ؟ هل تركض للحاق بأحد ؟.

-- كلا بل عندي عمل !

– اقترب واشرب كوباً من اللبن ترطب به زلعومك .

– قلت عندي عمل ...

– أوه .. لا تحب لبني ! على كل وفقك الله .. سر على مهل !

وصفر للمواشي فأسرعت كلها . وبعد لحظات اختفوا جميعاً . وصلت قمة الجبل وشعرت بان انفعالي قد تلاشت ، كأنني قد وصلت إلى غايتي ، واستلقيت على إحدى الصخور وسرحت بنظري عبر السهل والبحر ...

انتصبت واقتطفت بعض الأزهار والنبات ، وجعلت منها وسادة ، كنت منهوك القوى ... واغمضت عيني .

وسرح عقلي لبرهة ، هناك نحو هضاب الثلج ، متصوراً القطيـع الكبير من الرجال والنساء والأولاد ، تتجه جميعها شمـالاً ، وصديقي يقودهم ، سائراً في المقدمة كأنه التيس قائد القطيـع . ولكن بسرعـة اختفت الرؤيا ... وغرقت في النوم .

حـاولت مقاومة النعاس ، إلا انه انه اطبق على جفني بقوة ، فاضطررت للاستسلام .. ولكني لم اغفو سوى لحظات . لقد افلتت من بين شفتي صرخـة هائلة ، وفي نفس اللحظة مرّ غراب فوق رأسي ... لقد كان حلمـاً مرعباً ... كنت ارتعش .

شاهدت نفسي في اثينا ، اسير عبر شارع هرمس وحيداً ، كانت حمـأة

الشمس قوية ولم يكن في الشارع غيري . وفي ميدان « الدستور » شاهدت صديقي يركض لاهثاً خلف رجل طويل القامة نحيفها . وكان صديقي يرتدي لباسه الإرستقراطي الأنيق . عندما شاهدني صاح قائلا :

– اوه ايها المعلم .. كيف انت ؟ منماية سنة لم أرك . تعال هذا المساء لنتكلم قليلاً !

– ولكن الى اين !

– إلى ميدان الكونكورد في حانة « نبع الفردوس » الساحة السادسة .

– حسناً سأكون هناك .

فصاح بي موبخاً .

– دائماً تقول هذا ولكنك لن تأتِ !

– بل سأحضر بالتأكيد . هات يدك .

– انني على عجلة !

– لماذا على عجلة ؟ هات يدك .

ومد يده ولكنه كان بعيداً ، وفجأة انفصلت يده عن كتفه ، واسرعت نحوي لتمسك بيدي ،ارتعبت من هذا ، وافلتت مني صيحة هائلة .. واستيقظت والغراب فوقي .

استدرت نحو الشرق ، وحاولت ان ارى البعيد .. البعيد .. محاولاً ان اتغلب على المسافات لأرى صديقي .. كنت متأكداً بأنه كان بخطر ..وصرخت بأعلى صوتي محذراً .

– ستافريداكي ... ستافريداكي ... ستافريداكي !

حاولت اقصى جهدي ان يصل صوتي له .. إلا انه تلاشى على مبعدة عدة خطوات .

وعدت لانحدر عبر الجبل ، وقد سيطر علي الرعب كنت احاول ان اصل الفازوكنه ، هذه الرسائل الروحية ، التي تنجح بعض الأحيان في خرق قوانين الطبيعة : وعادت لنفسي روح البشر البدائيين .. التي انفصلت منذ زمان بعيد عن الكون . وهمست :

– انه خطر .. خطر .. سوف يموت لعله نفسه لا يعرف .. ولكني انا اعرف .. بل متأكد ..

كنت انحدر بسرعة كبيرة ، فانكفأت على وجهي ، وتـــدحرجت فوق الحصى ... وانتصبت وقد غطت وجهي ويدي الخدوش .. وقد تمزقت سترتي. إلا ان الإطمئنان عاد لنفسي . وكنت اهمس « سوف يموت .. سوف يموت .

يدعي الإنسان بانه قد بنى حوله حصناً كبيراً ليختفي فيه من غـــدرات الزمان ، إلا ان الموت ، ذلـك العدو الرهيب الأكيد الذي يخشاه الإنسان حتى آخر لحظة ... قد فاجأني هذا العدو وانقض على روحي ...

وصلت إلى الشاطىء . التقطت انفاسي .. وفكرت « ان هذا الخوف .. يولد من كيان الإنسان .. ونراه بشكل رمزٍ . ولكننا نحن نفلقها بأنفسنا » . وشعرت بالإطمئنان قليلاً بعد ان هدأت نفسي ..

وصلت إلى الكوخ ... وشعرت بسخريـة من سذاجتي .. لقد خجلت من أن يكون عقلي ، قـد وقع بسرعة بين أحضان الرعب . وعدت إلى الواقـــع الحزين من جديد . وعدت لأشعر بالجوع والعطش . وشعرت بالتعب . وبـدأت الجروح تحرقني .. ومع هذا فكان الاطمئنان يسيطر علي ... فالعدو الرهيب قد تراجع أمام خطوط الدفاع الثانية لروحي ...

- ٢٦ -

لقد انقضى الأمر أخيراً . كان زوربا قـد جمع بقايا المصعد والخشب . قرب الشاطيء بانتظار المركب . فقلت له :

— انني اقدمها جميعاً لك يا زوربا .. وفقك الله .

فأجاب محاولاً بلع ريقه ليمنع نفسه من البكاء .

— هل نحن مفترقان ايها الرئيس . إلى أين ستذهب ؟

— سأذهب إلى الخارج ... ان « قارض الورق » في داخـلي لا يزال في داخلي ليقضم بعض الأوراق الباقية .

— ألم تتخلص منه بعد ايها الرئيس ؟

— أجـل يا زوربا لقد تخلصت ، ولكن سأفعل ما فعلته انت بالكرز ، سأتناول الكثير .. الكثير من الورق حتى تتقزز نفسي.. عندها سأتقيأ واتحرر من الكتب .

— ولكن ما الذي سأصاب به أنا بعد تركك أيها الرئيس ؟

— لاتقلق يا زوربا ، سنتقابل ثانية. ومن يدري ، ان الإنسان قوي جـداً . وقديتحقق يوماً مشروعنا الكبير. ذلك الدير ،ولكن دون الشيطان ـ رجال احرار فقط . وانت ستكون البواب تحمل المفاتيح الكبيرة . مثل القديس بطرس .. لتفتح وتقفل ...

كان زوربا جالساً على الأرض مسنداً ظهره إلى حائط الكوخ ، يمـلأ كأسه ويشرب دون توقف . وكان الظلام قد خيم على المكان وقد انتهى طعامنـا ، نتكلم حديثنا الأخير ونشرب . وفي صباح غد الباكر ... سنفترق . وكان زوربا يكرر بين الفينة والفينة ...

— اجل ... اجل ... اجل ...

كانت السماء تتلألأ بالكواكب . والليل يهيمن على المكان . وكان قلبنا في كياننا الداخلي ، يريد ان يلتئم .. إلا انه كان يتراجع دائماً .

كنت انظر إليه بجشع فقد كانت هذه المرة الأخيرة التي سأراه فيها.. انظر إليه .. فلن أراه ثانية .. شعرت برغبة ان ارتمي على ذلك الصدر الهرم . لارتاح وابكي ..الا انني خجلت .. حاولت ان اضحك لاخفي انفعالي ..ولكني لم اقدر فقد جف حلقي .

كان زوربا يشرب دون توقف . كنت انظر اليه وقد اغرورقت الدموع في مقلتي ما هذا السر الغريب .. الحياة .. الإنسان يلتقي باخوه الإنسان ومن ثم يتبعثرون .. كأوراق الشجر . وبلا أمل يحاول ان يحتفظ بوجه الحبيب قدر الإمكان . فبعد سنوات قليلة .. ينسى ما كان لون عينيه . وصحت في نفسي « ان الحياة الانسانية كانت ويجب ان تكون من الفولاذ .. من البرونز » .

كان زوربا لا يزال يشرب .. مصغٍ لشيء غير مسموع فسألته :

– بماذا تفكر يا زوربا ؟

– بماذا تريدني ان افكر . ايها الرئيس .. بلاشيء . لا افكر بشيء بالمرة ! نخب صحتك أيها الرئيس !

وقرعت الكؤوس .. كنا نشعر بأن مثل هذا الحزن يجب ان لا يبقى طويلاً . فقد كان علينا ، اما أن نندفع في البكاء بكل جوارحنا .. أو أن نثمل ، لنرقص كالمجانين وقلت :

– اعزف يا زوربا ...

– لقد سبق وقلت لك بأن السانتوري يحتاج قلباً سعيداً .. ربما اعزف بعد شهرين أو سنتين ... أو ربما لن اعزف بالمرة ! من يعلم ؟ .. سأغني بعد ذلك كيف يفترق اثنان فراقاً ابدياً .

فصحت برعب شديد :

– ابدياً .!.

وراح صدى هذه الكلمة يتردد في داخلي دون توقف . فأنا لم أكن أتصور بأنها ستقال أبداً .. وكرر زوربا محاولاً ان يبلع ريقه بصعوبة :

– أجل أبدياً .. أبدياً . ان ما تقوله الآن سنجتمع ثانية .. وبأننا سنبني ذلك الدير ليس إلا تعزية فظيعة . وأنا لا أنوي قبوله .. بل لا أريده .. نحن

لسنا بنسوة لنكون بحاجة لمثل هذا العزاء . اجل ابدياً .. ابدياً .

– ربما سآتي معك ... ربما سأبقى معك . من يعلم اني حر !

– كلا انك لست حراً . فالحبل الذي ربطت به نفسك اطول بقليل من حبل الآخرين . هذا كل ما في الأمر .. أيها الرئيس ، حبلك كما قلت لك طويل .. فأنت تذهب وتجيء معتقداً بأنك حر .. ولكن دون ان تقطع الحبل .. عندما تقطع الحبل فقط ...

وشعرت بإحتقاري لنفسي .. وقبلت التحدي :

– سأقطعه ذات يوم ...

– هذا صعب جداً أيها الرئيس . صعب جداً .. فهذا يحتاع لجنون كبير . ان تخاطر بكل شيء إلا ان عقلك كبيراً ... وهذا ما يتغلب عليك . فالعقل كأنه سمّان لديه دفاتر حسابات يسجل فيه كل شيء : دفعت كذا ... وادخرت كذا ... وهذه ارباحي ... أو خسائري . كما قلت لك عنده دكان صغير . فهو لا يغامر بكل ما يملك . بل دائماً يفكر ويحتاط . انه لا يقطع الحبل . بل يمسك به بقوة ... الجبان . واذا ما تركه .. فقد هلك المسكين . ولكن دون ان تقطع ذلك الحبل .. فاي معنى للحياة ؟ . ستكون كانها بابونج .. بل عشب بلا طعم .. ليس كطعم الخمر الذي يجعلك ترى الدنيا مقلوبة .

وسكت وسكب الخمر من جديد . إلا انه غير رأيه قائلاً :

– اني آسف ايها الرئيس .. فأنا فظ قليلا . فالكلمات تتعلق بأسناني كما تتعلق الوحول بالاحذية . فأنا لا استطيع ان اقول تعابير مجاملة وجميلة للعزاء.. ولكنك تفهمني ؟!

وعب كأسه صائحاً بعد ان بلغ ذروة الإنفعال :

– انك تفهم .. أجل تفهم وهذا ما سيهلكك .. لو كنت دون فهم لكنت آنذاك سعيداً .. فأنت لا ينقصك شيء بالمرة ، شاب ، ذكي ، وعندك المال اللازم ،وشجاع .. يا للشيطان لا ينقصك شيء بالمرة . بل ينقصك شيء واحد ، الجنون . وعندما ينقص هذا الشيء أيها الرئيس ..

وهز رأسه بعنف .. وعاد للسكون .

لم يكن يفصلني عن البكاء سوى لحظات . فقد كان كل ما يتفوه زوربا به

صحيحاً وعندما كنت طفلاً كنت اندفع بجنون . جنون لاتجاوز قدرة الإنسان ، وكأن الانسان لا يستطيع ان يستوعبني .

ورويداً رويداً ، ومع مرور الزمن ، كبر عقلي ، واصبحت حكيماً . كنت اضع حدوداً للقوى وابيّن الممكن والمستحيل . والمخلوق عن الخالق .

وبدت نجمة كبيرة تهوي عبر السماء ، فارتجف زوربا ، وبرقت عيناه ، كأنه يرى نجمة تهوي للمرة الأولى . وقال :

– هل شاهدت النجمة ؟

– أجل .

وعاد الصمت ليخيم من جديد . وفجأة رفع زوربا رأسه ، واخذ نفساً عميقاً وعلت صيحته الوحشية ، وتحولت هذه الصرخة إلى كلمات عذبة انسانية . وارتفع من بين احشاء زوربا لحن تركي قديم .. يكتنفه الحزن والكآبة . وتلاطم قلب الارض .. وانتشرت العذوبة .. وتقطعت جميع الحبال التي تربطني إلى الأمل والخير ..

« لاتغن ايها الجمل .. آمان .. آمان . البادية ، الرمل الناعم البعيد ، الهواء يرتعش .. النفس بصرختها الهاذية .. ولكن ليس من مجيب » .

واختنق صوتي .. وملأت الدموع مقلتي . وسكت زوربا ومسح العرق عن جبينه بظهر يده . وراح ينظر إلى الأرض . وسألته :

– ما هذه الاغنية التركية يا زوربا ؟

– انها اغنية راعي الجمال .. ينشدها في الصحارى تذكرتها مرة منذ سنوات .. وهذا المساء أيضاً .

ونظر إلي ، كان صوته قاسياً ، فقد جف حلقه وقال :

– لقد آن لك ان تذهب لتنام ، فسنستيقظ غداً باكراً لتذهب إلى كاندي لتستقبل المركب .

– كلا .. لا اشعر برغبة في النوم .. فهذه الليلة الأخيرة التي نقضيها سوية .

– و لهذا السبب يجب ان تنقضي الليلة بسرعة .

ورفع كأسه بشكل مقلوب علامة على أنه لا يريد ان يشرب أكثر . لقد كف عن الشراب مرة واحدة .. كما يفعل الرجال الحقيقيون . يكفّون عن التدخين والشراب .

– يجب ان تعلم هذا ، كان والدي رجلاً مقداماً . لا يوازيه أحد شجاعة .. لاتنظر إلي هكذا .. فأنا لست جباناً ، وليس مثله أيضاً .. لقد كان إذا شد على كفك لحطمه ولم يكن يتكلم كثيراً .

« كان قد خبر جميع الأهواء . ولكنه كان يقلع عنها مرة واحدة . كان يدخن كمشحرة وذات صباح ، استيقظ ، واتجه نحو الحقل ليزرع الارض .. واستند إلى السياج وتناول كيس التبغ .. فوجده فارغاً ..

فاستشاط غضباً ، وراح يزمجر .. واسرع راكضاً نحو القرية . كان الجنون قد سيطر عليه . وتوقف فجأة .. يا للإنسان من لغز .. توقف وكله خجل .. وتناول كيس التبغ ومزقه ورماه على الارض .. وبصق عليه :« القذرة .. القذرة .. الفاجرة » .

ومنذ ذلك اليوم ، وحتى آخر أيامه لم يدخن سيجارة واحدة .. هذا ما يفعله الرجال الحقيقيون .. ليلة طيبة .

وانتصب وعبر الفسحة التي بيننا بخطوات واسعة ولم ينظر إلي . حتى وصل إلى أبعد مكان على الشاطىء . واستلقى على إحدى الصخور .

ولم اشاهده ثانية ابداً . وفي الصباح امتطيت البغلة وذهبت . اني اتساءل ، وربما أكون على خطأ ، ربما كان في ذلك الصباح مختبئاً في مكان ما ينظر إلي بينما ارحل . فهو لم يكن فوق تلك الصخرة . لم يرد ان يودعني،ان يعانقني . لتنفطر قلوبنا ألماً . ونلوّح لبعضنا من بعيد . افترقنا هكذا .. مرة واحدة .

عندما وصلت كاندي استلمت برقية ، كنب اعلم ما بداخلها ، حتى وعدد كلماتها . تملكتني رغبة حادة في ان امزقها دون قراءتها . فتحت البرقية وقرأت بحلق جاف وعينين رائغة .

« امس بعد الظهر توفي ستافريدا كي على أثر التهاب رئوي » .

- ٢٧ -

ومرت السنون ، خمس سنين طويلة مخيفة ، كان الزمان يجري فيها بسرعة دون ملل . واشتركت جميع الدول بالرقص ، فتقاربت وتباعدت . وشعرنا بالغضب ، زوربا وأنا . وكنت من وقت لآخر استلم منه بطاقة مقتضبة .

مرة من جبل آتوس ، ارسل صورة للعذراء ، وكتب زوربا تحتها بريشته الثقيلة المعهودة « هنا لا يوجد أي مجال للقيام بأعمال الكهنة ، سوف اترك هذا المكان ، فهنا يسجنون حتى الحشرات » .وبعد ايام قلائل استلمت بطاقة ثانية « لا احتمل التنقل بين الاديرة ، حاملا الببغاء بيدي كبائع متجول ، لذلك فقد قدمته هدية لكاهن علمّ أحدطيوره أن ينشد كيرياليسون ، ان اللعين يغني كأنه كاهن حقيقي . لذلك فهو سيعلم ببغائنا الغناء ايضاً.وسيصبغ « الأب الببغاء ».. وسأسميه الأب الكسيوس .. الراهب القديس » .

وبعد ستة اشهر استلمت بطاقة من رومانيا ، صورة لفتاة ، كتفيها عاريين ، وكتب عليها « لا زلت اعيش وواتناول « المامالينغا » واشرب البيرة ، وأعمل في آبار النفط القذرة ، ولكن كل هذا لا يهم مادمت أجد كل ما اشتهيه ، انها فردوس حقيقي للبحارة الطاعنين بالسن . اتفهمني ايها الرئيس ، دجاج ونساء . ليبارك الله . قبلات كثيرة من الكسيس زوربيسكو ، جرذ الأقذار » .

وبعد مضي سنتان استلمت منه بطاقة اخرى ، هذه المرة من بلاد الصرب . « لا زلت أحيا ، الجو قارص البرودة ، لهذا فقد وجدت من الافضل ان اتزوج ، وزوجتي الآن حامل في هذه الأيام البس خاتم بوبولينا ، رحمها الله ،زوجتي تدعى « ليوبا » وقد قدمت لي مهراً لا بأس به ، فرس وسبعة خنازير . وكذلك طفلين من زوجها السابق ، لقد نسيت ان اخبرك انها ارملة ايضاً . لقد اكتشفت في جبل قريب مقلع للحجارة البيضاء ، واستطعت ان اغري ممولاً جديداً . .

وانا الآن التهم امواله ، واعيش مثل الباشا . اقبلك باخلاص . الكسيس زوربيتش .

وعلى ظهر البطاقة ، صورة زوربا ،قوياً ، بملابس الزواج، يضع على رأسه قبعة من الفرو وبقربه فتاة جميلة بالكيد في الخامسة والعشرين ، بدت جميلة ، مثيرة . ترتدي جزمة طويلة ، وذات صدر عارم . وتحت الصورة كتب « هذا أنا زوربا .. المشكلة التي لا تحل ، المرأة ، وهذه المرة تدعى ليوبا » .

كنت انا خلال هذا الوقت اسافر ، وعندي مشكلتي ، ولكنها بلا صدر عارم ولا مهر لتقدمه لي ولا خنازير . وفي أحد الايام استلمت منه برقية ، وكنت وقتها في ألمانيا « اكتشفت احجار خضراء عظيمة ،احضر فوراً ، زوربا . »

كان ذلك في أيام المجاعة المشهورة في المانيا . وكان المارك قد سقطت اسعاره ، حتى انك إذا اردت ان تشتري شيئاً بسيطاً ، كان عليك ان تملأ حقيبة بالنقود ، مجاعة ، برد ، ملابس بالية ، واحذية ممزقة . وبهتت الوجنات الالمانية . كان الناس يموتون جوعاً في الشوارع . والاطفال الرضع كانوا يمضغون قطع من الكاوتشوك بدل رضع الحليب . وخلال الليل كان رجال الشرطة يحرسون الجسور ، حتى لا تأتي الأمهات ويرمين بأطفالهن وينتحرن .

كان الشتاء قاسيا ، وفي الغرفة التي بجانب غرفتي . كان يسكن فيها مستشرق الماني ، ولكي يملأ فراغه ، كان يعيد نسخ قصائد صينية قديمة . وأيضاً لكي يشعر بالدفء . وكان يقول لي :

– بعد قليل سوف اتصبب عرقاً وهكذا سوف اتدفأ .

في هذه الايام الصعبة ، استلمت البرقية . اولاً شعرت بالغضب . فبينما كان كثير من الرجال يموتون جوعاً ، ويقضون من أجل كسرة خبز . استلمت برقية تدعوني لأن اعبر آلاف الاميال لأشاهد حجراً اخضراً جميلاً .. فليذهب الجمال إلى الجحيم . فالجمال بلا قلب فهو لا يشعر بألم البشر .

إلا انني شعرت فجأة بالخوف : فقد هدأت نفسي وشعرت باحتقار ، فعلى نداء زوربا اللاإنساني ، كان يرد نداء لا انساني آخرمن داخلي . كما لو كنت مسكوناً بطائر كاسر .

ومع هذا لم احقق طلبه ، لم اطع تلك الصرخة التي تجاوبت مع زوربا .

لقد اطعت صوت العقل . وكتبت لزوربا وشرحت له الأمر . واستلمت منه مـــا يلي :

« انت مع كل احترامي لك ، كاتب رديء ، فقد اتيحت لك الفرصة لترى حجارة جميلة خضراء ولكنك لم تقبل . بعض الاحيان اتساءل « هل يوجد هناك جهـــنم أم لا ؟ » ولكن بعـد ان استلمت رسالتك ، تأكدت بأن جهـــنم موجودة للكتاب الأغبياء أمثالك » .

ومنذ ذلك الوقت لم استلم منه شيئاً وعاد العالم ليتمايل من جديد تحت وطأة الحروب والمشاكل الدولية . وتلاشت الصداقات والمشاكل الشخصية .

كنت كثيراً مـــا اكلم اصـدقائي عن تلك الروح الكبيرة ، وكنت اعجب لمثل هذه المشية المتكبرة لهذا الرجل الغير المتعلم . فقد كان زوربا يصل إلى أعلى ذرى المعرفة بقفزة واحدة وكنا نصفه « ان لزوربا نفس متعالية » وعندمـــا كان يتجاوز هذه الذرى كنا نقول « انه مجنون » .

وهكذا كانت الأيام تمر ممزوجة بالسم الحاضر وعذوبة الماضي . وكان خيـــال صديقي الآخر يثقل روحي . ولم يكن يتركني لوحـــدي ، لانني لم اكن انا اريد ان اتركه .

ولكن هذا الخيال لم اكلم عنه احد مطلقاً . كنت اخاطبه سراً ، والفضل يعود له باني اصبحت صديق للمـــوت . وكان يشكل الممر الوحيد نحو الحياة الثانية . وعندما كانت روح صديقي تمر فوقه ، كنت اشعر بها تعبة ، منهكة ، لم يعد فيها القوة الكافية حتى لمصافحتي .

وبعض الاحيان كنت افكر ، ربما ان صديقي لم تسنح له الفرصـــة ليتمتع بعد بعبوديته ، بمعرفة الحرية الكاملة ، حتى لا ترعبه صورة الموت الأبدي . لعله لم تسنح له الفرصة ليشعر بأبدية ما كان بداخله أبدي .

ولكن في بعض الأحيان ، كنت اشعر بأن قوته قد عادت له ، بل لعلني أنا كنت امنحه حباً وحناناً اكبر ، فيعود وقد بدا عليه الشباب والنضارة والقوة ، حتى انني اكاد اسمع خطاه فوق سلم الغرفة .

لقد زرت في هــذا الشتاء جبال آنغاوين ، حيث كنت قـد امضيت مــع صديقي بصحبة امرأة نحبها أيام لا أحلى ولا أعذب .

نزلت في نفس الفندق ، كنت ممدداً وكان القمر ينساب بهدوء عـبر النافذة

المفتوحة فأحس عبر عقلي النائم ،بجبال وغابات مكسوة تدخل الغرفة على مهل. شعرت بسرور عارم وكأن الحلم خضم عميق شفاف ، وكأني نائم بين احضانه.. وكنت شديد الحساسية . حتى لو ان باخرة مرت على بعد مئات الأمتار كانت قادرة على حزّ جسدي .

وعلى حين غرة وقع فوقي خيال . وعرفته بسرعة . ورن صوته في اذني موبخاً :

– اتغفو !؟

– لقد طال انتظاري لك ، ولم اسمع رنين صوتك منذ مدة بعيدة .

– انني دائماً بجانبك ، ولكنك لم تعد تذكرني . فأنا ليست لدي دائماً القوة على ندائك . وانت دائماً تبتعد . يا لهذا ضوء القمر من رائع ، وهذه الاشجار التي تغطيها الثلوج . ويا للحياة على الأرض . ارجوك اذكرني !

– كلا .. انا لا انساك بالمرة وانت تعلم هذا تماماً ، وفي الأيام الأولى التي تركتني فيها كنت ، اسير عبر الجبال القاسية لأتعب جسدي ، وكنت اقضي الليالي صاحياً افكر بك . بل لقد ألفت أشعار حتى لا افطس ، ولكن هذه الأشعار الحقيرة لم تكن قادرة على تحريري من ألمي . وأحدها يبدأ هكذا .

« عندما كنت تمشي بقرب الموت كنت ادهش لقامتك الفارغة ، كنت اعجب لمرونتكما كليكما على ذلك الدرب القاسي .

« كنتم كصديقين مترافقين منذ الفجر .

وفي قصيدة ثانية لم تنته أيضاً قلت :

« يا حبيبي شد على اسنانك لكي لا تتلاشى روحك » .

ابتسم وابعد وجهه عني ، وارتعشت عندما شاهدت التعب في وجهه . نظر إلي بعينيه المتحجرتين ، بل بالكرتين المجوفتين وهمست .

– بماذا تفكر لمَ لا تتكلم ؟.

وعاد ليقول متنهداً :

– اوه ...ماذا تبقى لنفس كان العالم بالنسبه لها حقيراً جداً . هذه الاشعار يجب ان تكون لشخص آخر . فأنا اتجول على الأرض ، واحاول زيارة من كانوا احبائي ، ولكن قلبهم قد اغلق دوني . فمن اين ادخل ؟ كيف اعيد الحياة لجسدي ؟ فأنا أدور في دائرة مقفلة ككلب ، يدور حول منزل مغلق الأبواب

ليتني استطيع ان اعيش حراً طليقاً . دون ان اتملق ، كأني غريق بأجسادكم الدافئة الحية .

واغرورقت الدموع في عيني ، وتوحلت الأرض من كثرتها . ولكن رنين صوته الواثق عاد ليقول :

ـ آه كم اشعر بالسعادة ، عندما اتذكر ذلك اليوم في ميونيخ ، عندما شربت نخبي يوم عيدي هل تذكر ؟.. كان بصحبتنا شخص آخر .

ـ انني اذكر تماماً كان الشخص الذي نسميه سيدتنا .

وشممنا . كم من سنون مرت على ذلك اليوم في ميونيخ . كانت تثلج في الخارج ، وعلى المائدة بعض الأزهار ، كنا ثلاثة . وعاد الخيال ليسأل من جديد :

ـ بماذا تفكر أيها المعلم العزيز ؟

ـ بأشياء كثيرة ... جميع ...

ـ أما أنا فلا زلت افكر بكلماتك الأخيرة . بعد ان رفعت كأسك وتفوهت بهذه الكلمات « رفيقي ، عندما كنت طفلاً صغيراً ، كان جدك العجوز يضعك على ركبته ، وعلى ركبته الثانية كان يضع قيثارته ليعزف الحاناً يونانية . انني اشرب هذا المساء نخب صحتك . ولتكن جالساً هكذا على ركبة الرب » ولقد استجاب الرب لدعائك بسرعة .

ـ وما يهم هذا ، فان الحب اعظم واقوى من الموت .

وابتسم بألم ، كنت اشعر بجسده النحيل الشاحب يتلاشى في العتمة ليتحول الى بكاء وانين . »

وبقي طعم الموت بين شفتي لأيام عديدة . إلا ان قلبي هدأ أخيراً . فقد تعرفت على الموت أخيراً على شكل وجه حبيب مألوف . كرفيق جاء ليأخذنا ، ولكنه ينتظر بصبر كبير ان ننتهي من اعمالنا .

وكان خيال زوربا دائماً يحوم حولي بقوة وغيرة .

وفي إحدى الليالي. كنت وحدي في المنزل على شاطىء البحر . كنت اشعر بالسعادة ، وكانت النافذة التي تطل على البحر مفتوحة كلية . وقد بدا القمر من خلالها . وكان البحر يتنفس بارتياح شاعراً بالسعادة مثلي . وكان جسدي المتعب من السباحة الطويلة يغط في سبات عميق .

ووسط هذه السعادة العارمة ، ظهر زوربا لا اذكر ما قاله ، أو لماذا جاء .

ولكن عندما استيقظت شعرت بأن قلبي يكاد ينفطر . وامتلأت مقلتي فجأة بالدموع . وتملكتني رغبة جامحة في ان استعيد الحياة الجميلة التى عشناها سوية على الشاطىء الكريتي . ارغمت ذاكرتي على ان تسترجع الكلمات ، والصرخات ، والرقصات التي رقصها زوربا . وكانت هذه الرغبة قوية بشكل انني خشيت أن يكون زوربا في هذا الوقت يحتضر ، لانني كنت اشعر بأن روحه قد امتزجت بروحي.ومن غير المعقول ان تتلاشى واحدة دون ان ترتعش الاخرى.

ترددت لبرهة في استرجاع الذكريات التي خلفها زوربا داخلي . وسيطر علي رعب طفولي . كنت اخاطب نفسي « ربما إذا فعلت هذا ، فهذا معناه أن زوربا يجابه خطر الموت . لذلك يجب ان اصارع اليد التي تسير يدي » .

صارعت يومين ، ثلاثة . وغرقت في الكتابة بمواضيع ثانية . وقمت برحلات : وقرأت عدة كتب . كنت احاول ان اخدع الفكرة المسيطرة علي . إلا ان عقلي كان يرمي بثقله فوق زوربا .

وذات يوم ، كنت جالساً على سطح غرفتي ، قرب البحر ، وكان الوقت ظهراً،والشمس تشتعل،كنت احدق في سفوح جبال سالامين الجرداء . وعلى حين غرة ، امسكت بقلمي ،مدفوعاً بالفكرة المقلقة . واستلقيت على السطح المستعر وبدأت ادون أقوال وأفعال وحركات زوربا .

كنت اكتب بسرعة ، واعيش الماضي من جديد . واحاول ان اعيد لذاكرتي ، زوربا بكل مافيه . وكانني كنت اشعر بأنه لو اختفت ذكرى زوربا فسأكون مسؤولاً لوحدي . لذلك فقد كنت اكتب ليلاً نهاراً لأكوّن وجهه كما هو .

وبعد بضعة اسابيع كانت اسطورة زوربا العظيمة قد انتهت .

وفي أحد الأيام ، كنت جالساً على السطح بعد الظهر . وكانت الرواية المنتهية فوق ركبتي . شاعراً بالسرور والثقة . كأنني امرأة ولدت طفلها ووضعته على ركبتها بثقة واطمئنان .

وخلف الجبال البعيدة كانت الشمس تغرب بهدوء وسكينة . واقتربت مني فلاحة صغيرة تحمل البريد من المدينة اعطتني رسالة واسرعت هاربة . وادركت ما فيها ، أو على الأقل خيل إلي ذلك . لانني عندما انتهيت من قراءة الرسالة لم اصرخ ولم انتحب لقد كنت متأكداً من هذا . ففي نفس اللحظة التي انتهيت

منها من كتابة ذكرياته ، كانت الرسالة في طريقها إلي .

بهدوء وبساطة قرأتها . انهـــا مكتوبة من قرية قرب سكوبليج . من بلاد الصرب كتبت بلغة المانية ، مفككة . وهنا اترجمها كما هي بكل أمانة :

« أنا مختار القرية ، واكتب لك لاخبرك بالنبـأ المؤلم . وهو ان الكسيس زوربا الذي كان يملك مقلعاً للحجارة البيضاء قد قضى نحبه يوم الأحد الماضي . في الساعة السادسة مساءً . وقبل ان يموت ارسل في طلبي وقال :

– اقترب يا مختار ومعلم المدرسة . لي صديق يدعى كذا . في اليونان . عندما أموت اكتب له ، واخبره بانني كنت اذكره وافكر به حتى آخر لحظة من عمري .. واني لا اشعر بالأسف مطلقاً على الحياة .. وتمنى له صحة جيـــدة وحياة هانئة .. واعلمه بأنه قد آن الأوان بالنسبة له ليكون معقولاً .

« اسمع وإذا ما جاء الكاهن ليلقنني ويناولني القربان المقدس . فاخــبره ليركن للفرار ويلعنني . لقد قمت بأشياء كثيرة خلال حياتي ، واعتقد بأن كل ما قمت به ليس كافياً : ان الرجـــال أمثالي يجب أن يحيوا مئات السنين .. ليلة طيبة .

« لقد كان هذا آخر ماتفوه به وبعدها اتكأ على وسادته ، والقى بالغطـاء بعيداً وحاول النهوض . وحـــاولنا أن نساعده ، زوجته ليوبا وأنا ، وبعض الجيران . إلا انه ابعدنا ، ونهض من الفراش ومشى حتى وصل إلى النافـــذة . وهنـــاك تعلق نظره في المسافات البعيدة ، وذهلت عيناه وراح يضحك ، ثم صهل كأنــه فرس ، هكذا وبينما هـــو منتصب ، واصابعه معلقة باالنافذة ، قضي نحبه .

« لقد كلفتني زوجته ليوبا ، ان اكتب لك لابلغك تحياتها ، ولأخـبرك أن المرحوم كان دائماً يكلمها عنك ، وانه اوصى بإعطائك السانتوري ، كذكرى بعد موته ، لذلك فالأرملة ترجوك ، عندما تسنح لك الفرصة ان تمر على القرية ، وان تقضي الليل في بيتهـــا ، وعند مغادرتك في الصباح ، ان تصطحب السانتوري معك . »

تمت

صدر هـــذا الاسبوع

عـــن

مكتبة المنار ـــ بغداد

كتاب

مذكرات تشرشل

في جزءين

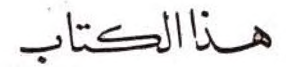
صــــدر هذا الاسبوع

عــــن

مكتبة المنار ـــ بغداد

كتاب

تشي غيفارا



هذا الكتاب

زوربا اليوناني الكل اعتبرها قصة او رواية اشتهرت وانتشرت بانتشار الرقصة التى عرفت باسمها والفيلم الذي انتج عنها .

اما الكتاب نفسه فهو فلسفة عميقة تعرّف الحياة البسيطه السلسة للانسان البسيط السلس . فلسفة حب الوطن والحياة . وتناحر العقل والروح والجسد من اجل المبادىء السامية والمثل العليا ونكران الذات . فلسفة الصداقة الحميمة التي بنيت في مجتمع بدائي فوق انقاض المصلحة الذاتية .

فلسفة فاض المؤلف فيها وبها نوع جديد من الحياة ، وكان شعاره « الحياة للحياة » .

انها نوع جديد من القصة والفلسفة لابد ان تقرأ .

الناشــر

الثمن : ٦٠٠ ق. ل.